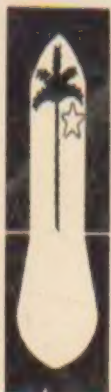


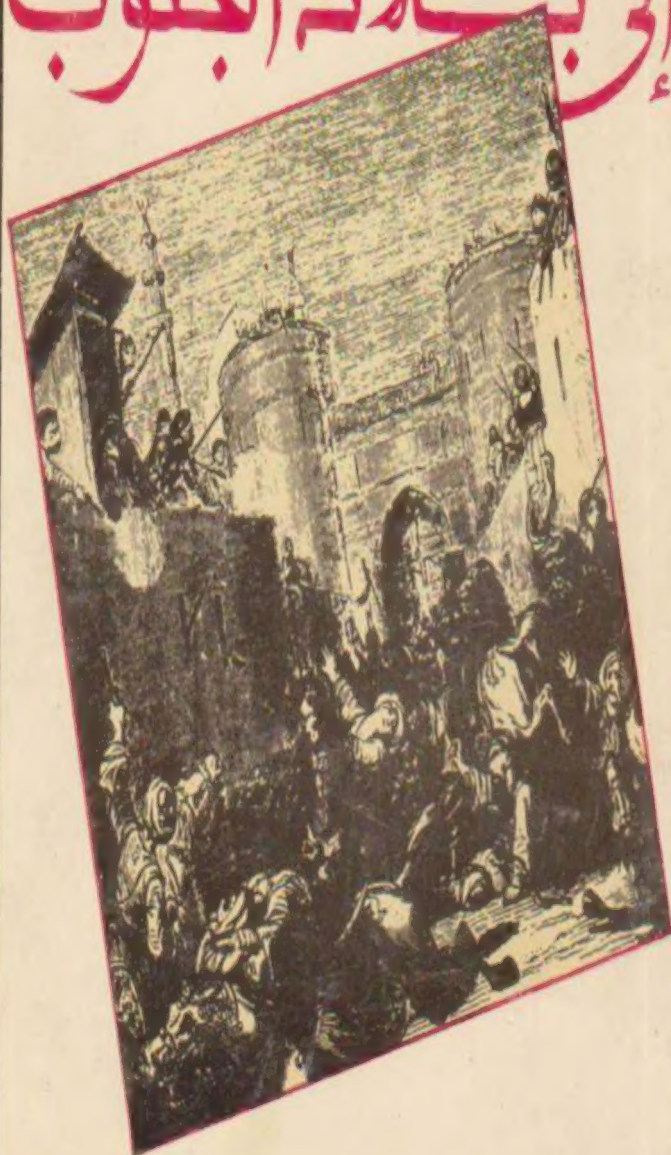
رواية

١



مجيد طويّا

# تغريبة بني حنوت إلى بلاد الجنوب



دار سعد الصباح

Dr. Binibrahim Archive



الطبعة الأولى ١٩٩٢

جميع الحقوق محفوظة ©

دار سعاد الصباح

ص. ب. : ٢٧٢٨

الطبعة ١٣١٢٢ - الكويت

ص. ب. : ١٢ المظفر - القاهرة

تليفون : ٢٤٩١٧٢٧

٢٤٩٧٧٩

فاكس : ٥٠٦١٠٢٠

رقم الإيداع : ٧٦٥١ / ١٩٩٢

I.S.B.N : 977 - 5344 - 15 - 8

الإشراف الفنى : حلمى الترنس

# تغرية بني حنوت إلى بلاد الجنوب

مجيد طويبا





(١)

## حكاية الغلمان مع الغزلان

بليت النعال في بحر الرمال ، ثاقلت الأقدام وتباطأت الأيام ، فصارت الأسابيع شهوراً ، والشهور دهوراً ، وهم عطشى جائعون بين الدروب ضائعون . تحاصرهم صخور الندم ورمال العدم . وجميع ذلك كي تتم نبوءة ضاربة الودع العجرية ، أن يتغرب الفتى تحت جنوباً ، ليلاقى السود ، ويجابه الأسود ، ويرى سحالي وتماسيح ، وأفاعي ذات فحيح ، ولا تتم له النجاة حتى يرى المياه تتساقط هادرة في الأجواء ، ومن حولها الرذاذ يملأ الفضاء ، فإن ظهر قوس قزح بألوانه السبعة ، أمن ضراوة كل فهد وضع ، وعاد إلى مسقط الرأس قوى البأس<sup>(١)</sup>.

تذكر تحتو حال أمه وأبيه ، والرئيس مرسى أخيه ، سبب الضياع في التيه ، وكيف خرج باحثاً عنه في بر الصعيد الطويل ، ومعه صاحبه الشاطر الذي قدم من القاهرة مهاجراً . من المنيا إلى ديروط ومنفلوط وأسيوط . في جرجا التقيا بصاحبهما إدريس ، الذي لحق بهما هارباً من الفرنسيين . وظل الثلاثة ضارين في المسالك تفاجئهم المهالك ، وتحتو يتحدثان عن أسرته ، والشاطر يدفعه إلى الحديث عن زهرة المليحة ذات العيون الآسرة والتي راقته وأحبها .

(١) بدايات صيف ١٨٠٢ .



مشوا وقعدوا وناموا ثم ساروا ، مدة أسابيع وشهور نسوا عددها ، نضب فيها معين الكلام . وهم يبالبغون في الحذر ، ويتجنبون الدروب المطروقة ، حتى اجتازوا مسافات طويلة ونفذ زادهم ، وصاروا يعيشون على القنص ، من أفراخ صغيرة لا تطير . ويبض لم يقف فوق أعشاش الصخور . وقد تصادفهم بشر مهجورة فيرتبون ويملاون قريهم . وفي جراب إدريس الذي هرب به من عند الفرنسيس بارود وأدوات فرنسية ذات حبل صناعية .

فلما طال الزمن اقتسموا ما به وخباؤه تحت ظيات ثيابهم الفضفاضة ، وهو يحرض صاحبيه دون ملال على إكمال السير إلى بلاد كردفان ، حيث الذهب المشهور والصندوق المسحور الذي يري من يجلس بداخله ما يحدث في أرجاء الدنيا .

تحمس الشاطر وتردد تحتوت ولم يدر كم من الزمن تغرب لاختلاط الأيام والليالي في غمار المطاردة والخوف من قطاع الطرق والفرنسيس والمماليك ، وانقطاع أخبار مصر المحروسة . لأن المكتوب لهم أن يصادفوا من الأحوال ما يفرق كل الظنون ولا يحظر على بال عاقل أو مجنون .

انهار تحتوت قاعداً جائعاً مجهداً ، مادت به الأرض واختلط عليه الطول والعرض . أسبل جفنيه يربح عينيه ، ولما فتحهما لم يصدق ناظره . هليل وصاح :

— ماء . هناك ماء وأشجار وارقة خضراء .

التفت صاحبه إلى حيث أشار فلم يجدا غير الصحراء . وكان ما رآه هو سراباً يحسب الظآن ماء . فعاد يحط عليه البلاء . وقال لصاحبه إدريس الكردفاني :



— ليكن ما يكون . لا أمل في النجاة !

فضاعف من حزن إدريس وهمه ولومه لنفسه ، نزلت دموعه وقال :

— أنا السبب في جميع ما جرى ، من أجل كان الفرار ، والفرنسيين يبحثون عني وليس عنكم .

وقبل أن يرد حثوت ، أسكنهما الشاطر بإشارة وهو يقول :

— هناك أصوات .

— طبعاً تبهذات .

وقال إدريس :

— سراب العين رؤية الواحات ، وسراب الأذن سماع الأصوات .

فعاد يسكنهما ، ونهض يسير عدة خطوات ، وأمعن النظر الى إحدى الجهات ، ثم أشار لهما بالاقتراب ، مؤكدا انه ليس بسراب ، فنهضا اليه في هدوء ، وعلى الفور فغر ادريس فاه ، وقال حثوت مكذبا عيناه :

— كأنها غزلان .

أكد ادريس أنها غزلان ، وأخرج غدارته بقصد صيد إحداها ، لكن الشاطر أوقفه هاما :

— مشكلتنا الماء ، الماء ثم الطعام ، والغزلان تعرف مكانه سواء أكان نهرا أم نبعاً .

— فكيف ترشدنا اليه ؟

— نتظر حتى نشعر بالظمأ .



مكثوا يراقبون الغزلان ، وهى ترتفع فوق الكثبان وأسفلها ، وضغارها تلهو  
بالقفز والتناطح مثل الجديان ، وكبارها تنعم بأمن الحلاء ، غير متوقعة وجود  
الدخلاء ، حتى قرب مغيب الشمس فى السماء ، وإذا بكبيرها يصدر صوتاً  
يجمعها ، ثم يتجه بها شرقاً ، موغلاً بين الصخور وهو نجور ، والفتيان عن  
كسب يقتنون الآثار وهم فى غاية الحيرة والانبهار ، لأن الصخور بدت لهم  
متلاصقة ، ليس فيها مكان للعبور ولا طريق للمرور . لكن القطيع كان  
يعرف ، إذ سار فى صف واحد ، مجتازاً عمراً ضيقاً ، فائدها أولاً ثم الصغار  
فالكبار ، انحنى المر ثم تعرج ثم انحرف ، وكأنه بيت جحا أو مناهة ، من  
الشرق إلى الجنوب إلى الشرق ، ثم ما بين الشرق والشمال ، وتواصل المسير  
وطال ، حتى زاد عجب حنوت فقال :

— كأننا حول أنفسنا ندور .

أسكت الشاطر لأن ليل الصحراء ينقل الصوت إلى أقصى الانحاء ، وقد  
تخاف الغزلان وتلجأ إلى الفرار والاختفاء عن النظر ، فيفقدون أثرها  
ويضيعون فى عتمة الليل ويلاقون كل ويل ! .

وطال المشى فى كل اتجاه ، حتى بدأوا ييأسون ، ثم إذا هم يسمعون فى  
نسيم الليل رائحة الزرع والضرع ، وصار جفاف الهواء ، محملاً ببخار الماء ،  
فانتعشوا بالأمل والرجاء وبقرب الارتواء .. وتقدموا متحمسين ، وإذا بالمر  
ينحنى ثم ينفرج بما يشبه المعجزة على واد منبسط فسيح ، وشموا رائحة النيل  
المبارك ، وسمعوا نقيق الضفادع ، لا حس لأنسان ، فقط وقع حوافر  
الغزلان ، فسعوا هابطين ، ثم لمحوا ناراً خافتة عن بعد ، فاندفعوا نحوها ،  
وإذا هم يسمعون صوتاً أجش ، ثم رأوا خيالات القطيع وشبح إنسان ،  
يهش الغزلان ذوداً عن الزرع .

فقال حنحوت جزلان :

— نحن الآن في أمان .

لكن الشاطر قال في حذر الماكر :

— نجهل ما هناك ، لبتأخر أحدنا ، فإن رأى الأمر خيراً دنا ، وإن رأى شراً قدم يد العون .

اختاراه ليبقى وتقدموا نحو الرجل ، فلما رأهما كف عن الصياح وأسرع إلى السلاح ، وكان رجلاً من الرماح ، فجمدا دون حراك ، وقال إدريس :

— لسان من أعدائك .

فسأله إن كانا من المهالبك أو الأتراك ، فأجاب : لا هذا ولا ذاك !

فلما رأى الشاطر ما يحدث تخفّر ، ومد يده يخرج غدارته ، تقدم زاحفاً ، عندما صار الفلاح على مرمى الاطلاق ، كان إدريس قد تفاهم معه وطعمانه ، فأنزل رمحاً وعاد إلى هش القطيع وهما يساعده ، فجعلت الغزلان وبدأت تراجع بطيئاً ثم في إسراع ، حتى إقتربت من مكمن الشاطر الذي تذكر ما هم فيه من جوع ، فانقضّ بخنجره على أقرب غزال وطعمته من غير عناء طعنة نجلاء ، ثم نهض بجرحه مثبواً الغبار ، لينضم إلى صاحبيه ، فعاد الفلاح إلى السلاح ، لولا أن صاح إدريس :

— هذا ثالثنا ، هذا معنا .

ورأى الشاطر زير المياه فترك ما بيديه ، واندفع يملأ الكوز ويشرب ، تقدم حنحوت يخطف الكوز ويشرب ، ثم إدريس فالشاطر فحنحوت ، والجميع ينهلون ولا يكفون ، حتى حال العجوز بينهم وبين الزير والكوز ،

وأمرهم بالجلوس ، لأن الشرب الكثير بعد العطش الطويل يشير الأمداء إلى حد الإعياء . ثم قدم لهم رغيف عشاءه ، فالتهموه في غمضة عين ، وأدرك مدى جوعهم ، ونهض يحضر لهم المزيد ، فسأله إندريس :

— من أين يا عم ؟

— من عند الأجداد

ثم انصرف ، وتوجهوا صوب القرية القريبة ، بين التكدب والتصديق والحيرة واليقين ، الأكوخ تبدو مهجورة ، اقتربوا أكثر ، اغتموا وقد رأوها إما محروقة وإما مهدومة ، ثم تنبهوا إلى صوت الشيخ يقول :

— تحربوها الممالك الانجاس !

قدم لهم خبزاً وبعض الجبن :

— أحكى لكم وأنتم تأكلون .

تحلقوا في دائرة حول النار يلتهمون الطعام ، والعجوز يحكى كيف أن القرية كانت آمنة تدفع الإتاوة لعرب الشايقية ، حتى جاء بعض الممالك يزاحمونهم .

سأله حنوت : من هم الشايقية ؟ . فأجاب :

— محاربون أمداء ، مثل الممالك في مصر المحروسة ، يعيشون على جهد الآخرين وكدهم ، ويفرضون الإتاوة على قرانا النوية المسالمة ، وهم سادة البقاع من هنا إلى ما بعد دنقلة .

نظر بعضهم إلى بعض في استغراب ، قال :

— دنقلة بلدة في الجنوب ، ألا تعرفون انكم الآن على أرض السودان ؟



فكفوا عن الطعام غير مصدقين ، حتى فهموا أنهم عندما فروا من جرجا  
بسبب مطاردة الفرنسيين لهم ، سلكوا الطرق المهجورة مبتعدين عن البلاد  
المعسورة ، وساروا جنوباً عبر الصحور والصحارى ، حتى تآهوا عدة شهور ،  
وانقذهم قطع الغزلان بإرشادهم إلى المكان الذين هم فيه الآن ، والذي يقع  
بعد الجندل الثالث !

ثم إن العجوز حكى لهم أن مراد بك عندما فر أمام الفرنسيين ولجأ إلى  
بلاد النوبة ، صار يرسل المماليك لنهب القرى وسلب الغلال والطيور  
والأنعام ، تاركاً لناسها الجوع والفاقة ، إلى أن رحل شمالاً عبر صحارى  
الصعيد ، غير أن بعض امرائه كانوا قد بنسوا من فوزه ، وتعبوا من طول  
الترحال والهروب دون طائل ، فتخلوا عنه ومكثوا في وادى النوبة يفرضون  
الأتاوة على كل ساقية ، وألا الدمار والحرق ، ويدخلون في معارك مع عرب  
الشابقية ، فلما عجزت القرية عن الدفع حرقوها وتشتت الناس !  
سأل إدريس :

— سمعتك يا جدى تقول إنك ذاهب لإحضار الطعام من عند  
الأجداد !

— قلت :

— ولكن لا أحد غيرك هنا !

— أنا والأجداد ، ومن أجلهم بقيت هنا . اتبعونى إليهم .

تحامل ناهضاً ، سار ويده المصباح الصغير وهم من ورائه ، حتى اقتربوا  
من المدائن ، فأخذهم إلى أحد الشواهد ، رفع بصعوبة صخرة عريضة ،  
وإذا تحتها حفرة عميقة ، نظروا فيها فوجدوا بها خبزاً وثلاثة قلوب بها جبن

وبعض البصل والتعر المجفف واللحم المقدد، من جديد أحسوا بالجوع ،  
لكنه أعاد الحجر إلى مكانه ثم أشار إلى القبور :

— هؤلاء هم الأجداد في رقادهم الطويل ، من أجلهم رفضت الرحيل مع  
عشيرتي ، هنا أمي وأبي وأعمامي وأخوالي وأتواب الصبا ، عز على أن أتركهم  
في وحشة القبور من غير أبيس . في آخر الليل أذود عنهم الضواري نهابة  
القبور ، وفي أوله أدفع الغزالان عن زرعة الغلال ، هاجرت العشيرة والزرع  
نبت صغير وبقيت أدافع عنه حتى صار الآن جاهزاً للمحصاد .

رأى عيونهم لا تفارق غمها الطعام ، ابتسم وقال :

— اللحم الخارج المشوي ألف مرة من المقدد .

من فورهم تذكروا الغزال ، فجزوا نحوه مخرجين خناجرهم ، انهمكوا في  
سلحه وتسلقه بمياه النيل ، عندما لحق بهم العجوز وجددهم وقد كادوا  
بنتهون ، فأحضر لهم سبيخاً أدخلوه في قطع اللحم ثم أداروه فوق النيران  
حتى ملأت رائحة الشواء جميع الأرجاء ، فكانت في أنوفهم أذكى من رائحة  
المسك والعنبر .

ساعتان زمنتان وكانوا قد شبعوا وشربوا واستلقوا على ظهورهم سعداء ،  
في أقل من لمح البصر كان الاجهاد قد أغمض عيونهم وأغرقهم في نوم  
عميق ، بنى العجوز يتأملهم طويلاً ، وتذكر حفيده الصبي نور ، فسالت  
دموعه ، وبقي متبسطاً شطراً طويلاً من الليل لأن الكهول لا ينامون كثيراً .

عند الفجر استيقظ ونوضاً وصلى ، وبقي جالساً حتى علت الشمس  
وتوسطت السماء فأيقظهم ، ونهضوا من ناحيتين بوجوه محمرة من بعد شحوب  
وهزال . ثم اقتطعوا مزيداً من لحم الغزال وشموه ، وجلسوا تحت مظلة

البومس ياكلون ، بينما الشيخ يجلدهم عن حفيده نور ، وكيف ان المالك  
اختطفوه منذ شهر ، قاطعه ادريس :

— السماح يا جدي ، سمعتك بالأمس تقول : انك الوحيد الذي بقي  
هنا !

— بالأمس كنتم غرباء ، فلما اذا افتح لكم قلبي ؟ أما وقد أكلنا معاً ونعمت  
أمين في حمايتي ، فقد أصبح بإمكانني ، أنا جدكم عبد الصبور ، ان أنام آمناً  
في حمايتكم .

— أبفالك الله يا جدنا عبد الصبور .

— نور حفيدي ينم ، قتل المالك أباه وأمه في إحدى هجماتهم ، فكشفت  
وربته ، ولهذا رفض الرحيل مع العشيرة ، وبقي معي بخدمتي ويساعدني في  
حماية الزرع ورعاية منامات الأسلاف .. ولو كان معي الآن لعاونني في  
حصد هذه الغلال التي اقلنت من قم الغزال .

— نحن نساعدك يا جدي .

رفقهم بامنان وقال :

— حفظكم الله وأدام عليكم نعمة المحبة .

ثم إنهم توجهوا إلى الحقل الصغير ، وأراهم كيف يحصدون ، شاهدوا  
بعض الفزاعات على صورة ضباع بأرجل خشية وحشو من الفس . قال  
العجوز :

— في البداية خافت الغزلان من هذه الفزاعات ، ثم لما رأتها لا تحرك  
سائناً تقدمت لأكل القرة ، وصارت تحك أبدانها فيها وأوتعت معظمها .



حتى أنا لم نغفل بي عندما كان الوهن يغلبنى وأنا بالحقول ، وربما ظننت أنني  
مزارعة من الفس ، وفي الحقيقة ما أنا إلا مزارعة من حشر السنين ا

قبل الغروب انجزوا الحصاد ، وبقيت العبدان متعبين خضراء ، فسأله  
محتوت ان كانوا سيتركونها قائمة ، فقال :

— ستركها طعاماً للغرلان ، ونخا لصيد المزيد .

عند أول الليل اختبأ كل واحد بغدارته في ركن ، وما إن خط الظلام حتى  
جاء القطيع بعد قليل ، تركوه يعبر إلى الحقول ، ثم خرج العجوز بضجيج ،  
فاستدارت جافلة لتسقط منها ثلاثة صرعى حملوها إلى الشيخ عبد الصبور ،  
فنهّل وجهه وقال :

— رزقنا الله طعاماً طيباً ، نأكل منه حتى نشبع ثم نقدد الباقي .

في اليوم التالي علمهم كيف يغذون اللحم ، بأن يقطعوها إلى شرائع  
رفيعة ويملحوها وينشروها تحت أشعة الشمس الحامية لعدة أيام حتى تجف  
فتصبح قديداً ، يمكن حفظه لعدة شهور دون أن يفسد ، وكلما احتاجوا إليه  
ينقطعون منه قدر حاجتهم ويمضغونه ، أو ينقعونه في الماء حتى يلين ثم  
يطبخونه مثل اللحم الطازج . فشكروه على هذا الدرس .

وقال الشاطر :

— لو كنا نعرف هذا لما تعرضنا للموت جوعاً في الصحراء ، الليلة ياذن  
الله نصطاد المزيد ونقدده ، ونترك لك القدر الذي نشاء ، ونأخذ الباقي زاداً  
لرحلة عودتنا إلى أرض الوطن .

فأطرق الشيخ وتأنى أسى حتى أشفقوا عليه ، ثم قال :

— أسعدني وجودكم معي ، بذهابكم ماعود وحيداً مع الأسلاف ، وهم  
كما تعرفون موتى !

سالت دموعه على تجاعيد وجهه وقال :

— يرمى أن حفيدي ، وهو في مثل عمركم ، أخذ الممالك أسيراً  
استعده ، مع أن النوبي يولد حراً أميناً نظيفاً حتى يتحرر من قيد الحياة  
وهو حر . لقد رأيتهم يسخرونه طوال اليوم مسخرة العبيد في ترطيب خيامهم  
بالماء !

سأله إدريس إن كان يعرف مكانه ، فأجابه :

— على مسيرة نصف يوم جنوباً .

وإذا بإدريس يقول في حماسة :

— لا تبش يا جدي ، منعيده إليك .

لكنه عندما التفت إلى صاحبه أحس أنه اندفع دون روية ، إذ أشاح  
الشامخ بوجهه ، بينما أطرق حنحوحت ثم قال مخرجاً :

— إذا كان بإمكانك ذلك !

فاحتضنهم الشيخ عبد الصبور بنظرة حب صافية ، وقال متأثراً :

— أشكركم من قلبي يا أعزائي ، لكن ماذا يفعل ثلاثة فتيان أظهاري مع  
مقاتل الممالك الأشرار ؟

قال إدريس :

— الذكاء يغلب القوة ، لا تقلل من شأننا ، لدينا ذخيرة وغدارات ،

والشاطر يعرف القراءة ، وهو وحش حوت قتلا أربعة من بحسك الفرنسي .

نظر إليها في شك ، قال الشاطر :

— اثنان فقط ، واحد قرب ميناء مصر القديمة ، والآخر خارج سور القاهرة ، وهذه غداوته .

نأملها العجوز في ضوء النيران ثم قال :

— لم أر مثيلاً لها إلا في أيدي المماليك .

— بل هي أدق صنعا وأحدث وأقوى .

ثم سأله ان كان يعرف اخبار مصر المحروسة ، فوجدوه لا يعرف ، وياتوا  
مهمومين شاعرين بأنهم قد تهوروا في وعدهم له ، ودفعتهم كبرياتهم إلى  
عدم التراجع . ورغم ان الشبح حاول إثناءهم عن عزمهم ، فقد يسموا  
صوب الجنوب باحثين عن حقله نور ، الذي لا يعرفون عنه سوى أنه يعلو  
تحت من العاج حول عنقه ، وجميع ذلك كى يتم المكتوب وتتم النبوءة على  
حشوت طبقاً لما قاله الوديع لفارسة الرمل العجيرة وهو بعد جنين في بطن  
أمه أم الخير الجميلة الشريفة !



(٢)

## مباغطة الفرسان للظمان

مع توغلهم جنوباً في أرض النوبة السودانية ارتفعت الشمس وأرسلت لها فوق أدمغتهم ، فلبسوا أنفسهم بعباء النيل عدة مرات ، وظلوا يمشون على رؤسهم بعد غروب الشمس من ثمانية خيام ومظلة كبيرة عائمة فوق النهر ، فلبسوا جانب الحذر وتقدموا بعائدون القدر . ومن عجائب الاتفاق أنهم لم يكونوا وحدهم الذين يراقبون الممالك ، كان هناك في عمق الصحراء فرسان من عرب الشاذلية يصلون من بكرة الصباح وذلك يوم حركة الممالك من فرق سهوات خيولهم ، متحينين فرصة الانقضاض عليهم ، فلما رأوا النبال الثلاثة راحوا يرفونهم هم أيضاً حتى يتبينوا أمرهم ، فوجدوهم ينزلون خلسة .

تقدم الثلاثة حتى اقتربوا من المعسكر ، فبرزوا خيمة كبيرة زاهية الألوان في وسط باقي الخيام ، وخنوا أنها خيمة الأمير ، بينما المظلة تعلو طوقاً كبيراً من الأخشاب المربوطة بعضها إلى بعض والسباحة فوق النيل المبارك . وكان الأمير في ذلك الوقت مسرعاً فوق وسادة قماشها من الأحمر اللامع ، ومعه فوق الطرف بعض الحريم وعبدتان تحركان له الهواء بمروحتين من ريش النعام ، وكل شيء يوحى ببعض الوقامة في هذه المنطقة الجرداء .

عدد أعوانه من عدد الخيول الواقعة تحت سفينة البوص ، بقرب من الأربعين ، علما الخدم والعبيد والحراس الذين يرصدون جميع الاتجاهات . وعلى الفور اغتارهم الهأمس ، وفكروا في الانسحاب ، غير أنهم استنكفوا أن ينكثوا برعدهم الذي قطعوه للمسيح عبد الصور . ثم رأوا فتى في مثل عمرهم يخرج من جانب جسر النهر المنحدر حاملاً دلواً ملوئاً بالماء ويتجه إلى الخيمة الأولى ويرش فيها الماء كي يربطها ، وعندما امتدأ عائداً إلى الجسر لأحضار المزيد ، لمحوا التهمة حول عنقه ، فأدركوا أنه نور . ثم جلسوا يفكرون وفي ذهنهم ما زعموه للمسيح من أن الذكاء يغلب الكثرة !

بعد ساعة من الحيرة قال الشاطر لجنحوت :

— عددهم كبير ولن تقلر عليهم !

— حمر أو عددهم مساو لنا ، هم حرفتهم القنات منذ الصغر ، ولن يفقدنا بشئ ، أليس تعرف القراءة والكتابة .

وما كان من الشاطر الداهية الماكر إلا أن أشار بأن يتبعاه ، وتوجهوا غابطين جسر النهر وساروا في محاذاة المياه ، أخفاهم ذلك عن عيون من هم فوق البر وداخل الخيام ، أما الذين فوق الطوف فكانوا في استرخاء آمن . . . وهمس الشاطر لجنحوت :

— الطوف مربوط بحبلين مشين إلى وتدين على الشاطئ ، علينا أن نقطع الحبلين في نفس اللحظة فيجرفه التيار . .

— وما الغرض ؟

— أحداث ربكة بينهم ، فسوف يسارعون إلى النهر لانتفاء الطوف ، وفي

وسط هذا المرح نقر نحن ومعنا نور .

سار احمد على بطة الى الوتد الأول وأخرج خنجره ، وانظر يراقب  
حجرات النوى وهو يخوض المياه غاطساً بكل جسده حتى وصل في بطن  
، حذر الى حيث الوتد الآخر ، وبإشارة بينهما قطعوا الحبلين ، وما هي الا برهة  
حتى أخذ الطوف يتحرك شياً لأمع التيار .

أما ما كان بعد ذلك فهو من الغرائب السريعة الوقوع ، صرخت جارية ،  
والفتى الأمير وصاح يستجد بأتباعه بين صراخ امرأته وحريمه ، وأخرج  
رجالهم من طلائ الخيام ، اندفعوا بنصف ثيابهم الى البر شاهرين السلاح ،  
فلما رأوا الطوف يتحرك أنفوا بالسلاح وخافوا المياه لئلا ماله به ، وبها وقف  
ور يهرج منسياً عرقهم جميعاً ، ثم إذا هو بسمع من بتاديه باسمه ، التفت  
فرأى ادریس يقول له مرعاً :

ان كنت نور حفيد الشيخ عبد الصبور اهرب الآن الى جديك . اهرب يا  
فتى .

مجرى صوب الشمال في خفة الغزال ، ونعه ادریس والشاطر وحجرات  
بسلامة المبلة ، تبه ثلاثة من الحراس إليهم فأسرعوا إلى الخيول ، يركضون  
بها في سرعة ، وما هي الا ثوان حتى أحاطوا بالفتيان الأربعة الذين وقفوا  
مقهورين وقد أحسوا النهاية . لولا أن حدث ما لم يكن في الحسبان ، إذ  
استفت الصحراء عن فرسان الشايقية السمر يندفعون بخيوطهم القوية  
مستغلين هذا الظرف ، مندفعين برزد من حلق الحديد ، يحمل كل منهم من  
الخواب أربعة أو خمسة في اليد اليسرى ، اندفعوا صائحين :

— السلام عليكم ، السلام عليكم !



حتى اقتربوا فرموا حراهم بسرعة ودقة ، في أقل زمن كان معظم الممالك  
 عدا الخريم مجذلين بالحرب في ظهورهم أو رقابهم ، ولوت دماؤهم مياه  
 النيل المازك .. ما إن رأى الثلاثة الذين يحاصرون الفتيان ذلك حتى  
 ارتبكوا ، وانجهوا أولاً لإنقاذ أصحابهم وأميرهم ، ثم استداروا محاولين  
 النجاة بأرواحهم ، فإذا هم محاصرون فاستسلموا ، واستلم معهم ثلاثة عند  
 الشاطئ ، وامرأة الأمير وأربع جوار والخدم ، وجرف النيل الضوف بعداً  
 ليكسر بعد ذلك على صخور الجندل التالي !

بعد وقت قليل كان كبير الشايفية جالساً في الظل داخل خيمة الأمير  
 المقرنة بالموسائد الطرية المطرزة بالقصب وخيوط الذهب ، والمحتوية على  
 الكم من الثياب الفاخرة والأواني الفضية وأدوات التدخين من شباك  
 وغلاف ، ربما الأسرى أمامه أدلاء . تاملهم بسرعة وأصدر أمره ، فأخذهم  
 أمراء وذبوحهم ، أما الخريم فقد أبهى عليهم ، وأمر بإطلاق سراح الغلمان  
 المومنين ، أمراً النفث في قلوبهم إلى الشبان الأربعة ، فأمر الشاطر بستر  
 مفرقة .

— نحن نعرف أين نخفي ، الممالك أموالهم .

— تكلم :

— ولكن بشرط أن نطلق سراحنا .

— تكلمم والانطعت رقابكم واحداً تلو الآخر .

أسرع حثوث صالِحاً :

— في لغات عما ماتهم :

وسرعان ما تكومت ريات الذهب أمام الزعيم فضحك ، وشرحوا له

حكمتهم من أوطأ إلى آخرها ، فتعجب وهو معجب بهم ، وأطلق سراح نور  
الذي جرى عبر مصدق ليلاحق بجده عبد الصبور . وهنا سال محتوت :

— أخبرنا ، دام عزك ، عن مصيرنا ؟

— سأعذكم إلى الملك وهو الذي يقرر .

— من هو الملك ؟

— معالي فيه اندهاشاً ولم يحبه . سرعان ما فكوا الخيام وحملوا كل الأشياء  
فوق جبال المائيك الأربعين ، أخلوا مكاناً لامرأة الأمير وباني الجواوي ،  
وساروا في فافلة طويلة في حذاء النيل وصوب الجنوب ، وهكذا وجد الثلاثة  
أنفسهم يردادون ابتعاداً عن مصر المحروسة ، وعن مدينة المنيا مسقط رأس  
محتوت ، الذي التفت إلى إدريس لائماً :

— انظر نتيجة اندفاعك ، ها هو ذا نور قد عاد إلى جده بينما نحن أمري  
مجردين من المال والزراد والسلاح وقرب المياه .

وأطرق إدريس فوق الجواد الذي اركبوه عليه ، انصابت دموعه فوق  
وجته السوداوين وقال :

— لماذا طأوعتماني ؟

ثم صمنا وأراحوا يرقون جميع من حولهم على أمل اقتناص لحظة سانحة  
للفرار ، وإن بدا هذا من ضرب المحال . بينما مياه النهر على يسارهم تتخلل  
بقايا صخور جندله الثالث ، والصحراء على الجانبين في سكون وجذب ،  
وقد تناثرت فيها بعض الصخور المديبة ، ورأوا ملامح رجال الشاذلية  
منسفة ، وغبوتهم متألقة ، وسوادهم صافياً عميقاً لامعاً بخلف عن سواد

أدريس الكالح ، وكل فارس لا يضع في ركاب حواده إلا الأصبع الكبيرة من  
كل قدم ، زادت الحرارة بحيث حفت ثياب حنوت ، ثم سمعوا خرير الماء  
عميقاً أحش ، وعادت الصخور تعترض مجرى النبل ، ورأوا بعض أفراس  
النهر والتهاشيع وأسراب النسل الأبيض .

بعد ذلك اختلفت الطبيعة وظهرت أشجار السنط والزعرن البري في  
جرائم صغيرة كثيرة خضراء وسط النهر ، بينما طيور الماء تحط بلا انقطاع  
وبالثبات لتغذي منها ثم تغشى محلفة فوق رؤوسهم ، كلما ساروا مسافات  
رأوا قري صغيرة لها زوارق مشدودة إلى الضفة ، والبيوت من اللبن أو  
الحجارة وأسقفها من عيدان الذرة أو جريد النخيل ، وفوق الصخور أحلال  
قلاع حجرية ذات شرفات ، وعشرات السواني تقض الماء إلى الحقول  
الخضراء وإلى مسافات بعيدة ، والأهالي يتأملونهم ، والحرارة شديدة الوطأة  
عليهم .

سألوا عن القلاع الحجرية المنهدمة أجابهم أحد الرجال بأنها بقايا قلاع  
الفتح ، ثم تركهم مبتعداً بفرسه .

ظلوا على هذه الحال ساعات طويلة حتى حط الظلام فناموا ، وفي  
الصباح التالي واصلوا السير ، فصادفوا جنوداً تحقن مسخوره النهر والمياه  
تقفز فوقها مرغية مزيدة ، ومضت الساعات حتى شاهدوا جبلاً عالياً ثم  
صار طريقهم يلتزم ضفة النهر تارة ، ويحترق الصخور تارة أخرى ، مروا على  
برج حراسة صغير من الحجر قائم على تل ، ولحقوا طريقاً جبلياً ، عادوا إلى  
النهر ، فشاهدوا التهاشيع نصطي لهيب الشمس ، ارتقوا جبلاً ثم هبطوا  
منه حيث نخرج الطريق إلى أرض الشايقة ، ومن حولهم أشجار السنط

والدرا وشات الدخن ، حتى دخلوا بلدة في حجم قرية كبيرة لها حصن من  
الأجر ، وكانت نهاية المطاف ، فحشدوا زعيم لأنهم كانوا قد شتموا جلسة  
الطبول المربعة ، بحيث أنهم عندما نزلوا وحذوا صعوبة في المنى بسب  
نضوب سيقانهم !

ثم إن الفرسان وجمعهم في سجن جدران من سيقان الغالب المثبتة  
المنصورة ، وتركهم في هذا المكان خسة أيام بلياليها ، يجهلون مصيرهم ولا  
يرون أحداً إلا السجن الذي يقدم لهم الوجبات الثلاث والماء ، وفي صمت  
الليل يسمعون صيحات المقاتلين يعرِّدون سكارى ، فأنهكت تلك الأيام  
أعضائهم وأطاحت بصبرهم ، صاروا متوترين وفيما قوا بعضهم الآخر ،  
حي فلو أن الموت أهون عليهم من هذا الحبس ، وكان يخفف وطأته  
أصوات الغلمان تردد مقاطع التلاوة من حنف صوت عمجوز ، بنغم  
وطلاوة ، فظلوا يراقبون الخارج من خلال شقوق الجدار .

وفي اليوم السابع ما إن انتهى درس الكتاب وشاهدوا الغلمان يصرفون  
حتى تنهوا فرصة مرور الشيخ المعلم ، وناداه الشاطر :  
— يا مولانا المعلم .

نفت الشيخ حوله متعجباً حتى تنبه إلى أصابعهم الظاهرة من بين بوص  
الحدار :

— ماذا تريدون ؟

— لماذا تضعوننا في السجن ؟

— أما لا أضع أحداً في السجن ، أنا رجل علم ، أعلم القراءة والكتابة ،  
لا بد أنكم عصاة !



— نحن غرباء ، وكنا نقد نور من أسر المماليك ، نور حفيد الشيخ عبد  
الصبور .

— لا أعرفه .

— أنتم تكهون المماليك ، أليس كذلك ؟

— المماليك والأتراك كلاب .

— نحن فاروق منهم ، ونريد منك الانصاف .

— الانصاف بيد الخالق .

— أظلمت منك المعاناة ، أنت يا مولانا رجل عظيم وأنا أقرأ وأكتب .

صمت الرجل وقتاً كأنه الدهر ، ثم سأل :

— أحمق تقول يا غلام ؟

— حق ورب الكون .

فانصرف دون كلمة ، وعادوا إلى خيمتهم إلى أن جاء السجناء بالطعام ،  
ومعه الشيخ المعلم الذي سأل :

— أحمقاً تعرفون القراءة والكتابة ؟

قال الشاطر :

— أنا أعرف .

فدفع إليه بصفحة ورق وقال اقرأ ، فقرأ بلسان طلق . فابسم الرجل  
وجلس ، وأمر السجناء بالانصراف وترك الباب مفتوحاً ، تردد السجناء  
فقال له :

أمر سيدنا الملك أننى المستول عنهم منذ الآن .

حدثوا عما جرى لهم منذ خروج حنحوت والشاطر من مدينة النيا بحثاً  
عن الرئيس مرسى ، إلى أن التفتا بإلدريس في موهاج ، ثم ما كان من فوارهم  
من الرئيس حتى ساقتهم الأقدار إلى بلاد الشايقة أمرى . فقال :

حساً فعلتم مع النوبي الصغير ، بعض الناس هنا نوبيون ، ومنهم  
الراعي ، والمعلم ، وبعضهم من عشيرة الكبابيش . أما الملك أي الملك أو شيخ  
العشيرة والحراس والجنود وباقي الرعايا فهم من عرب الشايقة ، لكننا  
نحترم أهل العلم .

ولف متصرفاً ، وعند الباب قال :

منصبحتون أحراراً في الخروج إلى القرية من طلعة الشمس حتى  
مروها ، ولكن حذار أن تحاولوا الحرب إلى أبى مكان ، لأنه ليس بالإمكان ،  
أليس ؟

وعنده شاكرين ، ولم يجدوا عنده أية أخبار عن مصر المحروسة . عندما  
انصرف ظلوا في أماكنهم غير مصدقين والباب مفتوح ، ثم نهبوا إلى وجوه  
الطفال سود .. أولاد وبنات يتطلعون إليهم في فضول ، فابتسموا لهم ،  
وقدعوا في حذر إلى الخارج ، لأول مرة تعجبهم الشمس رغم سخونتها ! .  
امروا في أنحاء البلدة والأحقال في أعقابهم ، وجدوها ممتعة في الفجر لكنها  
مظلمة ، رغم أمراب النمل الأبيض التي تظهر في أعداد كبيرة . عندما  
نهبوا نحو الشرق سمو رائحة النهر ، ثم رأوا السيل المبارك وعلى حافته  
الحصن ، كان من الأجبر الحجري وأعلى ما بالإمكان ، فأفركوا أنه مقر الملك .  
بعد أن تعبوا من المشى عادوا إلى سجنهم ، وهمي حنحوت والشاطر :

— فلنخطط للهروب .

— ألم نلاحظ أننا مراقبون ؟

— لاحظت .

— لنذهبهم ببطونتنا إلينا أولاً ، أسبوع أو عشرة أيام ثم نخطط للهروب .

صارت أيامهم التالية أقل هواناً ، وفي جميع جولاتهم كانوا يدرسون  
التكامل والاتجاهات ، ويرابط الخيل ، ويلاحظون الأطفال المتجمعين في  
فضول بينا المعلم يزورهم كل يوم عقب دروس الكتاب ، ويحدثهم عن  
المأهولة والكبابيل . سأله عن الفصح أصحاب القلاع الخجيرية المهذمة ،  
فقال :

— فإن للمسيح أصولاً طورية مهانة ، حكموا معظم أراضي السودان حلبة  
طويلة من الزمان وما زالوا ، وقد ظهوروا من حيث لا يعلم أحد . لم يكرهوا  
في أول ظهورهم عرباً أو مسلمين ، وأعلمهم التحديوا من سلاله القبائل  
الزنجية التي تعيش على شواطئ النيل الأبيض ، ثم تزوجوا مع العرب  
واعتنقوا الإسلام ، وكانت أسمائهم اسمها ذلك على الصفة الغربية من  
النيل الأزرق أو آباي الكبير (١) .

قال حموت :

— نحن لا نعرف النيل الأزرق ولا الأبيض .

---

(١) جوب مدينة من الشمال . كانت تسمى مدينة الفصح من عام ١٦١٤ وهي على بعد حوالي ١٢٠  
ميلاً من حلفاية أو الجرابين التي لم يكن النجاشي يملكها .

— فقال: «ولمّا كان يتحدّان عند بلدة حلّفاة ليكونا النيل المبارك الذي  
يرتوي منه هنا وعندكم في مصر».

فقال إدريس المكر دقاني :

— سمعت من جدي أن النيل الأبيض ينبع من جبال القمر .

— سمعت من هذه الجبال ويقال أن بها نهر الذهب .

فقال الثلاثة بعضهم إلى بعض يعيون لأمة .. وأكمل المعلم :

— «الدمج الآن ضعفاء ، لكنهم في الماضي كانوا قوم دماء وحيلة ، يوتهم  
من طلبة واحدة مثلنا هنا وذات سقف مسنور ، ولذالكهم قصر منين له بوابات  
من الخشب المنقوش ، وأبراج من خمس طبقات ، وكانت لهم تجارة واسعة  
مع بلاد الهند ، ولذا كانت تضاء الملك وبنات الأثرياء يرتدين ثياباً من  
الحرير ويربن عيونهن بالكحل ، ويقوم على خدمتهن خدم عراة الصدر  
من الحاضرة من النساء والرجال الطوائسي . وعندهم مناجم الذهب  
والفضة والحيول والعاج والنمر والعطور والطباقي ، وأنواع العبيد كافة .

فصاح إدريس : أنا أكره ذلك ، فسأله :

— ماذا تكره ؟

— كره الناس من أهاليهم ويبيعهم مثل البهائم .

— أنا أقول دائماً أن النخاسة من النجاسة ، لكن من يسمع ويتعظ !

ثم حدثهم عن ملك الفصح في زمن المجد الأخير ، لم يكن يظهر لرجلته إلا  
وقد أخفى وجهه خلف نسيج شفاف ملون بألوان ملاحه ، ولا يكون سافر



الوجه الأفي قصره أو عندما يخرج مع حاشيته كل أسبوع للاسترواح في بيوت  
الخلوة ، يخف به ثلاثمائة من عسكره الراكبين والراجلين وهم يدفعون على  
النفارات منشدن أغاني المديح له ، ومن ورائهم مئات النسوة حوامل  
سلاسل الفاكهة . والملك عندهم هو القاضي ، وحين يحكم بالموت على مجرم  
يطحونه أرضاً ويضربونه بالمراوات حتى الموت ، والملك يشاهد كل ذلك  
من وراء نقابه الشفاف ، ويقال إن الساحة التي تتوسط عاصمته فسيحة  
جداً .

كان مكوكا ومكوك بلدان بربر وشندي ودامر ودنقلة يدفعون إليها  
لتقديم فروض الولاء له ، فيقبلون قدميه ويدفعون له الجزية من عبيد وخيول  
وحمال وأموال ، وحوالي ثلاثمائة جارية مرتديات الحرير والدمالج والأساور  
والخلاجيل والحرز ، وفوق رؤوسهن سلاسل البخور .

ثم قال معتبراً :

لكنهم لم يدعوا كما تضعف سائر الممالك ، ومنذ أمد طويل حكمهم  
ملك ضعيف سموس ، ميقتر عليه وزير فاسد ، وكان هذا من حسن  
الحظ ، فتمردت قبائلنا من الشايبة ، وصربنا مستغلين غاماً بجميع الأراضي  
على وادي النيل من جنوب دنقلة حتى بلاد النوبة شمالاً ، وإن كان مكوك  
شندي ودامر وبربر مازالوا حتى الآن يدفعون الجزية لسلطان الفنج .

وعندما هم بالانصراف سأله الشاطر :

— ماذا نظن الملك فاعلاً بنا ؟

— أنت لا تخوف عليك لأنك متعلم .

— وما عساني ؟

فلو دد المعلم في الأجابة ثم قال وهو يمضي :

— فلو ما بعش اليوم وشرتك الغد للغد .

بعد خروجه نظروا ساعة زمينة في صفت واكتئاب ، حتى قال الشاطر :

— حان وقت الحرب .

ثم خرجوا وعابثوا القرية من جديد وقرابط الخيل ، والأطفال يبعونهم في  
الحدود ، ونصرفوا بشكل عادي إلى أن حل الليل فتظاهروا بالنوم ، حتى  
سعدوا عسكري المقاتلين يعودون إلى بيوتهم من مشرب العرقى ، ويقوا فترة  
حتى أظلم السكون على جميع القرية إلا من نبق الفسداد وصرير  
المراسم وحفيف سعف النخيل ، ثم خرجوا متوترين وجميع أطرافهم  
بالردة ، وسلطوا حذرين ، عبروا الطرقات الخالية إلى مربط الخيل ، من غير  
أن يشعروا بأنهم مراقبون !

أشار كل واحد فرساً ، وركضوا وقد جعلوا السبل عن يمينهم لأنه كان  
ليل يساهم عندما جاءوا ، وقلعوا مسافة طويلة في زمن حسبه دهرأ ، وهم  
لا يسمعون سوى وقع الخوافر وأصوات اللهاث وخرير المياه ، والظلام من  
حولهم حالك . في اللحظة التي طنوا فيها لهم أفلحوا ، وجدوا أمامهم أربعة  
فرسان يعرفون طريقهم وكانهم نبتوا فجأة من باطن الأرض ، مما إن دنوا  
منهم حتى أنوا بسبحات غريبة جعلت الخيول الثلاثة تنفخ في الهواء ، وقد  
صعدت أقدامها الخلفية إلى الوراء ، فوقع ثلاثهم فوق الرمال ، والمقاتلون

الأربعة ينظرون إليهم ضاحكين شاهرين حراهم ، وكانوا قد راقبهم وهم  
يهربون من البلدة ، وتركوهم يفعلون ، ثم تبعوهم عبر مسالك جانبية مختصرة  
يعرفونها ، فسفروهم واعترضوهم بالصيحات التي تعرفها الخيل ا

أوقفوهم بأطبال اللبينة وجروهم إلى سجنهم أغلقوا الباب عليهم ، فبقوا  
مشطراً طويلاً من الليل مغناظين لا يتكلمون ، إلى أن جاء الصباح متهاطئاً ولم  
يأتهم الفطور ، ولعدة أيام نقصت وجباتهم الثلاث إلى اثنين وأحياناً  
واحدة ، ومن أراد ما يكون ، حتى تدهورت صحتهم وثقلت أعصابهم ،  
لكنهم لم يندموا على ما فعلوا ، وفرروا تكرار المحاولة في أقرب ساعة .

(٣)

## قصة هادي مع أخيه زبادي

بعد ذلك جاء من أخذهم وقادهم عبر القرية إلى حصن الملك ،  
وأخذهم من يوانها المحروسة ، إلى غرفة صغيرة ، بعد ساعة دخل عليهم  
معلم المعلم مصيبة كثيرة عليها طعام دافئ من اللحوم والأسماك والمرق ،  
فأشبعوا ، وأعطاه ، وكانت الذريرة أكلوها منذ وجبة أم الخير قبل رحيلهم  
وخرجوا . وبعد ساعة أخرى جاء من يقودهم إلى الملك شيخ العشرة ،  
فالتقوا الشاغل مع صاحبه أن يتركه الكلام .

بعد ذلك وصحت فقبل سأل الملك عن المعلم فيهم ، فتقدم منه الشاغل  
وسمع له بالجلوس عن قومه ، وعندما حاول منحوت وإدريس التقدم  
أوقفها أمراً :

سلم أعطكم الإذن .

ثم سأل الشاغل عن حكمتهم فحكاهما ، فزالت تغطية الملك ورق صوته  
نالاً :

— فمستم حبانكم للهلاك لإنقاذ فلاح نوبى اسمه نور ، لأجل خاطر  
جده عبد الصبور ؟

— كما قد وعدنا العجوز .

— لكنكم وعدتم المعلم بعدم الحرب !



— لأن أحدا لم يبلغنا عن سبب أسرنا ونحن لسنا من هناك !

وبعد تردد عاد الشاطر يقول :

— لو حدث لأقدر الله ووقع أحد رجالك في الأسر ، اليس من واجبه أن يحاول الهرب ؟ ثم أنك فعلت معنا مثلهما بفعل القط مع الفار ، عندما بعثه بالهرب ثم حبسكه من جديد !

— فهل تأكدتم من استحالة الفكك من قبضتي ؟

— تأكدنا .

فبقى صامتا فترة ثم قال :

— منذ البداية لم أكن أنوى أذيتكم ، فليس من عادتي الاحتفاظ بسجناء والشك في إطاعتهم ، هذا تلميذ والذبح أوفى ، لكني سمعت عن حيلتكم مع المماليك وقطع طوف أميرهم ، ولولاها لما تمكن رجالى من اختائهم ، طمأنيت أن تفروا هنا للاستفادة من مواهبكم ، عرفت يا أيها الشاطر الملك تقرأ وتكتب بشكل معقول ، لذلك سأجعل شيخ الفقهاء يودعك لدى أحد الأسر ، تأكل وتشرب وتنام عندها ، وتتواصل تعليمك إلى حد الاجادة ثم تعمل معى هنا . أما أصحابك فقد أمرت بضعفها إلى صفوف المقاتلين !

— كل ما تأمر به نؤمرك . فهل لى أن أسأل عما نعرفه من أخبار مصر المحروسة وإن كان مراد بك مازال يقا تل الفرنسيين ؟

— الفرنسيين غادروا مصر منذ زمن وعاد محلهم الاتراك الكلاب !

فانحنوا ومضوا وهم فى شغف إلى معرفة المزيد . حتى أوقفهم محذرا :

— ان حاولتم الهرب ثانية فالذبح هو الجزاء .

فانحنوا إلى طاعة ، ثم قال الشاطر :

أليس لا تسمح لي بالانضمام مع صاحبي إلى زمرة المقاتلين .

لكنك يجب ونفراً ؟! على كل حال لك هذا .

وفي تلك الانصراف صادفوا طفلة جميلة فذاعبوها ، وأنسهم بسمتها  
والهم . وفي اليوم التالي انفلوا إلى دار واسعة ، واعطوهم ثياباً نظيفة ، ولكل  
هم حمامة وشال ليضرب طويل ، وعدد من الخراب وجواز . صاروا يأكلون  
هم ( أو يلعنون ) منياً عنها بحيث أن بعض الأهالي حسدوهم !

وهم انفسر بالدع فإن فكرة الحرب لم تفارق افكارهم . وقبل أن يأمر  
المال بالهامة خرج ما كان بحوزتهم قبل الأمر إليهم ، امتدعاهم وسألهم عن  
الغدرات ، وفوجئوا بضحكات وادريس بالشاطر يكذب قائلاً :

الغدرة سلاح قاتل لكنها ليست في قوة الخراب .

فخرج معهم إلى الساحة وجعله يحشو غدارته وأمره بأن يلقاها على  
سطح فضاء ، فطاشت الرمية بمسافة بعيدة ، اقرب ضحكات مستكراً ،  
وقال ان دعاهم همس له الشاطر أن يفعل ذلك ، فلما جاء دوره طاشت رمية .  
فما كان من ذلك إلا أن أمر أحد أتباعه الذي رمى حربه فأصاب قلب  
الغدار ، فسر من ذلك ، وترك لهم الغدرات ، ولو رآها أقوى من الخراب  
التيها اليه .

وفي اليوم الثالث التالي وجدوا أنفسهم يتنصرون ساعات طويلة في  
الحرارة ، فشرعوا يوماً في ركوب الخيل العفية والركض السريع بها والدوران  
المستطفي في أصغر مساحة ، والمفر بها في الهواء دون الوقوع من فوقها ، والكر

والفر من غير إمساك للمحارم ، ثم عشرين يوماً في زمن الحراب وسداد  
تصويرها وهم وموت فوق الأرض ، وعشرون مثلها وهم فوق الجبل  
المتحركة . أما في الشهر الأخير ، فكان المرات على العراك والاشتباك  
والانقضاض على الخصم وصرعه ، وبعض حيل المزاوغة والتحكك من  
الحصار .

بعد أن استوعبوا جميع ذلك جاء الملك وشاهدهم ، فلما أطمأن إلى حسن  
مراهم أخبرهم أنه قرر تزويجهم ، وإفراد سكن خاص لكل منهم . شكروه  
مثنين في الظاهر ، مغشين في الباطن ، لأنهم فهموا أن غرضه ضمان  
استقرارهم الدائم بالزوجة والاطمئنان . ولم تكن لبالهيم قد خلت من  
زيارات نائية خلصة ، وجعلهم هذا يفكرون في الفرار أكثر من أي وقت  
مضى !

ولم يغير تحنوت رايه عندما شاهد العذراء التي اختارها له ، كذلك  
الشاطر ، وإن كانا قد تظاهرا بالرضا ، بينما جهر ادريس بفتانه وأعلن رضاء  
صادقاً ، ومبارح صاحبه بيله إلى الاستقرار في هذا المكان بعد أن صار ذا  
مكانة ، فاستكramه ذلك وجازعاً عدة أيام لإثباته عن عزيمه ، فلما وجداه  
مصمماً تغير خاطرهما نحوه ، لا بجاذبانه إلا بأقل الكلام ، وإن كان ثلثانهم  
قد انفقوا في العزوف عن احتساء عرقى النصر ، وفي استخفاف نكبات  
المقاتلين البديهة وعريتهم الموقرة . . غير أن ادريس قطع القفلة ذات يوم  
شارحاً :

— قبل لثاني بكما في القاهرة كنت بانساً ، لا أهل لي ولا صديق ولا  
وطن ، فصرنا لي جميع ذلك ، بلدي بعيد عن كردفان ، ولا أعرف إن كان

أول أسيرة أو أمواتة ! . في مصر المحروسة كنت تابعاً لأحد المغز البغاة ، ثم  
مصر خالداً عند ديون رسام الفونسيس ، ألقا هنا فداؤك مرة أجد نفسي  
أنت ملكاً لأحد ، ملكاً ثامناً ، وهذا أوجب إلى كرددان من مصر . أنت يا  
صوت سوف نعود إلى أهلك رضوان وأنت أم الخير وأخوتك وأصحابك ،  
والملك نوح الأرض ، وأخوك مرسى صاحب مركب بشار كبير . وأنت يا  
شاطر متصفح ثمة بلدة تحوت بلذتك وأهلك أهلك ، وكثيراً ما حدثني  
أنت صابغاً في الصحراء عن محبتك الزائدة لبي تحوت ، ومن الطبيعي  
أن تصح محبتهم في قلبك لأنني أنا شخصياً أحبهم من غير أن أراهم ، فإني  
بالك وأنت مستروح من زهرة أمة الرئيس مرسى !

فاطرق الشاطر في حياء العاشق ، وقال إدريس في غفر زاده جلالاً :

صراحة ، لقد أعجبتني العذراء التي اختارها الملك لي ، صليحة  
والله ، وسوف أمشي معها دون خوف ، في مصر عشت في خوف من  
أهالك العسكر من محاليت وأترك وأكراد وفرنساوية . لكنني هنا في أخاف ،  
أنني صرت مثل العسكر !

فقال تحوت بقلب صافي :

يظهر أن جميع المشاكل التي وقعت فيها أنا والشاطر بما في ذلك أسرنا  
هنا كانت بسبب وفائتلك ، لم تدخل عليك ولماذا تفعل أنت ؟

جبر لكما مستظلي مني العمر ، لكك فلتها : دائماً أوردك في  
المشاكل ، منذ الآن لي أفعل لأنني سأبقى هنا .

وفي تلك الليلة استلقى كل واحد منهم في مخدعه دون كلام ، لكنهم  
جميعاً ظلوا يعانون السهارة بسبب بلبلة البال ، إدريس يحلم برؤاه إلى



العذراء التي رافقه ، والشاطر يحلم بعودته إلى المناء والزواج من زهرة التي هي  
عنده أجمل من كل زهرة ، ولم يعرف قلبه العاشق أن شاباً آخر من أسرة  
كريمة يتنافس في حبها ، هو بكر أحد أنجال شيخ الأسمولين الطيب ، الذي  
لوى عائلة بني حنحوت الكبير وقت تغربهم من ديارهم هرباً من  
الفرنسيس ، وكان معهم شهياً طياً لأنه من أسرة كريمة . أما حنحوت فقد  
انغصص عليه يحلم ، وقطع المسافة بينه وبين قريته في لح البصر ، ولزغى في  
حوض والدته أم الخير وشم رائحتها ذاق طعمها الشهي ، وعاد إلى العمل  
مع الرئيس موسى ، وقد عرف أن رائحة النيل المبارك هي نفسها على طول  
مجره ، لأنه يرى جميع البلاد والناس والبهائم والطيور ، حتى الحشرات  
والزواحف ، فمن أين يأتي ؟ أمن جبال القمر أم من نبع محور مبروك ؟

مرت الأيام ثقلة بسبب اقتراب موعد الزفاف ، وصار على الشاطر  
وحنحوت التخطيط للهروب بأسرع وقت ، بينما هما يفكران في حيلة ذكية إذ  
بادريس يقترب منها ويقول :

— اختارنا أية ليلة للفرار وسأعاونكما بالتصويه والتغطية .

— كيف ؟

— سأبقى هنا بالدار ، وسأستري عرقاً يخفى كلاً منا .

— أتعارنا بأن نسكر ؟

— سوف أبقي هنا بالدار ، أضحك وانكلم بصوت عال وأقلد  
أصواتكم ، فيخلن من باحارج أننا نحن الثلاثة نسكر معاً ، والباقي مفهوم .

— سيقايقونك لأنك ساعدتنا .

فجاءوا في الصباح نملًا في غير وعي ومقبلًا ، فيظنون أنهما  
فعلنا ما في ذلك كي نفرا .

قال الشاطر في حسم :

فكروا صنف ، ولكن الفرار بعد ثلاثة أيام .

فسم الحرس .

بعد ذلك بأيام اكون أنا نائمًا في حطس عروستي ا

ففي ذلك القدر كان له تدبير آخر ، فبعد يومين حدث هرج ومرج ، ورأوا  
الناس يهرعون في احتياهم ، وقد زال الركود اليومي ، فساروا معهم ، وبعد قليل  
وجدوا قافلة من عشرة جمال تقرب ، يقود كل جملين رجل نوحث الشمس  
بشره سوار ساكن ، وكل جمل يحمل صندوقين كبيرين ، ويتقدم القافلة  
فارس حرس القاعة فوق صهوة جواده جميل يمشي في احتيال ، وقد ازدان  
بفرع الطرود المبركة وكور الحرير ، ويلجأه زواير فضية لامعة . هذا ان  
جمع الناس يعرفونه ، قال الشاطر :

ففي ذلك اليوم واسع الزمان ، وكأنه أحد المكوك لولا أنه بشرته في لون أهل  
الصعيد ا

وتبعوا القافلة حتى وجدوها تتوقف أمام حصن الملك ، وكان قد خرج  
فمنه إلى الفارس الأبيض ويرحب به ، ولم يعرفوا عنه سوى أنه صديق  
الملك جاء في ريارته من مصر المحروسة ا . فحقيق قلبه فتحوت وكذلك  
فقد انظر . ونعبروا في المساء إلى مشرب الجمعة ، يستقصون أخباره من ثروة  
المندان السكاري ، فعرفوا أن اسمه هادي ، وأنه من تجار إسنا بالصعيد ،

وهو أحد أربعة نجار بإمكانهم التجول في جميع أراضي الشايقية دون التعرض لأذى. همس خنثوت لصاحبه بعد أن خرجوا إلى الطرقات :

— قد يكون السبب في عودتنا.

قال إدريس :

— لكننا الآن من عسكر الملك !

— وهل من كنا معهم عسكر ؟! إنهم مجرد قبيلة سكيرون ، أسوأ من أرذل العسكر في عصر ، وإن كان المهاليك قد صعدوا أمام بونابرتة ساعة أو ساعتين ، فهؤلاء لم يكون لبصودوا أكثر من دقيقة أو دقيقتين ، نحن الآن في زمن البارود والآلغام وتدابير الأنفاق !

— لكنهم شجعان !

— وبماذا أفادت شجاعة المهاليك أمام حصن تدبير الفرنسيين ؟

أما هادي ضيف الملك ، فله قصة ذات شجون تدفع بالدفع إلى العيون ، فقد كان صبيّاً عندما خرج أخوه الأكبر زبادي في غافلة إلى بلاد السودان ، وكان يصطاد في بلاد النور التي هي دارفور ، وله علاقات تجارية مع عرب الشايقية ، وكان يصطاد أفضل من أي صياد من أهل البلاد ، لأنه يستعمل البندقية بينما هم يستخدمون الرماح والفضائح المحلية ، وكان يجمع سن الثعلب وريش النعام وكل ما هو زهيد الثمن في دارفور ويبيعه في مصر بأعلى الأثمان.

كان يعيب ثلاثة أعوام أو أربعة ، فلما طالت غيبته ثمانية أعوام ، وجاء النعام التاسع خرج أخوه الأوسط شادي للبحث عنه ، لم يجد فلاحاً واحداً

بالمرحبة إلى دارهم ، فالتفت له إلى ملك الشايقية ، أهذه هدايا نفيسة ،  
وطلب منه مستشار خير هو اقل وعدداً من الرجال الأتداء ، ساعده الملك  
المرحبة بالمرحبة ، وأعطاه سبعة مغانين وخبراً مخكاً اسمه سر  
المرحبة .

كان الأخ الأصغر هادي وأسرته في اسنا ينتظرون عودة شادي بأخيه  
والمرحبة ، فلما طالت عليه عو أيضاً سبعة أعوام ، توكل هادي على الله وجهز  
الملك في العام الناس مفضياً خط سر شادي ، حتى وصل بالجمال المحملة  
بالهدايا ، بعد أن ركب به الملك وجلس إليه ، لاحظ هادي أنه يغبر بحرق  
الملك كلها عن شادي ، فغضب الغار في عبه ، فالت المرافعة إلى ما  
بعد الغناء والعشاء ، وبينما هما في الشرفة البلية قال هادي :

يا سيدي العزيز أدام الله عزك ، ما عندك من أخبار ؟

بالمرحبة الملك حزينا ثم راح يحكي :

عندما جاءني شادي منذ أعوام ، بقي عندي أربعة أيام ، ثم جهزت له  
مغانين من الشجع الرجال ركبوا جملاً من غير الابل ، يرشدتهم أحسن  
غير هوائل ، حفظ المسالك والدروب وأماكن الآبار والظلال ومعالم الطريق  
وعلى النجوم ، ويغهم في الانتساب وطرق العلاج ، فجر اليوم الخامس  
عزمنا على طريق لا يعرفه إلا الخبير ، سر الحتم ، وهو أكثر من أربعين  
يوماً ، وأما الخبير يعود من غير أخيك ومعه ثلاثة رجال فقط .

أعمل الملك في استدعاء الخبير سر الحتم ، الذي جاء ورأى هادي  
فالت دموعه على وجهه المجعدتين ، وحكى :

بعد خروجنا في أول الرحلة خيل لي أني سمعت صوت طائر الشوم



فطأيرت ، ورجوت أخاك شادي أن تزجل الرجال ، لكنه أبى ، ففقدنا في  
طرق جانبية فوق الرمال وبين الصخور وعبر دروب لا تتسع إلا لدابة  
واحدة ، وسارت الأمور على ما يرام لمدة أسبوع ، ومع أول يوم من الأسبوع  
الثاني مات أول الرجال بضربة شمس ، ثاني يوم أصيب ثاني الرجال  
بالجنون فجأة ، بدأ برؤية سراب الغزلان ثم راح ينادي على زوجته وأولاده ،  
وتركتنا بغنة وجرى موعلاً في الصحراء ، وفشلنا في اللحاق به ، ولابد أنه مات  
عطشاً .

في الأسبوع الثالث فقدنا ثالث الرجال وقد حان أجله الرباني فدفعناه  
وواصلنا الرحيل ، ورجوت أخاك أن نعود فرفض ، وبعد ذلك قتل الرابع  
بحربة جاءت من بين الصخور ، وفي ليلتها سيطر علينا الخوف وزاغت عينا  
شادي ونمنا ، وعند الفجر ذهبنا لابقاظه فكان نائماً النومة التي لا قيام منها  
(لا يوم الدين ، وقد ازرق بدمه ، وبالحديث وجدنا أثر لدغة من عقرب أو  
نحاش أو حشرة سامة لا نعرفها ، فدفعناه بالاحترام الواجب وقفلنا عائدين ،  
وحى نسرغ بالمسير تحففتنا من كئي أحوالنا بها في ذلك صبايق الهدايا  
والبضاعة . هذا ما كان والله على ما أقول شهيد .

عندئذ بكى هادي لمدة ساعة زمينة ، وكاد أن يقع مغشياً عليه ، بعد أن  
تمالك قال بصوت متهدج :

— يا عم الشيخ سر الحتم ، لي رجاء عندك ، الآن عرفت أن غياب أخى  
شادي سوف يطول إلى يوم الدين ، بقى أن أعرف مصير الأكبر زيادى  
المختفى منذ مبعة عشر عاماً ، فإكراماً لخواطر أمى بإسنا وخواطرى وخواطر  
شيخنا الملك تكرم بإرشاد قافلة جديدة إلى دارفور حيث ذهب زيادى .

تردد سر الحتم طويلاً ثم قال :

... فاستلمهم على رأس من فوق ، أما عن دارفور فأنا لا أدخلها ، أنا لا  
أدخلكم إليهم وهم لا يسمون الشايبة ، ولا أفاخر بسلوك الطريق من دققة  
في النظر خاصة العور ، لأنه غير آمن ، سأفقدك بعينة الرحمن من هنا  
وهي أقرب نقطة على طريق الأربعين ، الذي يصل بين أسبوط عندكم  
ومدينة النهر ، وهناك سطر أول قافلة قادمة من مصر وتلحق بها . أتوافق  
عليه ؟

... أوافق مع شكرك وامتناني .

... هناك مشكلة الرجال الذين سيراقتونا ، أخبار الرحلة السابقة ما  
أشبهت الأوهام ، وسيكون من العسير العثور على من يقبل .  
... أوافق عليهم أجوراً عالية .

... حسناً ، حياة الإنسان أغلى عنده من كنوز الدنيا ، وعلى كل حال  
سأفعل ما سأل وأرد عليك .

... أما المسألة السال فإني سأفعل ما أحتاجه من رجل واحد قبل ، وهو دليل النظر  
وهو من سوف يكون عبثاً والمفروض أن يكون عوناً  
... أوافق عليك . وسأله الخبير :

... فإنا نحن الرجال الذين راقتوك ؟

... أوافقهم معي أن يرجعوا إلى إسمنا من هنا ، حاولت إغراءهم دون  
حدود ، فلا أحو مصر لا يسمون الترحال خاصة إلى دارفور .

... ومع ذلك اسم مصر ظهرت على بال الملك فكرة ، فسأل سر الختم :

... أيتفكر ثلاثة شبان كي تقوم بالرحلة ؟

— بشرط أن يكونوا أصحابه الذين أقوياء النظر ، وساحضين قلوبهم ، من

أخي .

فابتسم الملك وابت على كعب هادي ، ثم أرمى بسندعي منحوت  
والشاطر وإدريس ، فلما وصلوا تفحصهم هادي منهشاً وقال للملك :

— كما لو كانوا مصريين !

— هم كذلك ، ربما باستثناء هذا الأسير إدريس .

ثم سفع لهم بالخلوس ، فجلسوا فوق ثلاث وسائل طريق ، وثربوا  
ونظروا لهم حائرة بين الملك وهادي الذي سألهم عن أصلهم ، فقال إدريس :

— أنا من كردفان ، أضل ذلك ، حفظني نحاس حقيير إلى القاهرة وباعني  
لملكك حرب مع عبيد المومنين فشرت خادماً لرسام فرس اسمه ديون .

قال الشاطر :

— وأنا من القاهرة ، نحتت صغيراً ونعرت على منحوت ، وبأنت معي  
بالدم ، وقررت أن أعيش معه ولا أفرقه .

وقال منحوت :

— أما أنا فمن قرية تلة بمدينة المنيا وأعمل نولياً على مركب أخي الرئيس  
موسى ، سافرت معه على طول النيل من أسوان إلى القاهرة .

فقطب هادي منهشاً :

— ما شكل أخيك ، أهو ضليل الجسد !

— إلى حد ما ، لكنه كبير اللدب شجاع واسع الحيلة .

يا هذا الملك الذي اختارني مرثب الرئيس جابر ؟

مرثب مرثبات منفعلاً ؟

يا الرئيس يا مرثب مرثبات منفعلاً ؟

مرثب مرثبات منفعلاً ؟

مرثب مرثبات منفعلاً ؟

مرثب مرثبات منفعلاً ؟

مرثب مرثبات منفعلاً ؟

مرثب مرثبات منفعلاً ؟

مرثب مرثبات منفعلاً ؟

مرثب مرثبات منفعلاً ؟

مرثب مرثبات منفعلاً ؟

مرثب مرثبات منفعلاً ؟

مرثب مرثبات منفعلاً ؟



فصاح إدريس :

— كنا نهرب إذن من مطارد غير موجود ! الآن لا نخوف علينا من العودة إلى مصر . كيف حال البلاد الآن ؟

— هذا موضوع طويل ، وأمسيات الرحلة كثيرة . علينا الآن أن نعد حوائجنا .

وفي الطريق حدثهم عن صداقته بعرب الشايقية ، فقال : إن أخاه زيادى المفقود هو مشيخها ، وهو المصري الوحيد الذى جاب السودان طويلاً وعرضاً ، وله صداقات فى كل مكان ، وأعظم من يصيد الأقبال والنعام بالبنادق ، فهو تاجر عاج وريش نعام ، ولم ينجح فى الرقيق قط .

قال الشاطر :

— بصراحة ومن غير أى زعل ، نحن لم نجب أصحابك عرب الشايقية ، أنهم يذلون النوبيين مثلاً بنهب الممتلكات الفلاحين عندنا .

— مع أنهم مضيفون كرماء ، رفيق السفر عندهم مقدس ، وإذا كان للمسافر صديق من بينهم يوقع عليهم سطور ونهب فى الطريق فلا بد من رد ممتلكاته إليه ، ولو كان الذى استولى عليها هو الملك نفسه .

— لقد ردوا لنا حوائجنا .

— وإن جاءهم شبان من المناطق المتاخمة بقصد التعلم قام شيخ الفقهاء بتوزيعهم بين معارفه حيث يحظون بالملوى والطعام عدداً من السنين .

— لكن جنودهم قطاع طرق ، جهلة أسلحتهم الوحيدة هى الحرايب والسيف ونحن فى زمن البارود والمدافع ، استوعبنا مهاراتهم بسهولة .

— ومع ذلك فهم فرسان مهرة ، وخبيرهم من أعظم خيول دنقلة الشهيرة ،  
يجهون إلى المعارك في شغف كبير ، إشارة الهجوم عندهم زغرودة طويلة ،  
تدور فتاة عذراء ترتدى ثياباً فاخرة وقد اقتعدت سنام هجين يجمع الكل على  
حرمة حتى الأعداء ، بمجرد أن تطلق زغرودة طويلة يجهون هائلين :  
السلام عليكم !

— ما حكاية السلام عليكم هذه ؟ . سمعناها منهم وهم يجهون على  
المهالك ١٩

— يقصدون سلام الموت على الأعداء ، وهم منقسمون إلى ثلاث قبائل ،  
منها هذه التي نحن فيها الآن ، ونعمل كل قبيلة على حدة في فرض الاتاوات  
على فلاحي التربة وفي سلب المسافرين ، لكن هذه القبائل تتحد عندما  
يواجهون غزاة أغراباً ، ويأمنونهم جمع عشرة آلاف مقاتل في أقل زمن ،  
أسلمهم غامض شأنهم شأن الفنج ، وكل تركي عندهم كلب ، وهم أكثر منا  
كرهاً للمهالك .

لعدة أيام طاف معهم سر الختم يشتركون معدات الرحلة ، من سبور  
جلدية وإبر غليظة لرتق النعال ، وأدوات إصلاح المكسور من أعمدة  
الحزام ، وكميات كبيرة من البلح قليل السكر ، لأن السكر يسبب العطش  
والأبد من الاقتصاد في الماء ، إذ إن الأبار على مسافة أيام من بعضها  
البعوض ، والبلح لحم وللجمال أيضاً ، وملح وفلفل لعمل العصيدة والأرز  
والخبز ، وخمس وعشرين فربة من جلد الغنم ، وحلة نحاسية للطهي ،  
وكميات من الأعشاب الطبية . وملابس قطنية جديدة ، وحرام من الصوف  
لبرد الليل وكفوف ، ونعال دون كعوب لأنها أنسب للمسير في الصحراء ،

وهذا لما لتوزيعها في الطريق ، إلى جانب ما كان قد حملته هادى من مصر  
المحروسة من عطور وخرز وأجراس نحاسية وطلع مصرية .

اختاروا أفضل الأبل وأقواها ، وتركوها ترحى علفاً ناضراً وتُشرب من الماء  
ما شاء لها ، خزيناً للطريق المجدب ، واختار سر الختم ثلاثة جمال مسنة  
تحمل قرب الماء ، وقال يرد على دهشهم :

— لأنها رزينة بفعل العمر ، لا أخشى من نزعها على ما تحمل من قرب ،  
وهي نعلم أنها تحمل أغز حوائج المسافر ، فتجدها عند نهاية سير اليوم  
ومجيء ساعة رفع الأحمال تتحنى بعيداً عن بغية الجمال خوفاً على القرب التي  
تحملها من الاصطدام بجمل آخر أو صخرة فتضجر قربة أو قربتان ، تفعل  
هذا بالغريزة والخبرة ! ، الحمل حيوان ذكى ، وبإمكانه السفر أسبوعين في  
الشتاء من غير أن يذوق الماء ، وقد يقصر في الصيف إلى عشر يوماً ..

أخيراً تُحدد اليوم المنتظر ، فأقام لهم الملك حفل المودعة ، وفي المساء  
باركهم كبير القضاة بتحيات مبهجة فوق رؤوسهم ورؤوس الجمال وكل  
حزمة أو صندوق من حوائجهم ، وأهدى هادى فرسه البديعة إلى الملك  
عرفاناً بجميله .

وفي الصباح الباكر راحوا يحملون الأشياء فوق الجمال بترتيب ، بحيث  
يكون انزاعها عنها في المساء سهلاً ، فالحافلة لن تتوقف للغداء لأن الجمال  
يأكل وجبتين فقط ، فيأكل الرجال غذاءهم أثناء السير .

تأخر التحميل بسبب عدم ذراية حنحو وصاحبيه ، وشده عليهم سر  
الختم بضرورة حسن معاملة الجمال ، وحذرهم قائلًا : إنه إن أذى رجل جملاً  
حل الأذى في نفسه ، ولم يهتم على الأثر وبصر له ، فإن تكرر الأذى ، فكفر

في الانتقام ، ولا يوقع به والغوم من حوله ، بل ينتهز فرصة انفراده به ويغير  
عليه ويلقي به على الثرى أو يرفسه ثم يطره بخفيه ، وقد يفلل بركاً عليه حتى  
يموت .

فهو معنى النصيحة ووعده بحسن معاملتها وبدأوا التحرك بصحبهم  
« قدر بوه » بن أخى سر الختم حتى لا يرجع المحوز وحيداً . وخرجوا من  
البلدة ، وبعد وقت لاح لهم في الطريق ما جعلهم يستبشرون خيراً ، إذ رأوا  
بويبة رشيقة الفرواق قد انفرجت وهي مسلة نقابها على وجهها ، صاح « قدر  
بوه » يرجوها :

— وجهك وجهك .

فاستجابت وانزاحت نقابها في خضر ، فكشف عن وجه يذيع القساات ،  
صاحوا بكلمات الإعجاب ، وحياها سر الختم في دقار الشيوخ وقد عرفها  
وهز رأسه متنهداً :

— كانت أمها في مثل ملاحنها ، ليت الرماك يعود !



(٤)

## ركوب الجمال

بعد ساعتين كانوا في جوف الصحراء  
وتبدل الهواء وصار جافاً ، والخير يع  
يبتودهم في ثقة ، إلى أن توسطت ال  
قدميه ، فتردد مرتبكاً ، وعندما توقف ت  
تشعر بقيمة الخير ، فإن وقف وقفت  
تتمشى من ورائه غير عابئة بباقي الر  
لعادة ، فإن سبقه غير حافل به فهو قد  
أن ينشق الماء على مسيرة ثلاثة أيام ، و  
واحدة ولو بعد زمن طويل !

خاف قدر بوه أن تكون الأرض ماد  
خروجه إلى الصحراء منذ أعوام ، وبسب  
بحل إذا فقد الظل ! . وظن حتحت و  
تأهبوا للأكل لولا أن ظهر غزال شارد  
سدقيته وتسلل خلفه ، لكن الخير ناداه

— لا تفعل ، ارجع .

ثم أدار وجهه بعيداً ، وكان هادى ق



منزل ، وهذا حسلاً إياه ، وما إن استدار من الخضم وركل حتى نهلك وجهه  
وقال :

— بشري خير مؤكدة ، رحلة مبعوثه براك الله ، وام ماهر مثل الحرك .

صاحت فخر بوه سعيداً وقال للشاهر :

— لحاف عسى عدم احسانه الخلف ، لأن أول طائفة فاسقة في حظ الرحلة ،  
إن أخطأ الرامي أصاب الخافقة مصيبة في الطريق ، وجميع الخبراء بما فيهم  
عسى يؤمنون بالفتن والفتن ، سوف يفوتها الآن بشقة أكبر . واجب الخير  
الحرص والاكلام معاً ، فإن نشاءم راد حرصه وكل إلتام وهذا صار . من  
علامات التفاؤل أيضاً أن تكثر الخافقة أثناء سيرها على بلح مسافرة في  
الطريق ، ولو رآه عسى لرايت همه ولما أخطأ الاتجاه شبر واحد ، وسأحصل  
على أن يصادفه .

واصلت الخافقة سيرها على نهج حتى مالت الشمس ، وبدأ ظل الخبير  
يمتد فأصبح على يقين من اتجاهه ، وأسرع في الأبل فوق الرمال ، وراح  
فقد بوه يقني لها ، كان صوت خذاته يديها تطرب الأبل وتشتت في  
سيرها ، وكان غداء الجميع مضى السير وهم سارون ، وطوال اليوم يرون  
هراً من المياه ، يرق عند الأفق ويغريهم بعذوبة مائة وبرودة ، وتخل العكاس  
الضوء يؤثر تأثيراً عجيباً في جميع ما يرونه ، وبدأ حذاء النظر ، فوالا الخبير  
الصغير وكأنه صخرة كبير قائمة على بعد دقائق !

مع اشتداد الحرارة أبطأت الأبل سيرها ، وفشا هدوء وفنور بين الجميع  
حتى مالت الشمس نحو المغرب وأظلم الجو فجذبت الأبل في السير  
واندفعت مسرعة ، وفقد بوه بساخطها بالحذاء ، وحيط الليل وصارت

السماء السابعة ، واسترشد به الختم بالختم النقطي الذي نجح في السماء ،  
وعد ساعتين أو ثلاث نادى فيهم :

يا غيابة الدار يا غيابة الدار .

ومعناها انتهاء مرحلة اليوم ، فإذا اجتمعوا ينضم بعضهم إلى بعض ويترك  
السماء بوقت الراحة ويرفع الأحمال عن قاعها ، بينما كانت الليل المسنة قد  
ولدت جانباً ، فأقبلوا عنها القرب ، ثم نصبوا ثلاث خيام بعد أن أوقفوا  
السماء ، وأمسك قدره في أعمدة الظهيرة ، فاستعادوا بعض انعاشهم ، ثم  
أخذ بعد الطعام من لحم العزال الشهير ، بينما قدم عبد العارف للابل من  
السماء الجاف فراحته لأفاته بنواه ، مع إغلاطهم في الليل شعروا بالبرودة ، ثم  
استمعوا حول الطعام ، وكانوا جميعاً جاعين وكل واحد يظن أنه مبلتهم  
الكبر فذا به يشبع من القليل ، وغداً ونشأ يسامرون ، ثم سألوا هادي إلى  
بعضهم مما جرى في مصر المحروسة في أثناء لغزهم عنها ، لكنه ما زال بدأ  
يحكى حتى رأى حقوقهم تنقل وقد غلبهم المعاش بسبب الأجهاد والفتحات  
للشمس طوال اليوم ، واهتزرات الجبال الرنيبة التي تعب عضلات البطن  
أعبر المعتاد ، خاصة في اليوم الأول .

دخل الثلاثة إلى خبيثهم ، بينما الجبال الحور بين الحوام دون الكرات  
الجوايح الملقاة على الأرض ، لكنها ما إن اقربت من القرب حتى احتفظت  
الانطلاقات .

في تلك الليلة ظل قدر يود منبسطاً فترة طويلة يراقبها ويحادثها ، لأنه  
يعرف أن الجمل بعد إخراجها من القربة أو الواحة والظلم به إلى الصحراء  
قد يحاول أن يسرب إلى الليل ليعود إلى حبت الماء والغلف الطير ، وأنه قد



يفعل ذلك خلال الأيام الثلاثة الأولى . ، فلما اطمأن قام وأخذ في عبه بعض  
 النمر ثم سار مسافة طويلة وثقل في الطريق ، وعاد وهو يزول آثار أقدامه ،  
 والسماء من فوقه صافية مرسعة بالنجوم ، حتى دخل خيمة عمه ونام .  
 عند الفجر استيقظوا وما زال بالسماء قليل من النجوم ، شاعرين بأهالي  
 الأبدان ، فكل عضو مثلم وكل حلق جاف ، والدنيا ما زالت بها نسمة باردة  
 آتية من الشمال . وأعاد قديريه إشعال النار الخادمة لأعداد القهية والنظور ،  
 وشدة نور فضيل انتشر في السماء مجهول المصدر يرمى أسفليم وأسطل الأهل  
 ظلالاً روائية باهية ، ثم أخذ القضاء يتخضب بحمرة بعثت الدفء  
 وكشفت ألوان الصحراء ، وعندما أعادوا الأحمال فوق الجبال ، كانت  
 الشمس قد علت فلم يعد في الصحراء من ألوان غير حشرة الرمال الممتدة  
 وزرقة السماء وثقلاتها عند الأفق . وعثروا على البطح المنتشر في الطريق ، فكان  
 الخبر سر الختم أمدد الناس ، وأبسم الشاطر لقديريه ، وظلوا سائرين  
 حتى منتصف النهار حيث كانت الألوان أن تنمحي من السماء .  
 ثم انهم ساروا بين تلال ورمال مدة ساعتين ، دخلوا بعدها أرضاً  
 متعرجة مغطاة بالحجارة السوداء ، ثم ساروا ثانية بين تلال رملية ، وتكررت  
 المناظر في رتبة ، حتى دخلوا في مفايز لا علامة فيها لشعروا بالعطش  
 والحلل ، وأزدادت عظامهم تكسراً ، إلى أن عبروا من جوار علم من علامات  
 الطريق ، وكانت تلالاً عالية من الحجارة السوداء ، بعد حين مروا على  
 علم اسمه : سعدة وابتها وكان تلاً كبيراً وآخر صغيراً ، ثم أرض سوداء  
 منبسطة صلبة الرمل كثيرة الركام . إلى أن حل الليل ونادى سر الختم  
 بأعذب كلمتين عندهم وعند الأهل : الدار يا عيان ، فبركت الجبال من  
 توها ، وأوقدوا النيران ونصبوا الخيام ، وناموا عقب العشاء مباشرة فلم  
 يمشد بهم السهر ولا الكلام !

يا عم لائمون إذا عاصفة فتجاج الخيام فجأة ، وإذا الشاطر وصاحبا  
محمود فزعين على خيمتهم وقد فوضتها العاصفة فوقهم ، وثقلها بزيادة  
ما بهال عليها من الرمال التي لا ينقطع تراكمها ، وجاهدوا حتى  
مروا لم تعانوا مع هادي وسر الخنم وقدر بوه في وضع أكياس الدقيق  
على الأمتعة فوق الخيام حتى لا تجتاحها العاصفة . وعندما سكنت قال  
الشيخ المجوز :

ولفنا الله اليوم ، من يعلم بالغدا

عاشت الأيام مشابهات ، والصحراء خالية من العلامات ، ليست فيها  
ألا بعض هياكل الجمال أو الخصى الصغيرة ، فياف متراصة وقنار موحشة ،  
والطير على الظلال نهراً والنجوم أول الليل ، وكل وقت بعين جمال  
الليلة ، فإن رأى سرجاً مائلاً يؤدي أحدها أمر بعدله وإن وجدها تنكحاً  
عقبه .

فاجرو الجمال يا رجال ، فتهوا لها .

ومثلق قدر بوه يعني ، ومع الأيام حفظوا حدهاء فصاروا يشاركونه ، وفي  
الليل كان يأمر الخبير بإيقاد السراج لأن الجمال تحب النور ، وعندما لاحظ  
عقب الحمل الأبيض خفف أحماله صباح اليوم التالي ووضعها فوق الأسود  
العمى . وعودوا جو الصحراء ، وزالت عنهم آلام العظام وعضلات  
الرجل .

ومات يوم أصبحوا والسماء صافية والجو خال مما ينذر بعاصفة أو بشعر  
ربيع ، ونبتت الصحراء لهم وهم يهيمون بالرحيل ، وما هو الا قليل زمن  
حتى حب نسيم بليل لم يعرفوا مأناه ، مضى غمماً فوق الرمال ثم اشتد دون

ان يضايقهم ، ثم إذا بسطح الصحراء قد تغير ، وإذا بذررات الرمال ترتفع قليلاً وتتجمع وتدور كأنها بظلم يتصاعد من ثقب في باطن الأرض لا عد لها .

و شيئاً فشيئاً تزايدت ثورات الرمال مع ازدياد قوة الريح ، حتى خيل لهم ان سطح الصحراء قد ارتفع اطاعة لقوة رافعة غريبة من تحتها ، ثم إذا انطوى بتعابير ويتأثر ويصيب فصب الأرجل والركب والأفخاذ ، ويتصاعد رشايش حبات الرمل على أجمعهم حتى نظم الوجوه ودوم عوفي البرعوس ، ونجست السماء فلم يعد البصر يرى إلا أشباح الجبال القريبة منه ، وإهال العذاب عليهم لظلمة وندماً ولدغاً ، ولم يعد بإمكان أحدهم ان يقرر مفتوح العينين ، وفي الوقت نفسه لا يحسر أن يعضضها والآناء عن رفاقه ، حوا أنوفهم بالكوفيات ، أداروا وجوههم يتقون الرمال وقد كانوا أن يعسكوا عن التنفس ، ثم رجاء سكنت العاصفة فصاح الخبير .

— أتركوا الكوفيات وتصوروا ، سوف تهب من جديد .

ففعّلوا على الفور ، وألقى هو بفكرة سريعة تبين فيها الطريق ، وقال :

— نجدوا . . لأن العاصفة تهب في ثلاثة جهات أو أربع .

وجاءت اللمة الثانية ، وكان قهقراً غانياً يسمع العصفافات في الرمال فيسحبها فوق رؤسهم مذبذباً في الفضاء دويّاً يصم الأذان . اندفعوا في سيرهم دون توان ، لأنهم إن وقفوا وبسوا في أعينهم تكدرت الرمال من حولهم ورددتهم ، وعذاب السير وأحواله أهون من الموقف والموت . حتى الأبل واصلت التقدم ، إلى أن سكنت الريح فجأة كما بدأت ، كأنها أمرت فامتثلت .

لقد صلب الرمل الناعمة كأنها ضباب ينشع ، فوقفت الجمال بعنة ،  
وقد لم أجد دون أمر ، وكان معنى ذلك انتهاء العاصفة ، فعادوا الأحمال  
من نومها واستراحوا ثم نصبوا الخيام ، ومن حولهم قطع كبيرة من الأحجار ،  
فلم يبق من الختم أنها كانت فيما مضى أشجاراً ثم مسحتها الطبيعة  
وقد أفسد تلكه النبات إلى عالم الجهاد ، وسبحان رب العباد !

المروق القمر بضوئه الباهت فأعطى الصحراء شكلاً جميلاً ، وكان الخطر  
الذي علقاً منذ قليل ، فبدأت الأعصاب تهدأ ، وصار للسكون ومشي في  
الأدب ، وتحررت الأصابع تحت الإبدان ، فنهض الخبير عن ذلك حتى لا  
يضيع ، وقال مندرأ :

يا حسوا الرمال على أبدانكم ، وتذكروا جيداً أن الماء للشرب فقط ،  
وعلى إذا شاء الخالق نصل إلى أول بشر على الطريق ، ندلاً قربنا النارعة ،  
نصل إليها المسخة .. نغسل إذ كانت المياه وميرة . وإن وجدنا الكلا  
من الأبل يقينا يومين أو ثلاثة .

الحج إدريس قائلاً :

إننا لا نتوقف للمغداء لأن الحمل لا يأكل وسط النهار ، وستوقف عند  
البر يومين إذا وجدنا الكلا له ، كل شيء من أجل راحة الحمل وليست  
أصابعنا .

الحمل أساس المقاومة وأمننا في الحياة ، صديق من أسماء سفينة  
الصحراء ، انه حيوان رائع ذكي صبور ، أفضل من الإنسان ، الناقة زوجة  
الرجل لا تعرف الحياة مثل بعض الحريم ، وتسع سيدها الحمل أينما ذهب ،  
الرجل للحمل الذي تحبته نفسه بالأعنداء على ناقة رجل آخر ، كما أنه يعرف



عمته ، الجميل الذي يركبه صاحبه مدة طويلة يأتي في الصباح وقت  
التحصيل ويترك أمام خيمته من ثلثاء نفسه ، ألم تر جملك بفعل هذا معك ؟  
بينما كثير من الأديين يتراخون وينكاسلون .

في تلك الليلة كان النوم منقطعاً ، وقد سدت ذرات الرمال أمام  
الأجسام ، وغللت الشعر والحاجبين ، وتسلبت من تحت الثياب ، لكنهم  
حين ناموا ، جاءت الإبل تريد حلك رقاها على حبال الخيام لأنها تحب  
ذلك . أدخل أحدها رأسه من ثنايا خيمة حنحووت وصاحبه يتحقق من  
نومهم ، ثم ينهره أحدهم فعلم أنهم غارقون في النوم ، أخرج رأسه ثم بدأ في  
حلك رقبته على الحبال ، وبعد قليل انضم إليه الآخرون ، وكانت قد تعودت  
على حلك رقاها في حبال هذه الخيمة بالذات بسبب ثقل نوم أصحابها ،  
لكن في هذه الليلة انفلقت نبه الشاطر على أصوات غريبة ترتج لها الخيمة  
دون توقف ، فنهض فرعاً وقد ظن العاصفة الموحجة عادت ، واستيقظ  
صاحبها ، ثم خرجوا يفرحون على حلك الجمال إلى أن حققت مبتغاها  
وثركت الخيمة من غير أن ينهروها .

بقوا في أماكنهم جالسين يغنون حيناً ويصيحون لحظات ، وعندما  
استيقظ سر الختم دهش لمراهم ، فالعادة أن يكون هو أول البقلى ، جمعو  
روث البعير الخاف لايقاد النار وأعداد القهوة !

ثم مضت النافلة تحب ، والخير بشدد التنبيه بالحرص على المياه ، ومن  
أرض مكسوة بالحصى الصغير ، إلى منخفض قامت على جنبه الأيمن  
صخرة رمادية ، قامت بعدها على اليسار صخرة بيضاء ، فتوقف عنده  
الخير حزينا وقال لها دى !



فقال لهم شادي أخاك بعد أن مات ملذوغاً .

فقال شادي : وتلوا الآيات ترحماً ، وهم ينظرون أسفلهم خوفاً من  
العراب السادة .

بعد مسير عدة ساعات وجدوا فوق الرمال هياكل عظيمة بيضاء ، أشار  
إليها شادي قائلاً : لكن الخبير انهم لمأها وطمانه قائلاً :

هذا الرمال ، وهي دليل على أننا في الطريق المنطوي ولم نضل .

فقال شادي : فخامة الهيكل العظمي ، اعترض بأنه لا يمكن أن يكون  
هذا الرمال ، فاعرب منه شادي مؤثراً :

يا أمي اسكت ، انها لجميل ، لكن عابري الصحراء يسمونها غزلاً ،  
التي هي الحسل فيه خطر على القافلة .

قال ذلك ثم التوى حزياً دامع العين على شادي الذي مات وهو في  
البحث عن أخيه زيادي .

قال العروب نهل وجه الخبير وصاح متلفناً حوله :

الحسد لله ، بشر عذبة ، وكلاً ضالح .

وعلوا وعلفوا فلم يروا بشراً ، فسحك سر الختم وقال جلالاً :

لأنكم توفعون بشراً بحداد وذلوا وحبالاً كما في القرى .

بعد ، حتى أخذ الرمل يزداد نعومة إلى أن صار ندياً ، غاصت أقدامهم  
في الرمال ، وثقفوا وركعوا يسلون الرمال بأيديهم حتى أخذوا حفرة  
عميقة فيها وبقي قدر بوه وحده يكش الرمال المتلة وينقيها جانباً ، حتى

وصل إلى عمق يساوى قدومه ، ورشحت المياه إلى نصف قامته ، فزكوهها وتوالت  
إلى أن راقب وصفت ، فشرّبوا وملأوا جميع القرب الخالية ، وتركوا الجبال  
تترب كفافيتها ، بعد ذلك اغتسلوا وأزالوا التراب والأوساخ عن أبدانهم ثم  
غسلوا ثيابهم ، واستلقوا داخل الخيام سعدها ، غفوا ثم استيقظوا بعد ساعة  
نظروا ، وتجمعوا متعجبين حول الدار يحسبون التهمة ويناديرون ، بينما  
الجبال تزعج الكلال الوفير ، الذي كان معنى وجوده أن أحداً فيهم لم يبر  
بهذا المكان منذ أقطار الشتاء الأخير ..

قال حنحوت هادي :

— الآن لن ننام منك في أثناء الحفوت ، أخبرنا عن مصر وكيفية خروج  
الفرسبر منها ، ومن يحكمها الآن ، أنا في شوق عظيم .

اعتدل هادي وبدأ يحكى صورته يتشرف في امتداد الصحراء السحيق :

— كان يونانيرله قد وعد جنوده بإرمال الامدادات لهم ، ولم يوصل شئ ،  
ثم قتل كبير ، وحلفه ميو الغبي ، فكمه الجنود البقاء ، وحنوا إلى الجلاء ،  
وقد طافوا بالآوبة ونهرات أهل مصر المتكررة ، وفي تلك الأثناء وصلت  
جيش الانراك بمساعدة الانجليز ، فوافر ميو على الجلاء ، وفي اليوم  
المحدد سارت طوابيرهم خارجة من القاهرة ، إلى المراتب التي نقلتهم من  
بولاق إلى رشيد ، جنوداً وحدماء ولساء ، والمرضى فوق الشالات ، والحمى  
تحمل الحفان والأصلاب ، وأيضاً حنة كبير المجفلة ، وهذا انتهت سيرتهم  
من فوق أرض مصر المحروسة !

سكت هادي ، فاحتج سر الختم قائلاً :

— باريس هادي ، أنت تاجر ، والشجر دائم النجوم ويقابل الكثيرين

وهم يسمعون الأصوات المبهمة وطويلة فلا يحل عليا وردنا

والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .

والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .  
والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .  
والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .  
والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .

والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .

والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .

والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .  
والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .  
والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .  
والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .

والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .

والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .  
والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .  
والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .  
والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .

والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .

والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .

والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .  
والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .  
والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .  
والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .

والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .

والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .  
والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .  
والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .  
والله في سعة ما أراد ، ثم نهت بكسل .

إلى مصر ولد ارتقى بسرعة عجيبة ونراى عشرة آلاف جندي الهانى المعروفين  
بالأرناؤود<sup>(١)</sup>

هو رأسه عجيباً:

— هو شخص عجيب . قصر القامة أسير بلحية حمراء . سمعت أنه  
بهاهى بكونه من بلدة الأسكندر المقدونية ، وبكونه ولد فى نفس عام مولد  
بونابرت ، وببشى وأضعأ يده خلف ظهره مقلداً إياه . شغوف بجمع المال  
والذهب والجواهر وعلب الشوق الفاخرة والرغبة فى التسلط . يظهر غير  
عائبط . مازال يراقب الأحداث فى مصر ويتغرب من الجميع . يرى  
المماليك بنافسوك الترك على نهبا ولا يتدخل ، ولا يبدو عليه أنه غائد إلى  
بلاده . والمماليك مفلكون ، وكبرهم إبراهيم بك المحنك الرزين أخته  
السنون وحدث من نشاطه ، والبرديس على غشوم ، تقرب منه محمد على  
وطواء بالثناء والمدايا . أما محمد بك الأنقرى فهو ذكى عنيد حصيف ، أظنه  
غريبه الخطير خصوصاً أنه على عكسه فديم العهد بمصر ويعرفها شيراً  
شيراً.

— فماذا عنه ؟

— حياته مليئة بالعجب العجائب .. ويلزمى أولاً بعض القهوة<sup>(٢)</sup>.

(١) ولد محمد على ت ١٧٦٩ وارتقى إلى رتبة مير حشمه لى إواء . وكان جلاء الحملة الفرنسية فى ١٢

يوليو ١٨٠١ بجثة كبير المحتلة

(٥)

## ما فعله ثعلب الألبان في ذلك الزمان

بعد احتساء القهوة قال هادي لأهل القافلة :

— كان بعضي تجار الرقيق قد جلبوا محمد الأنفي إلى مصر صبياً وباعوه لأحد الأمراء ، ثم اشتراه مراد بك لحمايته نظير ألف أردب من الغلال فصار لقبه الأنفي . ولما كبر اعتقه مراد وجعله كاشفاً على الشرقية ، ثم ولاء على عدة أقاليهم فأخذ أرواقاً وأموالاً ، واشتهر بالفجور واشترى لنفسه المماليك بكثرة وجعل منهم أمراء وكشافاً على الشرقية ترفعاً لنفسه عن ذلك ، بقيم عندهم ثلاثة شهور أو أربعة ثم يعود إلى القاهرة . وتفرغ للإغارة على ناحية بليس فأرهب جميع العربان والقبائل .. وهو يقرأ الرمل ويعرف مواضع النجوم وحركة نواحيها بالنظر والمشاهدة من غير مطالعة في الكتب .

قال قدريه :

— عسى يعرفها أيضاً من غير مطالعة في الكتب .

— هو مثل عمك تعلم ذلك عن كثرة الترحال ، ثم لم يزل على صطوته حتى أرسل السلطان التركي صابطة حسن باشا القبطان لتأديب المماليك ، فخاف وهرب إلى الصعيد مع مراد بك — سيد — عدة أربع سنوات ، رزق فيها عقله وأحب مطالعة الكتب والنظر في الفلكيات ، فبدأ يصغر في عربون



أعوانه وعسكره . فلما رحل القبطان غاد إلى القاهرة وصار صاحب الألف  
مملوك والأربعين كاشفاً . وبني لنفسه قصر أمن الخشب مفصلاً قطعاً نركب  
بمفصلات متباعدة يحمل على عدة حمالة . فإذا أراد الراحة أثناء السفر قام  
الخدم بإعادة تركيبه فيصير مجلساً لطيفاً يصعد إليه ثلاث درجات ومفروشاً  
بالطنافس والوسائد . ويسع ثمانية أشخاص وله شبابيك من الجهتان الأربع .

تعجب سر الختم :

— هذا عالم أسمع مثله ، ولا حتى عند أعظم المملوك !

— يا نعم الشيخ ، أعظم المملوك لا يصل إلى ثراء كاشف عند الألفى ،  
وقل هذا من هيب أهلنا في مصر . لقد شيد بالأزليكية قصراً ليس له نظير ،  
بقلعه بالرخام وجعل نوافذه من الزجاج الملون ، وعمل النحت والنحت من  
هدايا الفريجة ، وأنشأ به حمامين علوياً وسفلياً . شاعة الجلوس السفلى  
فسيحة من المرمر قطعة واحدة . وبالفناء أمامي لمسكني حراسه . وجعل  
خلعه سناناً عظيمياً ونكهية مستطيلة ، وصفية أخرى فيها أمثال أسماك  
مجسدة يخرج الماء من أفواهها . ثم سكن بالقصر هو وعياله وحريمه . وكان  
بالشرقية عندما جاء الفرنسي ، فاتخذ بونابرتة قصره مسكناً له .

— كان الألفى كان ينيه له !!

— له وخليفته كبير من بعده ثم مينو . وطول مدة إقامتهم في مصر ظل  
يشغل بين أقاليم الصعيد والشرقية والغربية يكبد لهم المكائد ، يهرب إلى  
الشام ويعود إلى الصعيد ، ويكبسهم في غفلاتهم . فلما تصالح معياده عراد  
بك معهم لم يوافقهم وظل يناوشهم ، إلى أن استعان الأتراك بالانجليز  
واستردوا قصر من الفرنسي . فعاد إلى القاهرة مع بقية الأمراء المهالك .

الذين فرحوا وراحوا يتزوجون ويلهون ، إلا هو فقد توقع غدر الأتراك .

كان صوته يتردد عبر الصحراء فلما سكنت ساء الصمت إلا من صوت  
نفسهم وحرقة الجبال وهي ترتوي . تنهد وقال :

— مسكينة أنت يا مصر . كال الانجليز مازالوا بالجيزة والاسكندرية .  
أراد التحالف معهم لكن الأمراء قالوا له : كيف ذلك وهم أعداء المذهب  
محكم العلماء بردتنا . أحاسهم بأن الزلزال لم ينجحوا من الاستعانة بهم ليعيد  
الفرنسيين . لم يوافقوه ، فصالح مع الوالي التركي مفرداً ونقله إمارة  
الصعيد من أسبوط إلى الشلال . ثم صعدت فراسه وبدأ الأتراك يلتفون  
إماليك في كل مكان ، والذين نجوا منهم لجأوا عندما في الصعيد ، فعاد بهم ،  
وعد صاروا لا يستكفون من الاتجاه إلى الفرنجة ، وأرسل زعيمهم إبراهيم  
بك وغيره بكه البرديسي رسولاً إلى شاطئ ، فرسما لطلب النجدة عن يوليائه ،  
لكنه لم يسمع للرسول بالتوجه إليه في باريس عاصمته . وهكذا شاخت  
ملحة البرديسي !

نكس في الرمال بأنامله ثم فهد فهد غنية تبددت في ليل الصحراء  
السحق :

— أذكر أن الوالي التركي اجتهد في عمل تجربة للنضاء على إماليك  
سماها الناس تجريدة الحمير !

التمعت ضحكاتهم في سكون الصحراء المظلم . وسأل قلوبهم :

— هل جعل الحمير تجارب له ؟

— أراد أحد حبر الأهالي لنقل مناج الحماله فضاها الناس داخل البيوت .  
سار العسكري يضع فمه عند باب كل دار ويقول : زر ، فإذا نهى أخيراً

بالداخل كسروا الباب وأخذوه ، فلما تم لهم ذلك سافرت تحريرة الحمير إلى  
دمشقر في جيشين يفود أحدهما محمد علي ، وعدد الجنود عشرة أضعاف  
مما يملك البرديسي والألفي ، وكان الألفي قد دعا جماعة من أصحابه الإنجليز  
للفرجة ، وكان اسطولهم مازال بالاسكندرية . قالوا له : هم كثيرون وأنتم  
قلّة . قال : النصر بيد الله . في دقائق تم سحق الجيش الأول من تحريرة  
الحمير ومحمد علي يتفجج ولا يقدم العون !

— لعله كان على اتفاق سري مع البرديسي

— جازم جدا . منذ ذلك الوقت ظهر اسمه ، ولا يزال ينحو ذكره حتى

الآن

قال الشاعر :

— قلت إن الإنجليز يساندون الألفي وهم الأقوى ؟

— لولا ضغط بونابرتة على الإنجليز ما انسحبوا . عند رحيلهم فاجأ  
الألفي الجميع ورحل معهم . سافر إلى بلاد الإنجليز ، بعد سفره استولى  
رئيس الشرطة على قصره الفاخر بالأريكية ، ولجأ بنية المالك كعادتهم إلى  
الصعيد !

سأل محتوت إلى كانوا قد حلوا بالهيا . أجاب هادي :

— وصل إليها البرديسي واستعادها من الأتراك ، فارتاع خسرو باشا  
واستغاث بالإنليان وطالبوه بأحوزهم وتوجهوا إلى رئيس الشرطة وأحوزوا  
قصره الذي هو قصر الألفي . عند ذلك هرب خسرو باشا وغادر مصر إلى  
تركيا !

كانت الجمال ما زالت ترنوى من حضرة البهر . صاح حنحوت وفي عجبانه  
أسرته ، أم الحخير ورضوان ومرسى وزهرة والجميع :

— ماذا عن الدنيا ؟

— تركتها المهالك وعادوا إلى القاهرة . وكان السلطان التركي أرسل إليها  
جديدا ، بعد ستة وعشرين يوما فقط طيروا رأسه بالسيف ورموها من  
النافذة . فوضى وويلات . ثم جاء من تولى يوما وليلة وخاف وهرب ،  
لبطوف المنادى في الطرقات والأسواقى بنادى بالأمان للرغبة بحسب ما رسم  
ابراهيم بك والبرديسى بك و .. ومحمد على ، وأنى أمان ! . هذا آخر علمى  
لأنى بعد ذلك ارتحلت من إسنا للبحث عن شادى وزهادى ، حتى انتهى  
من الحال إلى هذا الجلسة الطيبة

تساب حتى أدمعت عيناه فقاموا للنوم .

)

## التونسي النبيل

في الصباح عاين سر الختم الجمال  
براحة. تركها تشرب وترعى ما شاء لها  
سعب المراحل وأخطرها، تصبح بعض  
وكان تحتوت تأمل حفرة البئر وقد  
يرجاءت! ومن أين تأتي مياه النيل  
شاطر: انه توجد قبة عظيمة في جبال  
برائحة المسك، أحلى من العسل  
حبيب، منها نهران غائران تحت الأرض  
عجم، ونهران ظاهران هما الفرات والنيل  
تعجب سر الختم:

— من أين لك بهذا الكلام!

— من الراوى بمقهى الرميطة أسفل الق  
من ذي وزن. روى لنا كذلك أن أهل السو  
لما توفي نوح عليه السلام وصارت  
عناظ حام الأسود وخرج هائجاً، حتى  
وكان فيها ملك جبار اسمه كركار، له  
وكمال، تعيش في قصر على البنيان متين



(٦٩)

## عن يبحث عن أبيه

فوجدتها في حاجة الى مزيد من  
، لأن الجزء المتبقى من الرحلة هو  
الجمال فيه عرضة للموت أو الجنون  
علا فيها الماء من جديد . دهش من  
كانوا قد تجمعوا للأفطار ، فقال  
لقمر ليس فيها انسان ، يجرى منها  
في لون الحليب ، يخرج من أربعة  
، يسيران بإذن الله إلى بلاد الترك  
ل

لعة ، كان يروى سيرة الأمير سيف  
دان كانوا جميعا من البيض . ذلك  
لخلافة من نصيب سام الأبيض ،  
قادته قدماه إلى أرض السودان ،  
بنت ذات حسن وجمال واعتدال  
الأركان . كانت جالسة ذات يوم

فإذا حام قد أنبل . ولم يكونوا حتى ذلك الزمان قد رأوا إنسانا أسود . ما إن  
رأته حتى أحبه ، وزوجها أبوها منه . فولدت له ولدا أسود ، ثم وضعت بنتا  
سوداء ، ثم ذكرا في لون أنبل . لما كبروا وتزوجوا من أهل المدينة البيض  
كانت ذريتهم سوداء . كبرت هذه الذرية وجاء نسلهم أيضا من السود .  
فصارت البلاد تسمى بلاد السود أو السودان .

فضحكوا جميعا . ثم انهمكوا بصالحون ما تلف من مروج وبعال ، ظلوا في  
ذلك حتى غربت الشمس . وفي المساء جلسوا حول النار ، والسماء من  
فوقهم قبة ضخمة مرصعة النجوم ، والقمر في نصف استدارته . لتأنيبهم  
حالة من التأمل في أحوال الدنيا والآخرة حتى أوغل الليل ، فنهضوا ظالين  
النوم . وظل الشاطر وحيدا يفكر في القاهرة ووطنه ، ثم تذكر زهرة ابنة  
الريس مرسى ، فاستلقى داخل الخيمة يحلم بها .

صباح اليوم التالي كانت الأبل جاهزة لمواصلة السفر . تحملوها بالنظام  
المعهود . ثم تولوا وساروا ، لتمر الأيام مشابهة . ليل بارد ونهار حار بلتهب  
عند الظهر . لا حياة من أي نوع . حتى شعر الشاطر وحنوت وأديس  
بأنهم لا فلاح لهم هذه المفارقة الموحشة ، كان رواجهم من عذاري الشايقة  
أرحم .

ثم تناعت الأحوال عندما اكتشفوا تبخر الماء في إحدى القرب ، بعد  
يومين هاج رجل صغير وجرى ، احتك بجمال القرب فانفجرت سبعة منها ،  
سالت مياهها وابتلعنها الرمال في غمضة عين ، بعد أن فعل ذلك برك  
ورفض النهوض ، فغصب سر الختم وأمر بذيبحه ، فابتعدوا بالقافلة وبقي هو  
مع قلد بود ، وقبلا الجمل بالجمال وهو مستسلم ينظر اليها في هدوء وصفاء ،  
ثم خار بصوت مؤلم ثقائه رمال الصحراء إلى أعواد كبيرة وهو يرى السكين

الحاد يقترب من عنقه الطويل . بعد ساعتين طلبا المساعدة في حمل الحمة .  
وفي المساء طهى قدر به بعضه ، لكن الأصحاب الثلاثة رفضوا تذوقه ،  
بما أكل هادى نراً مسهراً مجاملة . بعد ذلك قطع قدر به اللحم إلى شرائح  
رفيعة عرفها الشمس طوال النهار المال حتى جفت ، ثم راح ينسلي  
وينسلها إلى خبوط رقيقة ، فاعتناط تحتوت ونهره غاضباً :

— لم يكن الجميل مريضاً ، ودعه حرام ، وسيعاقبنا الله !

فأسكنه بسرعة لأن عمه سريع التطير ، وسوف ينشام . لكن الخبير  
العجوز كان قد سمع فداخلته الوسواس من غضب السماء ، ومع ذلك لم  
يرفض طوال الأيام الثابتة أن يخلط نصيبه من الأرز أو العصيدة بقتائل لحم  
الجميل .

انقلب الأيام إلى دهور واختلطت في أذهانهم حتى أنهم اختلقوا في  
أسمائها ، زاد بؤسهم عند مرورهم على آثار قافلة متفرقة ، ورأوا بدأ نافذة  
بين الرمال مصفرة الجلد ، فتقدم سر الختم وهو خاشع وهال عليها الزباب  
حتى غطاها ، وقال متأثراً :

— هتكوا وشم على مسيرة يومين من المياه ، أمر الله نالذ .

ثم نفحص القرب الباقية ، وبدأ عليه عذم الأرنج ، الماء يكاد يكفي  
اليومين الباقيين ، إن صلبى حذسه وكلنا يومين فقط . فعاد بشدد الأوامر :

— الشرب على قدر الحاجة وفي أقصى الحدود ، قل الماء وما من بشر  
قريبة . منذ الآن ممنوع الأرز أو أى طعام يطهى بالماء .

ثم عطى القرب بمزيد من الأعطية كي لا تنبخر ، فشعروا بالخطر  
والعطش ، والقافلة تحب ، وعيونهم مثقلة إلى كل اتجاه بحثاً عن إشارة أو

علامة من علامات الطريق ، خيل إليهم أن دائرة الأثني العبد السامع قد  
أخذت تطبيق رويداً ، وتحول إلى طرف صام بطن حول أنفاسهم  
ويخفهم . صام فديوه من حلقهم جاف طالباً من الله الرحمة واللطف ،  
وشعر الشاطر برحمة ودور لكنه غاسك .

مر اليوم وانقضى الليل في صمت إلا من أبين الشاطر وقد جف حلقه  
وزادت حرارته ، لم يكن اليوم التالي بأفضل إلا توقع نهاية الرحلة ، لكن  
الشمس غربت ومر قسط من الليل ولم تلح طم أية علامة ، حتى تعبوا  
وعثوا وهم فوق الأبل ، ولم تعد عناسر الحتم بقيادة على الرؤية من طول ما  
حلق في الأثني ، فتوقفوا ، واهل الشاطر ينزع وطأة الحسى ، نصبوا خيمة  
واحدة الكمشوا فيها يرعون المبيض ، وقد صار جميع جسدهم ينفخ ، وراح  
يهدي ، ثم ألزقهم ذهب عارياً صوب الرمال صارحاً

سـ زهرة قلعة هناك ، أنا أراها أزهرة !

وكشروا رءاه حتى لمسكوه ، وهو يهذي بكلام مبهم ، عن زهرة اثني  
أحبها .

أخذ صر الحتم بعض الأكتاف مع قليل من الماء ، جعلوه يشربها بعد أن  
تخفوه ، وإذا به نائم يهدأ ، فادشوه بأنطية قبيلة ، حتى تقصد ديراً فديوه  
وخرج صر الحتم وهو يقول :

سـ لمسة المصعراء ألين من ضربة الشمس !

وكان صر في برد منهم رشقة ماء واحدة لئلا ، وشالها عند الصباح ،  
وبها صحة الشاطر للحسن عار فحاة أقوى الجبال ، بعد عار ما تلقى لغير  
سب ظاهر ، فقال صر الحتم في ارتياح :

— أخذ الشر ونهب ، سيخف الشاطر ويعيش بإذن الله .

ووزعوا حمولته على باقي الجمال ، التي سارت مفربة في خطوائها ، وقد نكست رؤوسها من العطش والأعباء ، وحرارة الجو تشد ، ثم تلبدت السماء بالغيوم بشكل مباحث ، وإذا بالعاصفة نهب ، وكأن هذا ما كان ينقصهم ، بعد أن فعلت فعلها تركتهم في أسوأ حال ، وقد جفت قرب المياه ولم يصلوا إلى واحدة أمان ، حتى توقعوا الموت ، وراح كل واحد يذكر أحياءه وخلاته ، ويذات أثمان السراب تطاردهم ، فرأى الشاطر الفاهرة مزدانة يوم وفاء الليل المبارك بمياه الغزيرة العذبة ، واليانا الوالي والمسابيح والأعيان في أيهم ، وبعد كسر السد تدفقت المياه العذبة إلى الخليج لتسبح من فوقه القوارب المزينة بالأعلام والأنوار .

ورأى حنوت السراب بعكس بلذته تله فسانت دموعه حبساً إلى أمه أم الخير وأبيه وضوان وأخيه مرمي وسبلة وزهرة ، ثم رأى مركبهم الشراعي في مودة الخش بالنبأ ، ومويجات المياه من حولها تتلألأ في ضوء القمر المنقضى . وأكثرهم عجباً كان إدريس ، إذ عكس سراه ماضيه عندما كان طفلاً يلعب بين الأشجار في مكان غير واضح المعالم ، ولم تكن أمامه مشكلة ماء أو طعام ، ورأى أعمود الغاب أطولاً من قامته ، ورأى بركاً ومستنقعات بها أسماك تتفاخر . بينما شاهد قدر بود سراً أكيداً بلذته وشم رائحة داره .

أما العجوز سر الحتم فقد كان يدقق النظر محاولاً التحقق مما تراءى له عند الأفق ، كان يرى عقداً من الأشباح تتحرك وكأنها أطياف ، فتهلل وجهه وصرخ :



— قافلة ، قافلة !

فلما تأكدوا هلولوا فرحين ، ثم ضاعفت الفرحة عندما أصرهم بالتراجع  
البنادق والرماح من أماكنها على ظهور الجبال حتى يتأكدوا من سلام القافلة  
القادمة ..

كانت القافلة الغربية قطاراً طويلاً من الأبل المحملة بالمضائق التي  
يحبها الحراس والعبيد ، آتية من مصر المحروسة في طريق عودتها إلى دارفور  
يرأسها الشيخ أحمد بدوي أحد تجار النور ، وكان قد حمل الرقيق والسمن  
والريش والصمغ والتمر هندي والنحاس والقطرون والخلود إلى مصر ، وعاد  
بالأنسجة القطنية والحرير والتبائن والخورج والسروج وبعض الحلى الذهبية  
والفضة والمرجان وأنواع الخرز ، ولذا شتهر حراسه حراهم وسيوفهم ، فلما  
اقتربت قافلة هادي الصغيرة وعابن ما هم عليه من إنياء ، رحب بهم  
وأعطاهم ما شاءوا من ماء وطعام . بعد أن شبع وارتوى سر الختم فهم أنهم  
صاروا على درب الأربعين .

رافقوا القافلة الكبيرة حتى وصلوا إلى بئر ، وأعلن أحمد بدوي أنهم  
سينقضون عندها لمدة يومين ، فارتاحوا جميعاً ، وكان أكثرهم سعادة هادي  
وقافله ، وقد شعروا بالأمان بعد أن أصبحوا في رعاية قافلة عظيمة وعلى  
درب الأربعين المأهول . ثم أعلن سر الختم هادي عن قراره بالعودة مع  
قديروه إلى بلدته صباح اليوم التالي ، فشكره وأجزل له العطاء ومنحه خمسة  
جمال عطية ، وعدداً كافياً من قرب الماء والمأكول ، عند الفجر ارتحل العجوز  
مع ابن أخيه بعد وداع حافل .

لليوم الثاني كان هادي وأصحابه ضيوفاً على مائدة أحمد بدوي . بعد

الغروب جلسوا حول النار ، وكان معه في القافلة شاب صغير جميل الطلعة ،  
سرقوا أن اسمه محمد بن عمر التونسي ، وأنه ذاهب إلى دارفور بحثاً عن أبيه  
الذي طالت غيبته ، فعاطفه مع هادي الذي كان ذاهباً للبحث عن أخيه  
زبدي .

من أدب أحمد بدوي وحسن أخلاقه أنه لم يسأله عن أصلهم والسبب  
في الزج بأنفسهم إلى تلك المفازة ، لأنهم كانوا أقرب إلى الهلاك ، فتركهم  
حتى ارتاحوا ثم سألهم ، فحكوا له حكاياتهم من الألف إلى الياء ، ومن غير  
مودة ولا إيذاء ، فتعجب من أحوالهم ، وأهم أكثر ما أهم زبدي ، نظر  
إليه مشفقاً وقال :

— ذكرت أنك تبحث عن أخيك زبدي ؟

— أتعرفه يا سيدي ؟

— جميع الناس يعرفون أنه في الصيد لا ميل له ، ويصطاد بالبندقية .

— فهل تعرف أين أجده ؟

أنشأ الشيخ بنظرته ، وطال الصمت ، فلما عاد يسأله : قال في  
مهموس :

— اسمع يا زبدي ، سلطاننا المقدي عبد الرحمن ، ويوصف بالرشيد أو  
الرشيد ، هو الذي تسأله عن أخيك ، لأن أخاك زبدي كانت له يد في  
انفراد بهلك دون منازع .

— أخى زبدي سياد وتاجر ولا علاقة له بالحكام !

— قلنا لك ساعد الرشيد في القضاء على الفتنة التي ثارت ضده عند  
بوابه الحكم .

قال هادي فرحاً :

— وطبعاً كافأه السلطان !

— أعطاه مالا وعبيداً وعدداً من حسان الجواري .

ابتهج مع هادي رفاقه خنحوت وادريس والشاطر . اطمأنوا إلى أن زبادي مبعوضهم عما لاقوه من مشاق وأهوال لأنه لا بد يعيش في عز ونعيم وسيجزل لهم العطاء عما زرقه الله وأنعم به عبد الرحمن الرشيد . سأل هادي :

— لكن يا سيدي لماذا لم يعد إلينا أخي ؟ هل استغفاه السلطان ؟

لم يرد أحمد بدوي وقام للنوم . انقضت الليلة من غير أن يعرفوا شيئاً عن محمد بن عمر التونسي .

في الصباح ارحلوا . عند العشة وردوا محلاً به عدة كتيان ومالية ثموم عليها الرياح فتزيدها وحشة . ارناحوا فيه يومين تعمد أحمد بدوي في خلالها أن يعتكف بعيداً عن جملة النساكر الليلة . بذلك لم يتمكن هادي من معرفة المزيد عن أخيه زبادي وعن أحواله وعن السر في عدم عودته حتى الآن وعن مدى حظوته لدى السلطان عبد الرحمن الرشيد !

هنا اتجهوا بأذانهم إلى الشاب البافع الوسيم محمد بن عمر التونسي الذي راح يحكي لهم حكاياته والسبب في غياب والده ، بادئاً من مسيرة جده . كان جده في تونس الخضراء عندما اشتاق لرؤية البيت الحرام ، ونأهب للسفر وأعطاء الأصدقاء أموالاً كثيرة بنجر لهم فيها . ثم أقلعت سفينة بربيع طيبة ، لكن سرعان ما اختلفت الأنواء وأخذتها إلى طريق رودس في عرض

البحر المتوسط ، لعبت بها الأمواج حتى انقلبت وغاصت في البحر الهائج .  
لم يفلت من الغرق إلا القليل كان هو منهم .

مكث في رودس مدة ، نفعه فيها بعض الذهب كان يجنيه حول وسطه ،  
اشترى منه زادا وركب في سفينة أخرى إلى الاسكندرية التي وصلها في  
موسم الحج ، ومنها إلى الحجاز . لما قضى ما وجب عليه من زيارة الحبيب  
تذكر ضياع ماله ومال الأصدقاء ، فخاف العودة إلى تونس ، لأن الإنسان ان  
انضم خونه من كان يأمنه !

واصل محمد بن عمر التونسي حكاياته العجيبة :

خرج جدى من مكة المشرقة إلى بندر جدة . مكث بها ينسخ الكتب  
الأخرى وكان جميل الخط . ثم انفق ان التقى بأناش من أهل مدينة سنار التي  
هي عاصمة الفنج . تودد إليه أحدهم وعرض عليه التوجه معهم إلى سنار  
لأن ملكهم يحب أهل العلم وموفد ينعم عليه ببعض المال والرفيق  
والحصال . توجه معهم وقابل الملك الذي رحب به وأهله جارية هبة غالية  
القيمة اسمها حلبة . أنجبت له ابنة وغلاماً . واستمر بسار ونسى أن له في  
تونس ثلاثة أولاد أوسطهم والذي ، الذي ما إن شب وحفظ القرآن حتى  
حرك شوقه إلى الحج فركب البحر مع خاله إلى الاسكندرية ثم القاهرة  
والقصر . كان ذلك قبل موسم الحج . وبينما هما سائران مع القافلة شاءت  
عجائب الاتفاق أن صادفا قافلة قادمة من سنار بها جدى . حباه والذي  
وغفل يده ثم قال : ألم يحين وقت رجوعك إلى بلدك وأهلك ؟ فقال جدى :  
لك هذا إن شاء القدير ، أنا الآن متوجه إلى القاهرة أبيع ما معى من الرقيق  
وأرجع إلى سنار أخذ مناعى وأسرنى وأنى إلى القاهرة ، وأنى توجهان للحج  
وترجعان إليها فنجتمع هناك ، وكل من سبق صاحبه انظره .

شرد برهة ثم أكمل :

— بعد انقضاء الحج عاد أبي إلى القاهرة فلما وجد أبا ، أعياه الانتظار فتوجه إلى سائر ، حيث وجد والده أي جدي سعيداً في داره مغتبطاً بابنه وابنته من الجارية حليلة . فالتحقني أبي بأول قافلة فجهزت إلى مصر . بعد أهوال وضياح في بحر الرمال وصل القاهرة ودخل الأزهر لطلب العلم . ثم تزوج من أمي المصرية . وبعد أن ولدت أنا وبلغت السابعة من عمري وصلت رسالة من سائر إليه من أخيه عمر الشفيق بن حليلة مضمونها بعد السلام : « إن والدنا توفي فقيراً في أسوأ حال ، فإذا وصلتك هذه الرسالة عجل بالقدوم لأخذني وأختي نعيش بها تعيش منه » . فبكى وأخذته الشفقة وسافر إليها . مكثنا ننتظره سنة باغت فيها أمي الحلى والنحاس . في أثناء ذلك دخل الفرنسي مصر وملكوها ثم غادروها . بعد ثلاث سنوات لم يعد أبي ويلغى أنه انتقل إلى دارفور . سمعت أن قافلة وردت منها فتوجهت إلى وكالة الجلايين لأسأل عنه . لقيت مصافحة سيدي الجليل أحمد بدوي صاحب هذه القافلة التي نحن فيها الآن . قلت يده وسألته عن أبي إن كان يعرفه . أسعدني قائلاً : هو صاحبي ومن أعظم الناس شأنًا عند السلطان ، وإن أردت التوجه إليه فعلى مؤنك لأنه فعل معي معروفًا لا أنساه . فرحت وجعلت أتردد عليه حتى نأهب للرحيل . أفلحنا بالمراكب من القسطنطين ، وفي المساء كنا في مقابل المنيا . وهذه قصتي مع الزمان حتى الآن .

قال حشوت ملهوفاً :

— حدثنا عن المنيا



— كان فيها جماعة من المهالبك أخذونا بالقوة إلى البر ، وأخذوا من الشيخ أحمد بدوي جملة مبالغ ، ومنعونا من النزول إلى المدينة . لكن بالمساء جاءت العوازي ورفصن للمهالبك .

— ليسوا من بنات الدنيا !

— المهم أننا وصلنا إلى ما بعد منفلوط ، ثم سرنا غرباً بقافلتنا هذه حتى الواحة الخارجة . ارتحلنا عدة مرات حتى قابلناكم .

سألوهم عنكم يحكم مصر فقال : ان ابراهيم بك عاد شيخاً للبلد ، عجزوا أضعفته السنون ، ومعهم البرديسي ومحمد علي ، لأن مراد بك مات . وأن بالقاهرة أزمة غلال فظيعة ، لا يحصل الانسان على حاجته منها الا بالموساط والبرطلة أي دفع الرشاوي !

بعد راحة يومين تحركوا ثم استراحوا . وقل أحمد بدوي يتجنب الحديث إلى هادي وأصحابه ، وإن كان فعل ذلك بأدب الكهول !

٧)

## سيرة سلطان الفور

بينما أحمد بدوى يجلس أمام خيمته  
وإستأذن فى الجلوس . أذن له وللشاطر و  
فى سؤاله عن أخيه زبادى حتى بدا البرم  
ثم استخار ربه وقال :

— حكاية زبادى مع السلطان عبد  
من كان على دراية بأحوال بلاد الفور

سمع صوت محمد بن عمر التونسى :

— عين الصواب كلامك يا سيدى  
مادمنامتوجهين اليها

رحب به.

— أنت يا ولدى لا أرفض لك طلبا  
والدك لما كان جزاء له بما صنع معى من

— بالله عليك يا سيدى أخبرنى عن

— اعلم يا ولدى أن اعدائى وشوايى  
الغلمان الأحرار . غضب وقال : تاجر فى

## مع زبادهي المأجور

وفي ظلها تقدم منه هادي ولثم يده  
إدريس وحتحوت . ما إن بدأ هادي  
في عيني الكهل ، صبر على الالحاح

لرحمن الرشيد طويلة ، لا يفهمها إلا

بقول آتيا من خيمته :

. تكرم علينا ببعض أخبار دافور

، فلو أفنيت أموالى كلها في مرضاة  
معروف !

هذا المعروف

ظلمنا إلى حضرة السلطان بأننى أبيع  
فنائنه يفعل هذا الفعل والله لأفقرنه

أحضرنى من دارى ووبخنى بسخيف الكلام ولم يسمح لى بشرح موقفى  
وأمر بوضع الأفعال فى عفى وسجنى . من أعطف الله ان أبالك كان حاضراً  
بالمجلس . ولم يتجاسر أحد على التشفع لى لدى السلطان لشدة غضبه .  
حين رأى والده ذلك تقدم فى شجاعة ونشفع لى حتى أمر السلطان  
بإطلاقى . بعد ذلك ثبت براءتى . فأى جميل أكبر من ذلك ؟ أنا أناجر فى  
الرفيق ولا عيب فى ذلك . لولا أن الملوك والسلاطين والأثرياء من زبائننا  
لأمرت تجارتنا . بونايرته نفسه كان يريد شراء العبيد !

قال الشاطر :

— حدثنا ادريس عن ذلك . سمع به عندما كان مع الفرنسيين ، لكنه لم  
يعرف التفاصيل بسبب جهله بلغتهم . أليس كذلك يا ادريس ؟

أوما ادريس مؤيداً ، فقال أحمد بدوى :

— نحن نكرو المماليك أكثر منكم . كانوا قد ضيقوا على قواكلنا وعطلوا  
تجارتنا ، فلما دخل بونايرته مصر ونكل بهم كتب الله سلطاننا مهنة بالقور  
ويقول دام فضله بعد البسملة : من سلطان دار فور السلطان عبد الرحمن  
الرشيدي إلى المعظم سلطان الجيوش الفرنسية . ألف سلام . أما بعد فتعلمكم  
أن خبر انصارانكم على المماليك وصل إلينا فتلقيناه بغاية السرور ، وأرسلنا  
كتابنا هذا مع خير المرافقة ، وكلفناه أن يؤكد لكم صدق مودتنا التى نسال  
الله دوامها ، ولكم منى ألف تحية وسلام .

رد عليه بونايرته بمكتوب قال فيه : « تناولت كتابكم وفهمت فحواه ،  
والآن طلى إليك أن ترسلوا لى مع أول فاطنة ألفى عبد من العبيد الأشداء  
المتجاوزين السنة السادسة عشرة من العمر ، إذ مرادى أن أبتاعهم لنفسى ،

والأمل أن توعدوا إلى القاهرة بسرعة القيام ومواصلة السير الخبيث ، وهذا  
أمرت بها يلزم حمايتها حيث تكون .

سكت فتردد إليه هادي :

— أن الأول يا سيدي أن نخشى عن أحوال أخى زيادى مع السلطان ،  
فإننا أحببت الرشيد من كلامك .

رد الشيخ في عصبية :

— قلب لك هذا موضوع طويل ومعقد !

قال التونسي :

— هل زدنا على أحوال دياركم ونحن نترجى إليها لأول مرة ؟

— سمعاً وطاعة يا ابن الأشراف .

التفت إلى هادي :

— الآن انبه أيها الشاب لأن ما سأذكره له صلة بأخيك زيادى .

التقط أنفاسه واسترد هدوءه وقال :

— مات سلطاننا الأسبق تاركاً من الأولاد سبعة ، بعد أن جعل ولاية  
العهد لهم جميعاً يتولاهم الأكبر فالأصغر وهكذا ، تولى الثلاثة الأول وقتلوا في  
الحروب ، إلى أن جاء الدور على الرابع محمد نيراب ، وسمى نيراب لأفعاله  
الجليلة ، ونيراب عندنا تعني الحبيب الذى تزوج في القراب ، وهى في مصر  
التقاوى .

فقال حتمت باسمها :



— كان اسمه السلطان محمد تفاوى !

ضحك إدريس وحده . وواصل أحمد بدوى كلامه كأن أحدا لم يقاطعه :

— هجر تيراب الحروب وأقام فى بلده أعرأ ناهياً ، سلطاناً ثلاثة وثلاثين سنة ، عطفوا على المساكين ، محباً للزينة والمهوى والمجون ، رزق بأكثر من ثلاثين ولداً غير الإناث ، صاروا كلما سمعوا بشىء جهل أخذوه من صاحبه وكان ابنه مساعد من عتوه وتجبره لا يركب الخيل وإنما ظهور الأدميين . وأبوه السلطان لا يردعه ، وكان قد ولى المناصب الجليلة لأقارب زوجته حتى صار جميع وزرائه منهم ، فكرهته الرعية . وكان إسحاق أكبر أولاده وأحبهم إلى قلبه ، فجعل له حاشية مثل حاشيته من الوزراء والأتباع ، أبناء وزرائه وزراء لابنه ، وأطلق عليه لقب خليفة لأنه أراد أن يخلفه فى الملك بعده ، مخالفاً بذلك وصية المرحوم والده !

تأمل ملاحع إدريس ولونه مستريباً ، ثم قال :

— فى تلك الأيام طمع هاشم السبعاوى فى أخذ دولتنا ، فخرج له تيراب فى جيش جرار ، كنت أنا وكبار الدولة معه بعيدنا وحرماناً ونرواناً . هرب هاشم السبعاوى وطارده تيراب حتى النبل ، ولولا فشله فى عبور النيل لأدخل منار عاصمة النج . ثم شاع لدى المحمدين أن أخاه عبد الرحمن الرشيد وليس ابنه إسحاق يتولى بعده ، فراح يدبر لقتل أخيه والله يمنعه ، يدعوه لظعام ويدس له السم والرشيد يقول إنى صائم ولا يأكل .

التفت إلى هادى :

— هنا بأنى دور أخيك يا هادى فى جعل الرشيد يتولى الحكم ، هو وشخص آخر اسمه محمد كرا . وكرا بلغتنا الفورية نعى الطويل .

رفع أصبعه بجلد خشنوت :

— ولا تقل ان اسمه محمد الطويل !

ضحكوا إلا هو وعاد يكمل :

— كان محمد كرا وهو مرافق خادماً ثم جعله السلطان نيراب من أهل الحراب ، أي من حرمه الخاص ونسبهم كوروكوا . وكل ملك أو قائد عندنا له مثل هذا الحرس حين يركب وحين يجلس للحكم ، وذلك هبة له في قلوب الناس . نفاني محمد كرا في عمله بحيث أحبه السلطان وجعله أميناً على أسراره ، فحسده الآخرون واتهموه بالخيانة وبأنه على علاقة مع إحدى محظيات مولاه ، وهذه تهمة عفاها القتل . فأخذ كرا سكيناً واختل في حجرة وخصي نفسه ، ثم ذهب إلى السلطان وقال له : هاأنذا خصيت نفسي كي لا ترتاب في اسم سقط مغشياً عليه !

تأمل الاستشعاع في عيونهم ، انهم وقال :

— بسبب هذه الحادثة وغيرها تحالف كرا مع الرشيد ضد إسحاق بن سيده . فلما مات السلطان أفلحت دسائسه وخذعته في أخذ البيعة للرشيد . وضربت طبول الحزن لموت نيراب ، ثم بقت قليلاً وضربت طبول الهدوء للرشيد ، الذي أمر بتوزيع ما في خزائن نيراب من ذهب وفضة وشباب على العلماء والأشراف والفقراء . وكان إسحاق الخليفة الذي لم يصبح خليفة قد استولى على دارفور ، فأمر الرشيد بالتوجه إليه وقتاله ، وأمر على جبل القروج وأخذ الشبان وجمع عرب البادية ، ووعدهم بأن جميع ما يغنمون من مال وسلاح يكون لهم !

صمت لشرب فتساءل هادي في نفاذ صبر :

— وماذا عن أخى زبادى ؟

— استخدم القتال أقل الوقت ، وتقهقر جيش اسحاق ، فاغتاط وخرج  
بقتل نفسه . وكان كل من عرفه بعرض عنه ولا يمه . واستمر التزال أياماً  
دون حسم .

دهش محمد التونسى :

— لماذا لم يقتلوه وهو فى متناول أيديهم ؟

— السبب نحن نعرفه . إذ لا يحق لأحد الناس أن يقتل أى فرد محمى فى  
عروفه الدماء الملكية ، سواء أكان القتل سهواً أم دفاعاً عن النفس .  
نظر إلى هادى مشفقاً :

— كان المحرك زبادى عندما فى هذه الأثناء ، يصطاد بالبنادق ويصيب .  
هذا السلاح غير شائع لدينا حتى الآن . فتجاسر وقال للرئيس : إن أنا  
أرحتك من عذوك اليوم ماذا يكون لى ؟ . رد عبد الرحمن : مائة رأس رقيق .  
فقال أرسلنى فى الحال إلى الأمين رئيس الجيش وسوف ترقى اليوم ما يترك .  
هكذا توجه زبادى إلى أرض المعركة لأجل أن يتم المكتوب . ما إن رأى  
اسحاق وعرفه حتى أخذ عليه النيشان . أطلق بندقيته فأصابه فى مقتل  
وخلص الأمر لعبد الرحمن الرئيس وتوجه إلى تشارلى واستقر بها وأخذها  
عاصيته فصارت تعرف بالقنصر حتى اليوم . لأن القنصر تطلق على المكان  
الذى يستقر فيه السلطان .. هكذا فاز بالسلطنة عضل مكر محمد كرا  
ويندقية زبادى أخيك ا

— فهل نفذ وعده وأعطى أخى مائة رقيق؟

نكس الشيخ رأسه في تحاذل!

— طبعاً لأن الرشيد نجس الرحمن المحيد .. وأعلى من مقام محمد كرا  
وعنه في منصب أبو شيخ أي الوزير الأعظم الأمين على النحاسي .  
والنحاسات هي طبول الحرب عدداً ومن يصيح أبو شيخ لا بد أن يكون  
عصياً لا نسل له حتى لا يطع في الملك . وطبعاً أرسل السلطان الرشيد  
أقاربه المتسربين إلى جبل مرة وسجنهم هناك في مغارات لين يغادروها إلا إلى  
القبر .

فحاصل أحمد بدوي مسرعاً بالانصراف إلى خيمته ، والحضاً إضافة المزيد  
عن أخبار زيادني .

قبل أن يناموا تحدثوا وقتاً فيها حيل من دسائس وغرائب ومسجن جبل  
مرة الرهيب!

## صحة البنات والصل

بعد راحة الابل ارتحلت القافلة عبر  
 تر الزغاوى ، والجو خائق . بركت الجم  
 دين رغبة في الكلام . بينما هم في هذا ال  
 دافور وهو في غير حبور . أخبرهم بأن ا  
 وأنه ذاهب إلى القاهرة لعمل خاتم جديد  
 فصل .

نزل الخبر كالصاعقة على هادى ورفاد  
 زيادى بمرضاة هذا السلطان .

وحزن أهل القافلة وخافوا من وقوع الف  
 عشرة من عمره رغم أنه أكبر أخوته . قال  
 رجع إلى حصافة محمد كرا ، الذى استدع  
 وجلسه على كرسى السلطنة وألبسه الخ  
 المكان بالحراس المدججين بالسلاح ، ثم أ  
 واحداً بعد الآخر ، وأخذ منهم البيعة . ع  
 سا ، فخرجوا عن الطاعة وصاروا ينهبون ال  
 شرمهم . فدعا محمد كرا فقيها من العاملين  
 عمل ، فإذا المتمردون يركبون خيولهم عند



## صيد في الغابات

لصحارى والفيافي . حتى وصلوا إلى  
ال و نصبوا الخيام ، وانتزموا ظلالها  
تراخي ، إذا هجان أقبل من ناحية  
لسلطان عبد الرحمن الرشيد مات ،  
باسم السلطان الجديد ، ابنه محمد

الثلاثة . خشي ألا يحظى أخوه

تن لأن محمد فضل فتى في الرابعة  
الهجان لهم : إن الفضل في توليه  
ي محمد فضل بمجرد موت أبيه ،  
اتم وقلده السيف ، وقد أحاط  
رسل إلى الأمناء والوزراء والمكرك  
رف ذلك أولاد السلاطين الأكبر  
قري ، حتى ثقلت وطأتهم وعظم  
بالسحر ، عمل من سحره ما  
لمساء ، بدلا من الابتعاد اقتربوا

من الغاضب ، ليفض عليهم محمد كرا ويرسلهم بالقبول إلى حبي جبل مرة ،  
ثم أمر السلطان الصغير بالقراءة وطلب العلم ، وجعل لقب قصر  
السلطين .

عند الفجر رحل المهجان إلى القاهرة لصنع ختم السلطنة الجديد ، بينما  
مضت القافلة عدة أيام أناخوا بعدها بسكان ليس بعيد عن دارفور .

في بداية اليوم الأول أرسلوا هجاناً إليها بأوراق إلى الدولة والأهل  
يعلموهم بالمجيء وبسلامتهم .

بعد ذلك استدعى أحمد بدوي هادي وأصحابه الثلاثة . وجدوه مهموماً  
والسيحة في يده . بعد تردد قال هادي :

— اعلم يا ولدي أن أمك زيادي قد ماتت !

بهت هادي . وسأل الشاطر :

— هل أخبرك المهجان بذلك ؟

— بل مات عند وقوع المصيبة التي رويتها لكم ، فهو بعد أن قتل الخليفة  
استحق ، بر الرشيد بوعده وأعطاه مائة رأس من العبيد ثم أمر بقتله !

قال جنحوت محتداً :

— كيف وقد عاونته !

صاح إدريس مستكراً :

— أنا لا أفهم !!

— لأن مفك الدماء السلطانية منها كانت الظروف جريسة لا تغفر  
هذا عرف السلاطين عندنا .

تهدج صوت هادي :

— هذا ظلم وعدو وخسة ، لماذا تركه يقتل اسحاق إذن !

— أخفض صوتك يا ولدي حتى لا يسمعك أفراد القافلة فيشون إلى  
محمد كرا ، وتكون نهايتكم ونهايتي !

أطرق هادي نائحاً :

— فقدت أخوتي في أرض السودان ، يا أروعة أمي !

— الحياة والموت يا ولدي بأمر الله . نحن مؤمنون . أنا لم أخبرك منذ البداية  
على أمل أن يرد لك الرصيد حتى أخيك ، ويعيدك إلى أمك مجبور الخاطر . أما  
وقد مات فالأمر يختلف ، لأن قهر السلاطين محمد فضل صبي صغير ،  
والأمر الآن بيد أبو شيخ محمد كرا ، المخلصي قاسي القلب النأمر ، وقد  
بعثالك وأصحابك !

سأه الوجوم ثم قال هادي في حسم :

— نعود إلى مصر من هنا

— كيف وأنتم بلا خير قوافل ؟

— ففعل بذهب إلى حنفيا بأقدامنا ؟ ما ذنب هؤلاء الثلاثة ؟ ألا يوجد  
عندكم نظام أو شرع ؟

— القضاء عندنا شرعي وعرفي . لشارب الخمر ثمانون جلدة ، ومع ذلك  
وأهلنا لا يقطعون عن تعاطيها . قصاص السارق غرامة ست بقرات أو

نفسها أو الحبس . الخائف يقتل إن كان القتل عمدا ، أو يدفع فدية مائة بقره  
إذا كان من البقرة أو مائة بعير إذا كان من الأبله . الزاني بمحصة غرامته  
مئة بقرات ، والزاني بأربعة أو بكر بقره واحدة . أما الضرب الذي يتبع عنه  
جرح فغرامته ثوب من الدمور ، ونصف ثوب إن كان بدون جرح .  
والسلطان نصف هذه الغرامات ..

لاحظ نفاذ صبرهم فأكمل محبطين :

— لكن كل هذا لا ينطبق عليكم . عندما يتعلق الأمر بالسلطان أو  
رجاله فالنقصان هو الموت ، ولو لمجرد الشك . الحكام لا يقطعون الشك  
باليقين ، بل بالقضاء على كل شخص مريب !

بردت أطرافهم رهبة . بعد صمت ثمين قال أحمد بدوي :

— أرى معكم بضائع مصرية ، وأن معكم بعض المال . نوجهوا إلى  
الفاشر عاصمتنا في هيئة تجار . ولا تخبر بها هاتفي أي إنسان إنك شقيق  
زيادى . هناك لبيع وتشتري ، ومع أول فائضة نعود مع أصحابك إلى مصر  
مجهزين بالخاطر .

التفت إلى إدريس منها :  
:

— وأنت يا ولد لا تقل أنك من كردفان ، قل أنك من صعيد مصر . وإن  
كنت أنك في أنك من كردفان ، علامك شبه أهل السكا .. هأنذا قد  
أخلصت لكم التصح ، اللهم فاشهد .

خرجوا من عنده إلى خيمتهم وكان على رؤوسهم سهم الموت ، وقد تأكد  
لهم أن سلاطين الفور مثل المرء المالك الغز ، الاقرب منهم نكبة .

وأدهشهم أن أوصاف الرشيد تكاد تطابق أوصاف مراد بك هذا اللون ، حتى  
صوته كان أجش مثل صوت مراد . قال جنحوت محظنا :

— ننجو من مكوك الشايقة لنقع في برائن سلاطين الفور !

بعد ذلك ارتحلوا وظلوا مسافرين عدة أيام سفر المجد ، طوال النهار  
وجزءاً من الليل ، حتى وصلوا إلى أول بنر في حدود دارفور ، فأقاموا يومهم  
تماماً . وفي الصباح ساروا نحو أربع ساعات ، وأخبرهم أحمد بدوى بأن  
على جميع الأجانب والفواقل أن يقفوا مدة يومين حتى يخطر السلطان ومحمد  
أبو يعقوبهم ويدفعوا ما على بضائعهم من مكوس .

كان عليهم أن ينفقوا بعد ذلك لأن أهل القافلة لبسوا من بلدة واحدة ،  
وكان على أحمد بدوى أن يتجه معه حاشيته والنومى إلى بلدته ، بينما على  
هادى وأصحابه أن يتجهوا إلى قناتى أو القلشر . لهذا انفرد بهم ناصحاً  
منها :

— عليكم بالترام جانب الحذر في التعامل والكلام . اعلموا أن بلادنا  
مقسمة بأحكام حسب الجهات الأربع ، يحكم كل قسم مفدوم ، له نواب  
وشرائى ، مع كل شرانى عدة دمالج ، والدمالج مثل الضابط عندكم أو  
الفتحق . مع كل دمالج عدة مشايخ بلد . وهؤلاء عليكم أن تحسروهم هم  
والمكوك .

احتار إدريس !

— كيف نعرفهم ؟

— من ثيابهم وزيهم وفزع الرعية منهم . وبالجملة فالغنى سلطاناً كان  
أو وزيراً أو مكنأ يلبس مثل .



تأملوا ثوبيه وسراويله وطربوشه . قال :

— باقى الناس لا يلبسون الا ثوباً واحداً وسراولاً وملفحة ، وعلى الرأس  
طاية بيضاء أو سوداء ، أكثرهم يكون عرباناً . وهؤلاء فقراء لا خوف منهم .  
أرهبوا حجاب حاشية السلطان ، من الوزير الذى يدبر شئون البلاد إلى  
أبو شيخ ، ومك ذوات السلطان ، أى مك العبيد الذين تربوا مع أبنائه ،  
ومك أخواله ، ومك القاضى مدير أمور العاصمة ، ومك الجبة ومك  
الخدادين ، والمباريم أى الأميرات ، والخويات جذات السلطان ، ومكوك  
المجوس ، كذلك رهائن الثواب المسلمين !

رأى دهشتهم فأوضح :

— كل مك يرسل إلى عهده ليكون رهينة عند السلطان ضماناً للولاء ،  
فيجعله فى خدمته ويعوده على طاعته ، ويعلمه القراءة والكتابة . حتى إذا  
مات والده المك أعطاه السلطان كسوة فاخرة وعكازاً مفضضاً وطاقيـة  
منصبة وتعليق وفشارة نحاس ، وولاه بقرمان خاص مكان والده المنوفى  
خذلوا حذرهم من جميع هؤلاء ، ظلمهم حتى معاقبة من يعرضهم وقتله أو  
إرساله سجيناً إلى جيل مرة !

لم يعلموا عن هذا السجن . لكن الشاطر قال فى غبطة :

— كأننا فتران وقعت فى مصيدة اللئام .

— احذر الغضب يا فتى بصوت عال !

ثم عاز أحد يدهى إلى هذوته متلفئاً فى حذر وقال :

— بالأمس دفعنا هدية لنائب السلطان هنا بمناسبة قدومنا إليها  
للتفاد. وإن مد الله في أعماركم فسوف ترون السلطان محمد فضل يوم  
«عيد تجليد النحاس».

ودع بعضهم بعضاً ومضت كل جماعة إلى جنتها. وانجى هادي وأصحابه  
مع الشجيين إلى القاهر، حاملين خطاب توصية من أحمد بدوي إلى صديق  
له اسمه «مدني ود رما» ليقيموا عنده، وهم لا يدرون من مصلحتهم شيئاً!  
بعد سفر وتوجس وصلوا إلى العاصمة. بمجرد دخولهم شعر إدريس  
بأمراته باردة، تذكر عندما كان طفلاً يعيش سعيداً مع عشرته وجاء عمال  
النحاس الأنجاس وخطفوه، وجاءوا به إلى هذا المكان مع عشرات الأطفال  
والبنات وقد ربطوهم بعضاً إلى بعض بالسلاسل في الأقدام، وجروهم وراء  
قافلة سارت بهم في درب الأربعين أربعين يوماً سيراً عدا أيام المبيت حتى  
وصلوا إلى القاهرة بعد أن مات بعضهم، ثم باعوهم ففترقوا على بيوت  
الماليك والأثرياء إلى أن عيل لدى الرسام الفرنسي دينون. حتى اسمه  
اختاره له المملوك فصار يعرف بإدريس فقط من غير أب أو جد، وظل ينادي  
به حتى أنه نسي اسمه الحقيقي!

سألوا عني «مدني ود رما» فوجدوه طاعناً في السن مثل أحمد بدوي.  
سلموه الخطاب فلما قرأه وفهم معانيه رحب بهم، وأقر لهم بيتاً أخذهم  
إليه، ورفض أن يتقاضى أجراً كراماً لصاحبه، فأهداه هادي عدة أثواب  
من صمغ مصر وقطعة حلل ذهبية لأحب زوجاته أو بناته أو حفيداته،  
وبعض الخرز وسبعة مطيعة بالفضة. فرح بها مدني ود رما حتى أنه قال:

— هذه هدايا تعادل ثمن الدار. اعتبروه ملككم إلى وقت نشاؤون

ثم قالوا : بعد ساعة جاءهم عبيدان من طرفه يحملان طعاماً لم يروا  
قبله من قبل . قال أكبر العبدتين بحرية وكيفية : أن هذه الوجبة اسمها  
دوروز وهي ويكة تصنع من عظام العظم والبحر وسائر الحيوانات .

— تقصد من لحمها ؟

— أقصد ما قلت ، وهو أننا نأخذ عظام الويكة والصدر ونجرد ما عليها  
من لحم ، ثم نضع العظام في نحلية ونتركها أياماً حتى تنعش ، ثم نمرحها  
ونهرسها في هاون مع اللحم ، ونجعلها كوراً بحجم اليد يقال : فإذا أردنا  
الطبخ أخذنا بكرة منها ودرناها في الماء ثم صبنا ذلك الماء في القدور ،  
ووضعناه على النار حتى يصير له قوام ، ونضيف إليه بعضاً مقلياً وبعض  
الملح والفلفل .

كانت خديجة الطعام . فقال العبدان الذي سمعها :

— هذا طعام الأحرار وأخصى الناس !

— تريد من الذي اتفرد ؟ فإذا كنت ؟

— ويكة اهدلج . وهي من الشجر الذي يرسه باليد حتى يندوب في الماء ،  
ثم يصفى في قدر ويضع عليه قليلاً من الشحم وما أكله بالخاء والشاء . ولأن  
عبدتي ترى طرائف لوقت الماء تحت هذه الويكة حتى يصير لها قوام لم نضيف  
إليه نحلية ولما أعدنا ماء ، وتركها على النار حتى يحدث الانتزاج انجم  
فما سوف نرول ونأكلون .

— لن نرول ولن نأكل . أبلغ سيديك عظيم امتناننا وأجبره أننا

جوعى !

— أنا لا أكذب على مبدئى وأنتم جوعى .

طلبوا منه شراء بعض الفاكهة ، فحمل الأكل وغاب ساعة ثم عاد مع رفيقه بحمام محمر وفطير بعسل النحل فابتهجوا . قال العبد أنه سوف يحضر لهم ما يكفيهم . كل يوم من هذه الأصناف . بمجرّد انصرافه مع رفيقه اندفعوا يأكلون حتى شعوا ، وكانوا متعبين جداً فناموا .

في الصباح خرجوا يتفقدون البلدة ، جميع البيوت تشبه بيوتهم ، مشيدة من عيدان نبات الدخن ، محيط بكل منها سور من الشوك يسمونه زريبة . بيوت الفقراء جدار دائري فوقه قبة تشبه الفم المقلوب ، مثبت في قمته المستنة ثلاث مضات نعام . بيوت المؤسرين جدار دائري سقفه على شكل نصف كرة محمولة على عمودين أو أربعة فتكون فسيحة . أرض البلدة رمالية يشقها خور يمتلئ بالماء في موسم الأمطار فيشربون منه ، وفي وقت نصوبه يحفرون فيه الأبار . على شاطئه دار السلطان يكسو أعلاها أقمشة غظظة بالأحمر والأبيض ، ذات باب كبير للرجال وآخر صغير للنساء ، يحيط بها زريبة عظيمة من الشوك ، ثلاثة صفوف ، بين كل صفين جذوع خشبية أعلى من قامة الإنسان الطويل . فلم يروا ما بالداخل وخافوا الاقتراب رهبة من الحراس . وخيل إليهم أنهم مراقبون !

بعد صلاة العشاء زارهم مدنى ود رماد وبه خزن وأرباك ، ومعه عبد أحلك من سواد الليل إذا اعتكر . رمقه في غفث وقال .

— هذا العبد لا يعرف من العربية شيئاً ، لكنه ليب بفهم بالاشارة !

شكروه متعجبين من أرباكه ووجوهه وانكسار صوته ، وكانوا عهدوه دائم البشاشة . قبل انصرافه امتدح بدون منامبة السلطان ومحمد كرا !

في راية النارية انفرج بهم بعيداً عن هذا العهد ، وشمس ينصحتهم بالبيع  
والشراء وبالسعي لتقابلة محمد كرام بهدية ثمينة لأنه المتصرف الفعّال في شؤون  
البلاد بسبب خدائته من السلطان محمد فضل فعز السلاطين ا

سأله الشاطر عن سبب خدائهم همساً فنظر في دعر إلى العهد وهربوا  
منصرفاً ! . زادت دهشتهم لكنهم عملوا بنصيحتة وخرجوا وطافوا  
بالأسواق . رأوا معظم معاملات الأهالي بالمقايضة ، والأشياء الثمينة تداع  
بالوقيق ، فيقال هذا الفرس سداسي أو ثمانى ، والسداسي هو العبد الذي  
طويله ستة أشبار . لاحظوا أن الشبان لا يخلقون شعر رؤوسهم وإن النساء  
يصفرنه صفائر كثيرة .

كان العبد الذي يخدمهم يجلس عادة إلى جوار الخائط يراقبهم في  
صمت . أحياناً يعقد مساعدته حول ركبته ويدفن رأسه في حجره مثل النائم  
. ولأن مدني ود رماذ أخبرهم أنه يجهل اللغة العربية فقد تكلموا في وحدته  
دون تحفظ . كان يتركم بالمساء ويعود في الصباح . لا يعرفون أين يبيت ،  
وغاب طوال أول يوم سبت جاء عليهم .

في الصباح الباكر هذا اليوم مسحوا على أصوات طبول . لما ابتعدت  
واصلوا النوم . بعد أن نهضوا وخرجوا وجدوا المدينة خالية تماماً إلا من كبار  
السن وبعض البنات . دهشوا وظنوا أن الشباب امتدعوا إلى حرب ، ثم  
علموا أن السبت هو يوم صيد الوحوش الأسرع . تجولوا والبنات يتلفعن  
إلهم ، ويرمئن الشاطر معجبات بحمائه وبياضه . وكل التي تضع خزائناً في  
أنفها من ذهب أو فضة أو نحاس حسب مستواها . وتعلق فرطاً ثقبان  
وحتى لا يضر أذنهما تربطه بعلاقة في شعرها ، ومن لا تملك خزائناً . تسد



تُحب أنفها بمرجانة أو حبة خمرز ، إلى جانب الكحل والعطر . وأدركوا أن المرأة في كل مكان مبالغة إلى التبرج .

لاحظوا أن أربع بنات ينحنن نحوهم ، منهم الجميلة والمتوسطة والعادية . خافوا وقلوا راجعين إلى البيت ، ومن من خلفهم مضاحكات . ما إن دخلوا البيت حتى اقتحمته ، وأجهت كل واحدة إلى واحد منهم . كانت مفاجأة ليست في الحسبان . وفي المساء كانوا أعدد الشبان .

في زيارته التالية حدثهم ودرماد يشرح لهم أن المرأة المتزوجة هي التي تلف جسدها بعلاءة ، بينما تضع البكر فوطه على صدرها من الحرير أو البسة إن كانت غنية ، ومن الفطن إن كانت فقيرة . وأن المرأة الفورية إذا أحببت شاباً أعطته شيئاً من حليها يلبسه افتخاراً . ومنى ثبت أفرادها مكاناً فبأنبها من نجب وبيت عندها ، لهذا يقع الحمل بأكثرهن ولا عار في ذلك ، وينسب الطفل إلى خاله . فإن كانت طفلة زوجها عندما تكبر وأخذ مهرها أبقاراً وعبيداً وجواري . لهذا فهم على عكس فلاحي مصر يفرحون بولادة الإناث ويقولون أن الانثى ثمناً الزريبة خيراً !

مال ودرماد عليهم هامساً لهم أن الشائعات تقول أن أم بوسة والددة السلطان بها سبق عظيم ، لما نزلت وهي في الخامسة والثلاثين أكثر من عمارة الرجال حتى أصبحت معرض معدا !

ثم أكد لهم في حكمة الشيوخ أن النساء شقائق الرجال والنفس واحدة في الشهوة والطبع . وأهل دارفور لا يستقلون بأمر دون النساء ، لأن المرأة لها باع في كل شيء إلا الحروب !

انتظروا السبت التالي في سوق بالبع ، حتى أن إدريس مال إلى فتاته وتمناها أوجة . لكن ودرماد زارهم فجأة . أخذهم بعيداً عن العبد وقال مريخاً :

— كم يغيظني أمركم . جئتم للتجارة وأراكم لا بعتم ولا اشتريتم . هذا  
يجعل محمد كرا بشك فيكم . إن راد شكك أضركم . نصحتكم بالنهاس  
مقابله ولم تفعلوا ، وهو يتريب في كل غريب ا

اعتذر هادي :

— تروينا حتى نعرف أفضل أسعار البيع وأرخص الثمن الشراء .

— أنا أدلكم . انهبوا السبت القادم إلى الصيد مع الشباب وسنجدون  
ريحاً طيباً بعينه الرحمن . سأجعل أولادى يأخذونكم معهم .

فذهبوا متضررين بسبب ضياع موعد البسات . لكنهم لم يندموا بعد أن  
شاهدوا فنون الصيد . رأوا الأهالي يحفرون حفرة عميقة أطول من القامة ،  
ويدفون في مركزها وتبدأ مذيب الرأس كالفرمح ، ثم يغطون الحفرة بالأعواد  
ضميعة ويحفرنها بالحشائش والثراب ، حتى إذا أنت الفيلة أو بفر الوحش  
ووطئت الحفرة تكسرت الأعواد وسقط فيها حيوان أو الثمن ، ودخل التود في  
جسمه وشل حركته ، إلى أن يأتي صاحب الحفرة ويكمل قتله . إن كانت  
بفرة أخذ لحمها وقوده ، إن كانت فيلا قدد لحمه وباع نابيه لشجار العاج .  
وإن كان خرتيناً أخذ قرنه .

وشاهدوا أعراب البادية يسهفون الزراف والنعام ، ويصطادونها ، لبيعوا  
ريشها ويصنعوا من شحمها سمناً . والغسل موجود في الأشجار لأن النحل  
يعشش فيها .

كان الصيد وفيراً فظل هادي طوال الأسابيع التالية يقاوض بها معه من  
بضائع مصرية مقابل سن الفيل وفن الخرتيت وجلد الزراف وريش النعام ،

حتى صار عنده حمل أربعين حملاً ، سورها في مصر بساوى ثروة . وراح  
وأصحابه يترقبون موعد أول فافلة راحلة إلى مصر بعد حوالي ثلاثة أسابيع .

ثم جاءهم رفيق رحلتهم محمد بن عمر التونسي فرحبوا به ، وكان قد  
جاء إلى القاهر من دار أبيه لتقديم هدايا السلام إلى محمد كرا والسultan  
محمد فضل . قال أنه وجد أمام دار محمد كرا مالا يخصى من الخيل والدواب  
حيث كان مجلس أرباب الدولة معقداً عنده ، فسلم عليه محمد كرا وتلطف  
معه وقبل هداياه ، وبعد ثلاثة أيام استدعاه وكساه كشميراً وقطناً من  
القطن الهندى وأمر له بجارين وعبد .

كل ذلك والعبد الأسود يستمع وعلى وجهه دلائل عدم النهم ..

قال التونسي :

— سألنى أبو شيخ عنكم فقلت فيكم شهادة طيبة . بعد ذلك حظيت  
ببقاء السلطان محمد فضل ، وبينه يقع داخل الزريبة التى رأيتوها من  
الخارج ، أبوابه عبارة عن أعواد مربوطة لندرة المسامير . بعد الباب الأول  
يوجد ديوان السلطان والاصطبلات وبيت طبول النحاس . الباب الثانى  
يؤدى إلى كاتم السر ومجلس السلطان مع خاصته . والثالث إلى حامل  
الحراب ومجلس خواص خواصه . الرابع إلى الطواشى الحصى حراس  
الجوارى . وأظن أن باب الحريم يليه أبواب أخرى ومساكن المحظيات  
والجوارى . ويقال أن بالداخل بناءين من الطين يحفظ فيهما الأشياء الثمينة  
لحمايتها من قرق أى حريق . طبعاً على جميع هذه الأبواب حراس ويوابون .  
والسلطان أصغر منى بعام أو أكثر !

كل هذا يدور والعبد يصغى وكأنه لا يفهم . أخرج التونسي فربما قال  
إن السلطان أعطاه إياه لزيارة جبل مرة . قرأه الشاطر بصوت عال :

— من حصرة السلطان الأعظم والخاقان المكرم سلطان العرب والعجم ،  
الواقى بعناية العدل الصبور ، السلطان محمد فضل المنصور ، إلى جميع  
مكوك جبل مرزا ، أما بعد : فإن السيد الشريف محمد التونسي التمس منا أن  
يرى الجبل وما فيه ويخبر ظاهره وخفيه ، وقد أذن له بذلك ، فلا يمنع من  
عمل يريد النظر إليه ، وأمر كل ملك نزل عليه أن يكرمه ويعظم ملقاه . وقد  
أمرت صحبته بعاجب وترجم ليكرما واسطة بينه وبينكم ، والسلام ...

طلبوا الذهب معه فتردد ، ثم وافق بعد إلحاح شديد على أساس أنهم  
من أتباعه ، لأن اسمهم ليس في القرماني . قبل انصرافه قال له هادي  
مذكراً :

— طبعاً لم نخبر أني إنساك أني هادي أخو زيادي ؟

— طبعاً لا يا أخي ، هذا سر لا يعرفه إلا نحن الخمسة وأحمد بدوي .

وإذا عيا العبد الذي كان يجلس مائتاً لعمعان وتعمان فوزاً .

قال إدريس للتونسي :

— وطبعاً أنا لست من كردفان ؟

فراحت لمعة عبي العبد في فوز وأسرعت أنفاسه انفعالاً ١

(٩)

## تأمر الخصيان على فضل السلطان

بعد يومين توجّهوا إلى جبل مرة حيث سجون أبناء السلاطين المغضوب عليهم ، فوصلوا أطرافه ونزلوا في بلدة طاريس بسمى القفيه ، بانوا عنده وأعظم ضيافتهم ، وفي الصباح زاروا سوق البلدة فرأوا أناسا شديدي السواد ، حمر الأعين والأسنان ، حين رأوا محمد التويسي اجتمعوا عليه منعجبين من أحمرار لون بشرته ، وظلوا يتجمعون من حوله ، ثم تكلموا فيما بينهم بغتتهم ، وإذا الحراس الذين معهم يشهرون السلاح ، سأل عن السبب فقال المترجم :

— نلقه عفتهم يظنون أنك لم تنضح في بطن أمك ، لأنك إذا نصحت تولد في مثل لونهم ، وهم هذا يظنون أن دمك قليل ، وأراد احدهم أن يشت ذلك بطعنك بحربة ، وقالوا إن نأبئك هذا نصيح بعض الشيء !

وكان يقصد الشاطر بسبب لونه الأبيض !

ثم خرجوا من البلدة إلى واد فيه نخيل وأشجار جوز وليمون ، وزراعات نوم وبصل وفلفل أحمر وكسونا وكسيرة وقرع ، وقد طاب البلع أحمر وأصفر وباتوا ، ثم ساروا من واد إلى واد ، وفي كل واد زرع وماء ، وباتوا ، ثم صعدوا ثلاث ساعات حتى علوا الجبل ، فوجدوا ألما كثيرة وبالأدأ متفرقة ، والسحاب لا يرتفع عن الجبل إلا أياما قليلة ، وأدخلهم على شيخ الجبل وهو في خلونه ، وعلموا أن لا أحد يلقاه إلا في يوم معلوم من السنة فيذهب



الخاص إليه ، ليخبرهم بما سوف يحدث لهم في جميع الأعوام التالية ، من قحط  
ومطر وحرب وسلم ومرض وصحة ، ويقولون أنه يعرف ذلك عن طريق  
الكشف لأنه ولي ، وتأتي من ثوب هذه المشيخة يصبح والياً ، والجنان يخبرونه  
أبرزوا له فرمان السلطان ، فدعا لهم بطعام ثم ضرب طبلًا فجاء أناس  
كثيرون انتخب من شبابهم نحو مائة نفر ليصبحوهم حراساً خولاً عليهم  
من جهال أهل الجبل .

ثم ركبوا إلى جبل صغير هو جبل مرة ، فأرادوا مكاناً فيه أنبى بمعد ،  
وجمع أهل الجبل يرون أن حرمة كحرمة المسجد ، له خدم لتظيفه واستقبال  
الزوار ، ثم انتقلوا بتقديمهم الشبان ، فجمع الناس وهم يتصايحون إلى  
السلطان أرسل لهم رجلاً لم ينضح في بطن أمه وأخر نضح نصف نضح  
ضياحةً لهم ، واختفوا إن كانوا آدميين أو حيوانيين على هيئة آدمية ، ولم ينفذهم  
إلا بحى ، الغنى الذي نصحبها بأن يسترأ وجهها بثأماً ، فنعلاً .

ثم توجهوا إلى مجلس الحسى ، إلى الكهوف التي فيها المحبسون من أولاد  
المحكوك والوزراء واللاطين الذين يجلس السلطان منهم على عرشه ،  
لمنعهم الخراس ، ولما قرأ النقيه الفرمان أذنوا للتونسي فقط بالفرجة على أن  
يقف الجميع بالخارج ، فخاف أن يدخل وحده ، وكروا عائدتين وهم يدعون  
أخائهم ألا يكون مضربهم في مثل هذا السجن الرهيب .

وعرفوا أن من عوائد أهل الجبل أن الشاب يترك أمرأته في دار أبيها حتى  
تجبل منه مرة أو مرتين ، فيقال لها ولود ، عندئذ يأخذها إلى داره ويعاشرها ،  
كما أن الصبيان والبنات الصغار لا يستقرون إلا بعد البلوغ ، فوالجس الضمى  
فسيها ، وتشد الأنثى فهاشاً على وسطها ويقي ما غلا السرة إلى الوجه  
سافراً

والشبان في كل بلدة رئيسي وللشابات رئيسة فإذا كانوا في الأفراح والأعياد ، خاطب الرئيس الرئيسة ، فتأمر جماعتها أن يتفرقوا على الأولاد ، فيأخذ كل فتى فتاة ، ويذهبون إلى محل بنامان فيه حتى الصباح ، ولا عار في ذلك على أحدهما .

نما أن الناس لا يخشون على مواشيهم لأن الجبان تحرسها وهي ترعى الكلا ، فإذا راعا صارق بلا راع وأخذ منها شاة وأراد ذبحها ، انصرفت يده بالسكين على نحرها حتى ياتى صاحبها . كذلك يحرس بيوتهم جنى اسمه دمزوق .

لم يصدق التونسي وأصحابه ذلك ، لكن فيما بعد أكد لهم أحد بدوي وجود الدمازين ، وانما تباع وتشترى ونصحهم بشراء دمزوق يحرس لهم مالهم .

بمجرد عودهم إلى القاهر ورجل التونسي إلى أبيه جاءهم رسول من طرف محمد كرا يستدعيهم إلى حضرته . ركبهم الفلج والخوف ، لكنهم اذعنوا للأمر وأخذوا معهم هدايا ثمينه . قابلهم في أبيه وقبل الهدايا اختتم أكثر ما اختتم بهادي . تأمله طويلا ثم قال :

— شكلك بذكرني برجل كان هنا منذ سبعة عشر عاما تقريبا .

راقب اوتباكه . ثم سأل :

— هل لك شقيق أكبر جاء إلى هنا في ذلك الوقت ؟

— ١٧

— كاذب . أنت شقيق زبادي

فشار هادي في الإنكار. لمعت نظرة كرا وطمانته أنه لن يخبر السلطان ،  
لكنه أعلمه بأنه أصدر أوامر إلى جميع المقدمين على طريق درب الأربعين  
بعدم السماح له ولأصحابه الثلاثة بالسفر ضمن أية قافلة .

ثم التفت يسأل أديس :

— من أين أنت يا غلام ؟

سارع حنحوت مجيبا :

— من صعيد مصر ، هو ابن خالتي .

— لكنه أسود وأنت قمحي ؟

— ذلك أن خالتي عندما كانت حاملا به وجاءها الطعام ذات مرة  
توحمت وتمت أن يكون الطعام بالنفل الأسود ، فولد هكذا !

ومعه نظرة قاتلة ثم قال لأديس :

— بل أنت من جنوب بحر الغزال ، شككك بقول إنك من النذكا

صاح حنحوت :

— قلت إنه ابن خالتي .

فرفع كرا أصبعه محذرا لهم جميعا :

— لا تخرجوا من الفاشر إلا بإذني وإلا لحقكم بزيادي !

فخرجوا بأعصاب مرعوفة حتى وصلوا إلى البيت فوجدوا العبد نائما ، بعد  
أن أفاقوا من هول ما حدث جعلوا يقرعون أقدام في أسداس ويسألون عن  
الذي أخبر محمد كرا بالسر

فقال ضحوت :

— لا يعرف سربا سوى التونسي والعجوز أحمد بدوي ، والنواشي واحد  
منها .

فامتد هادي صديقههم التونسي ، وقال ادريس :

— هو أحمد بدوي ، ألا يتاجر في الرقيق !

كان الشاطر أثناء ذلك صامتا يفكر وعيناه على العبد النائم ثم قال  
لهادي :

— ولماذا لا يكون هذا العبد النائم ؟

— صاحب الدار أخيرا أنه لا يعرف العربية !

فإذا الشاطر تخرج ضحوة ، فسأله ضحوت :

— لماذا أخرجت ضحوتك ؟

— لأذبح هذا ، سأذبح هذا العبد النائم بخجري

فإذا العبد الذي قال مغمضا يهب مرغوبا ، ويجري هاربا . جلسوا في  
صمت وسخط ، لماذا يدس عليهم رمادود مدني هذا الجاسوس !

جاءهم في المساء متكبرا ، وقد عرف من العبد ما حدث . شكوا وبكى  
وذكر أنها أوامر محمد كرا ، إن غصباها أرسله وعائلته إلى سجن جبل مرة  
الرهيب

تعبير الشاطر :

— ماذا يريد منا ؟ لماذا منعنا من السفر ؟

أطرق الشيخ . جلس مخبرهم كيف أن الأحقاد بين الأسياد بدأت عندما أقام السلطان الحدث وليمة لكبراء دولته . جاءوا وتفرقوا على الموائد بحسب مراكزهم . جلس كرا مع المكوك . قام السلطان يمر على الموائد يؤانس مدعويه . مر بهائدة المكوك يجاملهم . كان كرا قد أكثر في الخمر ، نسي التمايل ورفع الكلفة داعيا السلطان للمشاركة اعتبرها محمد فضل إهانه طرده بعد أن كسر عصاه على رأسه . خرج أبو شيخ دون كلمة كأنما غله وحفله

قال هادي متهججا :

— فقد الملعون مركزه . هذا من حفظنا من القجر نساقر .

— عاد بعد نومسط الوزراء . وما زال حاقدا . وقاكم الله شر حفلة الخصى !  
— فماذا نفعل ؟

— تفقدوا أوامره ، إلى أن يدير الله نجاتكم ، وقد يسخرني سبحانه لذلك .

صارت أيامهم ثقيلة مشحونة خوفا من أي طاريء . شغلوا أنفسهم بالبيع والشراء . ذات ليلة تسلل أحد الحراس تحت جنح الظلام ، وأخبر هادي أن مراقب سلوك الأمراء يريد . توجه معه بخطو مهزوز ، في الطريق والبلدة نائمة ، عرف أن داعيه هو باسي عوض الله ، وأن باسي بالقورية نعى الطوبيل العظيم . عندما انفرد بهذا الباسي .. عرف أنه أخو محمد كرا .  
امتنع ودار رأسه ، قال له عوض الله :

— أنت يا هادي مدين لي بجميل . كان أخي كرا يريد قتلك فممنعته وأنقذت حيائك . عليك الآن رد الجميل . إن تعاونت معي عدت إلى أهلك



بفطار إبل من مائتي جمل محملة بكل ما هو نفيس في مصر ، بها في ذلك  
الذهب والعبيد . لأنني وفيها سأكون السلطان ، وأخي كرا قائد جيوش  
وكبير ديواني ، إذا كنا لبنا الغلام قمر السلاطين على العرش ، فهناكنا  
المنخلص منه

— ماذا تريد مني ، أعزك الله ؟

— اسمع يا ابن الأصول سلاطينا تجري في عروقهم دماء الغدر أخوك  
زيادى ساهم في تولي عبد الرحمن الرشيد العرش . لكن الرشيد كان خبيثا  
وقتل أمه أبه قمر السلاطين محمد فضل ، الذي وضعه أخى على العرش  
بنفسه كما وضع من قبل والده ، ها هو ذا المنحط يتجرأ ويضربه بالعصا على  
رأسه أمام الخاشية بفعلته هذه صار غدوى ، مثلها هو عدوك منذ القدم .

— كيف وأنا لا أعرفه ؟

— أبوه غدر بأخيك الشرف يدعوك للأخذ بثأره . أتريد أن يذهب دم  
أخيك ههنا !

— ما باليد حيلة

— عندك بندقية لا شبيه لها هنا . وأنت ماهر في الرماية . تحين الفرصة  
واقتل ابن من قتل زيادى . اغسل عارك . ليس غسل العار عندكم في  
الصعيد واجبا .

— كيف وهو لا يخرج !

— سيخرج يوم عيد تجليد النحاس ، طبولنا النحاسية

— سيكون بالساحة خلق كثيرة وجيوش غضب السلطان !

- سألهم سيطرت على الموقف ، ولن تظنونك الخراب

- أنكر

- بل قل موافق . لا مجال أمامك للهروب

خضع موافقا نسل في عتمة الليل ، خائفا من أن يراه أحد من أهوان  
السلطان وجد أصحابه يتظفرونه أمام الدار بعد الخراج قروهم منه وهمس  
بها كان . اغتموا ورفضوا الانغماس في الدسائس !

انتظروا الصباح وقابلوا رماد ود مدني طلبوا منه أن يعاونهم على الفرار  
في طريق غير درب الأربعين . صمت دهر أبيس الأمور ثم قال :

- إذهبوا إلى الغرب ، إلى منار ملك الفنج يكره ملاطبتنا منذ أيام  
السلطان يرباب الذي كان حاربهم وهزمهم وغنم ثعالبهم . من هناك  
تأخذون أول قافلة إلى بلدكم . دعوني أدير والتوفيق عن عند المولى

يوم الاحتفالات ، يوم تجليد النحاس ، تغيير جلود الطبول ، صدر الأمر  
السلطاني بنزع الجلود القديمة فجاءوا بشور وخروف من جبال مرة ، قال  
الناس أنها ما إن شاهدوا السكين حتى ناموا من لقاء نفسها للذبح ، لأن  
الجن أمرها بذلك من اجلد السطوح أعدوا تجليد النحاسات وقد  
اكتظت العاصمة بالأمناء والمقاديم والشراتي والمكوك

في بيت النحاس أمسك أحد الوزراء بضلع من أضلاع الثور ، ظل يحكه  
حتى رق وصار هشاً . عندئذ أتى السلطان منرجلا ، في ثياب بيضاء ملساء ،  
على رأسه كشمير ، وطيأت الساس الأبيض تخفى وجهه وفمه وأنفه وشعره  
عدا عنبه من حوله ملكة الجيوبان أي كبيرة الجدات ، والجوارى في أبي

حلل وحل ، في حماية الخصيان حاملي السباط . أخذ الضلع المش وضرب به  
جلد الطير فانكسر . عدوا انكساره بشير نصر و سلام . زغردت النسوة . ثم  
ضربت النحاسات بحيث سمعت في أرجاء المدينة فاستبشر الناس . وأنهبوا  
لشاهدة الاحتفالات اليوم الأول ، أمام القصر في الساحة المسبحة

خرج ملك النحاس بطيوطهم السبعة على سبعة جمال ، نحاساتهم  
الخمس المديسة ، وذلك التي غنمها تراب من الفج ، وأخرى غنمها من  
أعداء آخرين . ثم ظهر السلطان راكبا بسيفه الذهبي على جواده ، في حراسة  
الكورنكو حملة الخراب المكسوة بالجوخ . الملونة ، مستظلا بمظلة واسعة ،  
ورجلان بحجاب الشمس عن ظهره بمرحلتين عن ريش النعام . عن يمينه  
ويساره العلماء والفهاء والوزراء . من ورائهم ملكة الخيوانات على الجواد ،  
تسبق الجوارى حاملات الأباريق . وأبو شيخ محمد كرا في أمته ونجمته ،  
وعن يمينه أخوه ياسي عوض الله متوثرا .

ثم نوال محي ، فرق الجيش ، كل فرقة يستقها رئيسها على جواد . تقدم  
الأول وحبا السلطان بهز سيفه فوق رأسه . رد السلطان بهز سوطه . تراجع  
لتقدم الرئيس الثاني والثالث ومن تلاهم . بعد إتمام جميع ذلك تقدم محمد  
فضل وطاف حول النحاس ، بهز سيفه فوقها . ثم استعوض الجند ، وعاد إلى  
مكانه ، لتستقبله الخيوية بالرغاريه . أحرأ أعطى الأمر بعودة النحاس وعاد  
بموكبه إلى الدار . فنفق الجند إلى بيوتهم ، انتظارا لتكرار هذا الاحتفال ست  
مرات أخرى ، ليكون عدد الاحتفالات سبعة بعدد النحاسات .

في شغف وقبول تفرح هادي وحنوت والشاطر وإدريس على  
الاحتفال . كلما نظروا إلى ياسي عوض الله ضاعت بهجتهم . بعد أيام  
حضروا الاحتفال الثاني ، وكان مثل الأول . وكل حي يتلفت عوض الله إلى

هاتين بطمن على وجوده مطلوب من هادي أن يقتل السلطان في الاحتفال  
الثالث.

في الصباح دارهم مدني ود رماذ أخبرهم أنه اتفق مع خير قوافل عجوز  
أمين يعرف الطريق إلى مسار تمام المعرفة طلب من هادي مالا كثيرا لشراء  
عشرة جمال لحمل تجارتها عليها ، إضافة إلى جماله الأصلية خططا أن يكون  
رحيلهم يوم الاحتفال الموعود ، وقت تجمع الناس في الساحة ، فيخرجون  
دون أن يلحظهم أحد ، خصوصا والدار على أطراف البلدة ، ليكبوا مزيدا  
من الوقت ، لأن كرا سوف يبحث عنهم في درب الأربعين

في ليلة تنفيذ المؤامرة اجتمع بأسى عوض الله هادي وأقربيه المطلوب  
منه بعد ساعات ومع شئسفة الضجر ، وعمل الخبير العجوز بالجمال ،  
واسأذن منهم بعض الوقت لاستطلاع الطريق انتهكوا في تحميل الجمال  
بإطاء والطعام وجميع المستلزمات ، من ريش نعام ومن القيل وثراب التبر  
وغيرها . انتهوا من ذلك على أحسن ما يكون ، ولم يعد الخبير . فخافوا أن  
يكون قد تراجع ، أو أن يكون عمال محمد كرا قبضوا عليه .

كان الخبير قد ذهب يستطلع مخارج الدروب وحراساتها وجد طريق  
الشرقي المؤدي إلى سنار في حراسة لا تقل عن حراسة درب الأربعين المتجه  
شمالا إلى مصر . لم يعد أمامه سوى التوجه بالمقافلة جنوبا إلى حفرة النحاس  
ثم شرقا إلى سنار ، ومن باب الحذر يسلك من درب حاسي عاد وأخبرهم  
بوعورة الطريق الجديدة لما تراجعوا ، وأخذوا يوقنون الجمال الموصفة

عندما نشطوا وهما بالتحرك وصل الشيخ مدني ود رماذ يودعهم . ظل  
واقفا يتابع ابتعادهم ، متنبيا لهم السلامة في الدروب المهجورة . ثم سارع إلى  
ساحة الاحتفالات . وشن طريقه بين الجشود ، إلى أقرب مكان من كرا حتى

يراد وقف في هدوء يرقب ما حوله ، أحياناً كرا في كل مكان ، وبأسمى عرض  
الله في ثبات ، كل شيء سار على أكمل وجه ، اغتال أكثر المكون المعارضين  
ولم ينصح أمره ، إلا ملك النحاس إبراهيم ودرماد ، والذي لا يست بصفة  
قراءة إلى العجوز الطيب مدني ودرماد ، أفلت من القتل لكن ثبات عوهر  
الله تحول إلى قلبي بادل أحياه نظرات النور ، كل شيء جاهز ، لكن رامي  
الهندية غائب .

انتهى الحفل وانصرف الناس والجناد ، دخل السلطان داره ، ولم يظهر  
هاتفي جن جنون كرا زاد جنونه عند اكتشافه هرب الأربعة الغرباء  
أسرعت هجينة إلى درب الأربعين ثم إلى باقي المسالك ، وما عثر لهم على  
أثرا

أما ملك النحاس فقد ذهب إلى السلطان وقال له :

— أعلم أن كرا يسعى إلى دمارك وتولية أخيه مكانك .

طالبه محمد فضل بالبرهان فقال :

— ترسل بعض العساكر إلى الأبار التي يستقى منها وتضع عيده من  
ورودها ، إذا جاء شاكيا كان لا يزال على الولاء

وهذا ما كان توجه عسكر السلطان إلى الشر منعوا العبيد من الأرتواء  
علم كرا فجمع رجاله وقتل عساكر السلطان ، ثم تقدم إلى منزل محمد فضل  
ودخله مخاربا ، وكان ملك النحاس إبراهيم ودرماد قد أخذ الجيوش في  
انتظاره ، فاقبل الفريقان إلى ما بعد العروب ، وعندئذ نادى ملك النحاس  
مخاطبا كرا :



— حدثنا أنك امرأة ، لأنك لو كنت رجلاً ما قلبت الحرب لئلا يلا مبعاد !  
فأجابه :

— كنت نويت ألا أخرج من هذا المكان حتى أقتلك وأخلع سندانك ،  
أما الآن فقد قلت أنني فاجأناك لئلا يلا مبعاد ، فلاننى صباح الغد فى ساحة  
القتال شرق المدينة !

قال ذلك وانصرف إلى داره ، وكان خطأ كبيراً منه ، فلم يمتصرف لخصار  
أخوه السلطان الجديد فى هذه الليلة !

كان فى جيش السلطان رجل كهل مشهور بالفروسية والاقdam اسمه  
«أحمد ود جراب الفيل» ، أبلى بلاء الأبطال فى الحروب السابقة ، رأى القتال  
مع كبر ولم يبذل جهده أو يشارك ، فلما ملك النحاس قال :

— أصبح أن تقرأ الشرائع بهيمة وليس رفيقاً فركت القتال ؟

فقال ود جراب الفيل :

— أئتى يقال هذا الكلام ؟ قال فى برأى أحزاب ؟ بسيفى وقد صادروه  
ووضعوه فى خزانة سلاح السلطان ؟ أم بحصانى هذا النحيف الضئيل  
بالنحلة ؟

فأمر محمد فاضل بإعادة سيفه إليه ، ثم أمر بإحضار الخيول ليختار منها  
جواداً يعجبه ، فكان ود جراب يقبض على ناصية الجواد ويكذبه بيده وهو  
جالس على الأرض فيخر الجواد على ركبته من قوة الجذب ، إلى أن قبض  
على جواد وجذبه ففعل الجواد رأسه ، ورفع ود جراب الفيل حتى أوقفه على  
قدميه ، فقال فوجأ : هذا جوادى الذى أرتبه . ثم استل سيفه وقبله ونظر إلى  
أم بوسة والدة السلطان وقال لها :

— أعلمني أن دارفور تكون بيد بلدك لا يبارعه فيها منارع قبل ظهر نهار

غدا إن شاء الله

فخرج منك النحاسي بذلك ، وكان له ثلاثون ولدا من صلبه راكبين الخيول  
كاملي العدة ، أحضرهم إلى ود جراب الغيل وقال له :

— أنت رئيس أولادني هؤلاء ، وأريد منك قتل محمد كرا غدا

فلما كان صباح الغد برز ود جراب الغيل ومن معه من جماعة السلطان في  
ألف كثيرة قاصدين كرا ، اعترضهم أخوه ياسي عوض الله ، ونشبت الحرب  
بينهم ، فلما كشفت جماعة السلطان ، وخافوا على نفسه وانعد في الليل توقف  
القتال وخرج محمد كرا يتفقد حال رجاله فوجد أخاه ياسي عوض الله قد  
قتل في الحرب ، فحزن وبكى وقال :

— لمن أقاتل وقد مات أخي ؟

ثم قال لمن حوله :

— لن نقاتلوا غدا بل ادخلوني في الحرب وانجوا أنفسكم

فحين شاع ذلك فرتب جميع عساكره ، ولم يبق معه إلا ذرو قريبه في نفر  
يسير يبلغ عددهم الألف أو أكثر بقليل ، فلما أصبح ضربت طبول الحرب ،  
وركب جماعة السلطان ، والتحم القتال ، وخاض محمد كرا ضد جماعة  
السلطان ، واخترق الصفوف حتي لم يبق بينه وبين محمد فضل أحد ، ولما  
أراد قتله لفعل ، ارتعب الغلام ، لكن كثيرا تذكر معروف الرشيد فضع يده  
عنه ، ووقف أمامه برهة وقال :

— يا ابن القاعة ، أيتكون هذا جزائي معك وتسمع كلام الناس ؟

ارتعب محمد فضل وصاح :

جاء بقلبي ، جاء بقلبي !

فسارعوا لجدته ، وأحاطوا به ، ولم يجد محمد كرا معينا ولا مساعدا ،  
فدنا من حسب طاقته ، وقتل عدة أبطال ، وجرح جروحا بالغة فلم يكثرث ،  
حتى تمكنوا من غفر جواده ، فرفع على الأرض ، ولم يستطع النهوض ثقله  
لأنه كان لابسا درعين من الحديد ، فتكاثروا عليه بالرمح والسيوف حتى  
مات ، بعد أن جردوا عنه درعيه أحصوا في جملته ما بنف على مائة جرح !  
ثم استولى السلطان محمد فضل على عبيده وجواريه وماشيته ، وكان شيا  
يفوق الحصر (١).

عند ذلك خاف العبد الجاسوس الذي كان مدموسا على هادي  
وحتوت والشاطر وأدرسي ، وذهب إلى ملك النحاس وأبلغه أن هادي هو  
شقيق زيادني ، وأنه كان متواطئا مع محمد كرا وباسي عوض الله ، فأمر  
السلطان بإحضاره وأصحابه الثلاثة حينما يكونوا بكامل أبدانهم إن كانوا  
أحياء أو برؤوسهم مقطوعة .

---

١١١- علي محمد كرا إلى أواخر عام ١٨٠٤ وألحق محمد فضل منصبه الأوضح بعد ذلك - وزيادني القاضي  
المصري شخصية غامضة المعلومات عن زافونية ، لكن الثالث أنه قتل أسحاقي لحساب الزعيم الذي  
قتله بعد ذلك

(١٠)

## بعض المباح في أرض الرماح

أما هادي وإدريس والشاطر وحتوت فقد قادهم الخير متجهاً جنوباً ، متفادياً نقاط حرس السلطان ، حتى وصل إلى قرية صغيرة اسمها دارا ، بها أكواخ من القش وعيدان الدخن ، ثم اجتازوا سهولاً وودياناً وواصلوا السير أياماً ، ولم يتوقفوا إلا للإراحة الأبل والنوم ، والارتواء من أبار الطريق ، وأحرها اسمها بئر الأقدار ، وبعد بئر الأقدار ، صارت الأرض خصبة لكنها غير مستغلة .

بعد مشقة وعناء وإمراع وإبطاء وصلوا إلى حفرة النحاس ، ومن حولهم جبل وبحيرات صغيرة ومستقعات ترتفع على شواطئها التماسيح وأفراس النهر ، ولم تكن حفرة النحاس سوى صنف من المناجم ، وعدد من الحفر الضخمة حفرها أهل المنطقة لاستخراج النحاس ، وما عدا ذلك تراب وتلال ، فاقرب الشاطر من إدريس وسأله مازحاً :

— ها هي ذي مدينة النحاس ، فأين الكنوز والجواهر والماس التي حدثتنا عنها أيها اللبيب ؟

أجاب مكابراً :

— هذه اسمها حفرة النحاس وأنا حدثتكم عن مدينة النحاس .

ثم ضحك كاشفاً عن أسنان بيضاء أضاءت في وجهه الأسود البديع . ثم

ساروا حتى اقتربوا من منطقة المستنعات التالية ، فأوقفهم الخبير وأخرج  
زراعة ممثلة شحماً كانت على جملة ، وراح يدهن وجوههم وأيديهم وكل جزء  
ظاهر من أجسادهم بهذا الشحم ليقيهم من لدغات أسراب الذباب القاتل  
الذي يصيب الإنسان بمرض الموم الأبدى .

واصلوا التقدم مسافة قصيرة ، وإذا بالذباب بهاجم الجمال ويخط على  
أبدانها ، يلدغها بلا هوادة ، فمات منها ثلاثة ورعوا أمثالها على باقي الإبل ،  
قلوا يفلدون الجمال ، حتى نامت الباقية بالأحمال ، فأرهقت وتعثر بعضها  
ولم يهض حتى تسق ، وفي النهاية فقدوها جميعاً فوقفوا بالسير لا يدرون ما  
العمل وكيف التحرك ؟ ونظروا إلى الخبير العجوز ، فما كان من إلا أن قال  
قائلاً مشيراً إلى الشرق :

— أمرنا إلى الله ، اتبعوني ، نسي حتى يضر على بعض الأهالي نستأجر  
منهم أبقاراً تحمل البضائع ، الحشرة الملعنة لا تصيب البقر لا تخافوا على  
أعمالكم ، لا أحد هنا يسرقها .

فسيبوه شرقاً للابتعاد عن أسراب الذباب الضال ، لكن الشاطر استدار  
عائداً إلى الأحمال قائلاً :

— على الأقل نحمل الضرورى ، نأخذ معنا السلاح والبارود والمساحيق  
والأعشاب الطبية .

فأعجبوا بفكره ، وأخذوا البنادق والعدلات والبارود وساروا نحو  
الشرق ، وهم في ضيق من الشحم الذي دهنوا به أنفسهم والذي أفلح في  
إنقاذهم من اللدغ ، والمستنعات من حوافهم كثيرة وكأنها لا تنتهي . ثم  
تلبدت السماء وأرعدت وأزيلت وبلاً من الأمطار ، أزلت عنهم



معظم النجم ، أحسوا بالانتعاش والنشاط رغم التعب ، وتقدموا حتى رأوا  
 ممر يخرج من المستنقعات وكأنه كان مخبئاً فيها ، فساروا في مخاضاته ،  
 وأقدمهم تغوص في الطين ، وواصلوا المشي حتى مالت الشمس إلى  
 المغرب ، فجاهدوا في السير حتى وجدوا رقعة جافة ارتقى عليها العجوز  
 منهكاً وقال :

— نيت هنا !

بدلوا جهدهم في جمع بعض الأفراد الجافة ، أوقدوا النار ، وجلسوا من  
 حوها ، سرعان ما غلبهم النعاس فناموا نوماً عميقاً ، بعد وقت قليل أو قنبر  
 استيقظ الخبير على يد تنوء ، فنهض وأيقظهم ، هبوا فرعين ليجلوا أنفسهم  
 محاصرين بدائرة من رجال سود طوال ، لهم أكتاف طويلة ووجوه في سواد  
 نحاسي أقرب إلى لون إدريس ، وجميعهم شاهرون الحراب الطويلة ذات  
 الأسنة الحديدية . حاول الخبير أن يتفاهم معهم بلغتهم ، وقد أدرك أنهم من  
 قبائل الدنكا ، فلم تسعه الكلمات القليلة التي يعرفها من لغتهم .

أما إدريس فقد بقي شاكساً إليهم ، شاكراً بأنه منهم وأنهم عشيرته ،  
 لأنه تذكر عدة كلمات غائصة في ذهنه منذ الطفولة ، كان مازال يذكر كلمة  
 والد وأم وأبي وماء وبقير وغيرها ، فراح يحاول التحدث معهم . حملوا فيه  
 منهشين . وجدوا ملاحه تقرب من ملاحهم ، اندهشوا وأشار زعيمهم  
 إليهم أن يتقدموا ، فأطاعوا إشارته وساروا وهم في حيرة من مصيرهم ،  
 وأخذوهم بين الأعشاب الطويلة في طريق متعرج نقل فيه الأرواح ، وفضوا  
 بهم شوطاً من الليل حتى أنهم فقدوا الاتجاه ، ولم يعرفوا إلى أين يأخذونهم ،  
 وهمس خنخنات للشاطر :

سمعا السائق وبإمكانات الخنصر منهم .

— دع العنف عند البأس .

سمعهم إدريس فقال في ثقة عجيبة :

— لا تخافوا ، الدنيا طيور ومسلمون وسيفدون لنا العون متى تأكلوا  
من حسن ثوابنا .

ثم تقدم من الزعيم محاولاً التحدث معه وإفهامه أنه منهم ، لكن الرجل  
لم يفهم قصد . بعد ساعة وصلوا إلى قرية صغيرة . صدرت أصوات خاصة  
من بعض المرأة الجماعة ، وإذا أهالي القرية ينهضون ويخرجون من بيوتهم ،  
ويأبذى الرجال حرايب طويلة . فتقدموا والأطفال والنساء يتأملون الزعيم  
الناشئة ، حتى وصلوا إلى رجل عجوز وقور تفحصهم ملياً على أنوار النيران ،  
ثم تكلم بعبارة واحدة منتضبة ، فأخذوهم إلى كوخ منين ودخلوهم وأغلقوا  
الباب عليهم . قال الشاطر :

— لا بأس حتى الآن ، وإن كنا قد فقدنا ثروتنا .

رغم حيرتهم وفلتهم اقترشوا الأرض وناسوا ، حتى جاءهم في الصباح من  
أنظفهم وأشدهم إلى النبح المجمل عندهم ويسمى « بين بينا » أي زعيم  
الروح المقدس ، وكان جالساً بدخس وإلى جواره ربح منه المعدنى عربض  
ويحاكى ورقة الشجر العريضة ، وهو القاصى والزعيم الروحى والمسيطر على  
السئون الدنيوية ، والحافظ لطقوس جنب الأمطار . مع أن المطر عندهم  
وفير ، وكان يجلس عن يمينه ملك البحر الذى قبض عليهم ، وهو الذى  
يحرس البحر ويدافع عنها وعن القبيلة ، وعن يساره ملك الدرة الذى يحبس

المحصول من عدوان الطير والجراد . أما ملك السمك فلم يكن موجوداً لأنه  
كان قد خرج من الصباح الباكر مع الصيادين لتصيد ... وثقوب رموس  
الجميع كانت تعويذتهم مرفوعة وهي السلحفاة ، وهي شعارهم المقدس !

اشترك الخبير مع إدريس في محاولة التفاهم معهم . أراحهم حائل الريح  
المقدس وخاطبهم بالعربية ، فعرف حكايتهم وصدقها ، وأرسل معهم ملك  
البقر وعدداً من أتباعه ومعهم عذة أبقار حيث توجهوا إلى المكان الذي  
تركوا فيه أحلامهم ، وعادوا بها بعد أيام سليمة ، وخزنت في مكان خاص . ولم  
ينس هادي أن يوزع الهدايا الثمينة على الرؤساء من أقمشة وخمر وخلافه  
لأنه لاحظ أن الرجال إلى جانب شجاعتهم يخشون النرين أكثر من النساء ..

ولأن الأمطار لم تتوقف إلا لتسقط من جديد ، فقد توحلت الأرض  
ورادت المستنقعات ، وصار من المحال الانتقال إلى أي مكان ، فكان عليهم  
البقاء حيث هم . فمرت الأيام وإدريس يزداد معرفته باللغة حتى قارب أن  
يتفنها . وكأنها كانت منسوبة لديه وتذكرها ، وصار يحفظ أسماء قبائل البدنكا  
من «بور» أي المغمور بالماء ، و «علياب» قرب بحر أجيل ، و «أجار»  
غرب بحر النعام وغربها ، و «الغالوال» حيث بلجاون ، وكل قبيلة مستقلة  
في حياتها عن الأخرى وعم فجاورهم ، ويعتمدون على الرعي والصيد  
بالحراب ، ومنهم من يجيد استخراج خام الحديد وهم عشائر الحدادين .

لكن الصخر الأكبر عند البدنكي هو اقتناء البقر ، فهي مقياس ثروتهم  
ومبعث فخارهم وعماد مركزهم في العشيرة ، وبها تدفع المهور للزواجات ،  
وتدفع الدية ، وهي الشيء الوحيد الذي يحسد عليه صاحبه ، ويحصلون  
عليها بالمقايضة أو بالاعارة ، ويبون من أجلها أكثر ما أضخم وأعظم مما

ينونه لأنفسهم وتسمى لوبك ، ودخل الثوالث نبت الحاشية وسط المزارع  
والخشاش ، أما في موسم الجفاف في نهاية العام تنتقل العشيرة إلى حواف  
الجدول أو الأنهار المملوءة بالماء ، حيث تعيش مع قطعانها في أكرام مؤقته  
في العراء فيعيش الرجال بالقرب منها حول النيران المؤقده من رؤيتها لكي  
يطردها عنها البعوض .

ينهاهم في راحة ودعة ومثل وسام ، إذ تعالت أصوات عميرة ، تنقلت من  
مكان إلى مكان عن طريق رجال متاعدين ، غشيين بين السفانة وأعلى  
الأشجار ، حتي وصلت إلى القرية ، بعد أن قطعت مسافة طويلة تعادل  
سبعة أيام على الأقدام ، وكانت ترجح هذه الأصوات ان جيش سلطان  
دارفور في الطريق !

على الفور تشاور زعميهم الرمح المقدس مع ملوك الذرة والبقر والسمك  
للتنظر في الخطر الطارئ ، وقد ظنوا ان الفور يريدون خطف أولادهم  
وبنائهم لبيعهم عبيداً ، رأوا التحالف مع العشائر المجاورة لصددهم ، أو  
الفرحان بعيداً خاصة أن موسم الأمطار في انتهاء وفي الوقت نفسه تشاور  
هنادي مع الشاطر وحنوت واندريس وقد فهموا أنهم المقصودون من رجال  
دارفور ، ومن الواجب عدم تعريفه الدنكا للخطر بسببهم بعد أن أروهم ،  
وهنا قال الشاطر لهادي :

— يسكننا مقاتلة الفور حتى لو كانوا النمل .

— نحن الأربعة !

— العقل يغلب الكثرة .

لم ان اندريس توجه إلى الرمح المقدس وطلب منه معرفة عدد الغزامين ،

وعلى الفور أصدر رجل الاتصال أوصافاً معينة سمعها الثاني له فتلقاها إلى  
الثالث ، حتى وصلت إلى المخى ، فوق الشجرة التي يمر عندها الفور ،  
فظل يحصى عددهم على وجه التريب ، ثم قام بالتبليغ بأوصاف طيور  
الأحراش وحيواناتها ، وكان العدو لا يفل عن الماشي . وعندئذ قال  
الشاطر :

— سنوقع بهم .

احتج الحبر مستكراً أن يتصدى أربعة شبان وعجوز ثالثة مقاتل ،  
وتلك إدريس بقى في دهاء الشاطر ، فقام وأبلغ حامل الرمح المقدس برغبته  
هو وأصحابه في الإيقاع برجال محمد ففضل . نردد وقتاً ثم وافق عندما رأى  
أسلحتهم النارية ، ودعا إلى الصلاة ، فجاء الكاهن وقدم القربان إلى الآله  
« بهالك » آله جميع الدنيا قائلاً :

— أنت أيها الإله الأكبر بهالك ، أيها العلى الأعلى الذى مسكنه فى  
السماء ، أنت يا من يرسل السحاب ، ويا من يهب على الأمور العظيمة ،  
أنت خلقتنا وأثبت بنا ووهبنا الحياة ، أنت وحدهم القادر على رد الفور ، إننا  
نقدم لك هذا الذبيح ، فاقبله منا مقابل ما وهبتنا من حبر وبعير . وامحنا  
النصر من عندك أيها الواحد الأحد .

ثم أرسل الرمح المقدس معهم عشرين من أقوى رجاله ، حاملين  
رمحهم الطويلة لأنهم لا يتقاتلون إلا بها ، ولا يعرفون السيف أو النمام ،  
وساروا مدة يومين حتى وصلوا إلى منطقة أرض مرتفعة وجافة ، عندما تأكله  
الشاطر أن الفور لابد أن يكون منها ، أن أنصة تعلم عن الأرض يصف الخمر ،  
وجمع أسفلها أعواداً جافة وأوراقاً ، ومن فوقها حصرة كبيرة مملوءة بالبارود ، ثم



جلس مع أصحابه في هدوء ، والدنكا لا يشبهون قصده ، وأصحابه يشعرون  
الملاح لحبته وإلا كان الفناء لهم وللعشرين دنكاوي المرافقين !

عند المغيب جاءتهم الأخبار بقرب وصول الفور ، فجعلهم يقولون عن  
بعد بحيث يكونون ظاهرين ، وبقي هو قرب نصبة البارود ، وما أن أهرت  
فروع الأشجار والسنانا وظهر أول الفور ، حتى صاح فيهم بصوت عال  
منفرا :

يا جناء ، سوف أرسلكم إلى الجحيم !

وقفوا ينظرون إليه في استغراب ، ولما رأوا عدد أصحابه قليلا تخلصوا من  
جمودهم وضحكوا ساعرين ، فما كان منه إلا أن حرك جزئي القنطرة وأمسك  
الشار أسفل النصبة ، ثم سحب منها إلى جماعته .

تقدم الفور في حيرة من أمر النار والصرة والنصبة كلها ، ظنوا أنها أحد  
الحبل البحرية ، وعندما اقتربوا منها تقدم أشجعهم يعلق في النصبة ، فلما  
لم يجد تعريشة أو كتابات سحرية ، ولما لم يحدث له أي ضرر تقدم الباقون في  
فضول ، بينما كانت النيران تعلو ، حتى سخن البارود وكانوا أقرب ما  
يكون ، وعندما انفجر في دوي رهيب أخرج الطيور والخيرانات القريبة ،  
ونثر رجال محمد فضل في الهواء مثل الطيور المصابة ، مات وجرح منهم  
الكثير ، ومن نجوا فر وكان إبليس يطارده ، وهرب الخبير !

لما الدنكاويون فإنهم لما سمعوا الانفجار جروا متعدين ، ولما وجدوا  
رفاقهم لا يخافون وقفوا متدهنين يشاهدون تماثيل السلطان ، فلما  
عادوا إلى القرية حكوا عما شاهدوه والجميع لا يصدقون ، وظنوها من أعمال  
السحر ، وقال الرمح المقدس :

— بل هي بركة ربنا هيا لك . ولكن قد يعاود الفجر الكرة لأنهم غناه !  
قال الشاطر هادي :

— بالتفكير والسلاح الحديث رأيت أنا وحتوت الفرنسيين هزمون  
جحافل المهالك الغلاظ .

وكان الرمح المقدس قد سمع عن الأسلحة النارية عندما كان يخرج من  
صغره مع قوافل التجارة ، خاصة إلى شتدي بوابة السودان ، ولهذا تعلم  
العربية وكان سمع عن البارود من حكايات التجار ولم يره ، وفاته من  
مبائعات السكرى في مشارب البوطة ! . لكنه أمر بتعليم ذبحة إلى الآله  
هيا لك ، ثم أمر بإقامة احتفال عظيم ، رقص فيه الجميع وشربوا جمعهم  
الخاصة ، وناموا سعداء . والذي حبر هادي وحتوت وإدريس والشاطر أن  
الوليمة الكبرى لم يكن فيها لحم وشم وفرة القر ، أكلوا أسماكاً وطيخاً من  
الدرة وأنواع نباتات أخرى لم يعرفوها ، واقتصدوا اللحم ، ثم عرفوا أن  
الدنكاوي يحب بقوته ويحادثها ويتحدث عنها ويعطيها أسماء مثل اسمائه ،  
لأنه يجعل عدة أسماء ، اسماً وهو طفل ، وإذا كبر اختار لنفسه اسماً آخر ،  
وما أن يبلغ سن الفتوة ويمتلك عجباً حمل اسماً جديداً يطابق اسم العجل ،  
ويعنى به عناية فائقة ، ويضم جهته بخطين أو ثلاثة من الدوب ، فيصبح  
مهياً لفتوة الشباب .

وكان إدريس لاحظ شدة فتنتهم من المحرمات الخارجية ، وأنهم لا يعرفون  
الدروع أو الدرق الواقية ، فذهب إلى الزعيم وشرح له فوائدها في حماية  
المقاتلين كما يحمي الغطاء الصلب السلحفاة شعاعهم المقدس .

على الفور امتدعى الرمح المقدس وعما به من فتة الحندين وجعلهم

بمسكون الذروع ، وكانت التوجة طيبة ، ففرح إدريس وأخيه الريح المقدس  
ولأنه ابنه من لحمه ودمه ، وبعد أيام احتار له فتاة جميلة وخطيبها له ، لأن  
من عادة الأب أن يفعل ذلك لابنه ..

هذه المرة لم يعارضه حتوت ولا الشاطر مثلما عارضاه في بلاد الشايلة .  
وكانت العروس بديعة الجمال متبقة الملامح ، فيها حياة يزيد لها حسناً .  
ولأنهم الخطبة توجه إدريس إلى بيت العروس والنمس بعض النسخ ليدخته ،  
مع أنه لا مدخن ، وأعطاه والدها ثوباً كثيراً ، وكان معنى ذلك أنه يرحب به  
زواجاً لابن . ثم إن الريح المقدس وقد جعل من نفسه والدها لإدريس انفق  
مع والدها على المهر ، تضر بقرات حلوب ، وثلاثة قنود من دهن قرص  
النهر .

يوم الزفاف ذبحوا ثوراً ، وتجمعت القرية تأكل وتشر وترقص ،  
ورقصت العروس رفقة رفاقها ، بينما لم يسمح لإدريس بالحضور وبقي في  
الدار التي أعدت له ينتظر ، حتى انتهى الحفل . فجمعت المنيات حول  
العريس وأخذها ، وهي تتظاهر بالتمنع . إلى حيث ينتظرها عريسها ، وكان  
أسعد الناس في تلك الليلة .

فرح حتوت ، وقال الشاطر :

— أخيراً أتى بعبته ونزوح ، عاد إلى وطنه وأنهت تغريته ، وجاء دورنا .

صار الريح المقدس بعد إدريس لأن محل محله ، وسأله عن اسمه الأصلي  
فلم يذكره ، فقال له :

— من الآن أسميك « أبوت » .

— أبوت ؟ ليكن !

ثم راح الشيخ يشرح له عقيدة العشيرة الروحية ، قائلاً :

« اعلم يا ولدي أن الهنا الأكبر غير المثل ، هو إله السموات ومخالق الكون ومنسفه ، ويمرسل المظفر من أجل ارتداء الأسنان والحيوان والزرع ، وعملك التقرب إليه بالتقربين وبالسلوك الحسن . راقبك منذ مبدعك هو جدتك طلياً عجا للمخير كرمياً عليها نقي السرية ، نكره النعيمة والكذب والسرقة والزنا ، والهنا لا يريد من البشر أكثر من ذلك . ولهذا أحبتك وجعلتك انسى ، وأريدك كذلك أن تختم « جوك » ذلك الذي تجتمع عنده أرواح أسلافنا الأظهر<sup>(١)</sup> .

وبعد أنه أكمل له الشرح والتفصيل بقي واصطحبه إلى الهبكل القريب من بيته ، فوجد أمامه فرع شجرة كبيراً مغروساً في الأرض ، وسمع له بأن يقدم ذبيحة جديداً ، فحوا به بمساقطة ومع الهبكل المخصص لهذا ، ثم بقروا بعضه ودفنوا مخروبات الاحشاء والدماء في حفرة أسفل الفرع المغروس ، وظهروا لحية وأثناوه ، ثم ألقوا العظام سليمة إلى أقرب نهر . وصار إلههم أو أبوت شديداً للذين بقدم السعائر الروحية لعشيرته ، ووالده بالنبي بلزبه ويعلمه ويهديه ليصبح وزينه في حمل الرمح المقدس والزراعة وخليفته في أداء طقوس جلب الأمطار .

مع أوائل العام جاء الجفاف بعد انقطاع الأمطار ، حتى أن الحشائش السامية بدأت تبيس ، والأرض تحف وتنشق شقوقاً عميقة من شدة الجوع

---

(١) يؤمن الهنا بأنه إله واحد اسمه « جوك » ، وقد ذكرنا صفاتهم وصفات أفعالهم في

المؤخرين . وشعب الهنا معروف عنه التقى والزرع

فبدأت العشيرة هجرتها الموسمية إلى مجاري الأنهار مع صلاح الأرض  
 للتسير باختفاء المستنقعات والأوحال ، لهذا أخذ حنحوت والشاهر  
 وهادي يعدون للعودة إلى أهاليهم ، لكن سلطان دارفور محمد فضل كان لا  
 يزال ينشر جواسيسه على جميع طرق كردفان المؤدية إلى مجرى النهر ، فسد  
 بذلك عليهم جميع السبل والدروب المؤدية إلى مصر المحروسة ، وهو مؤمن  
 أن حادثي ما جاء ألا نسلته سندقيه انتقاما لقتل أخيه زباني على يد عبد  
 الرحمن الرشيد . فصار لزاما عليهم البقاء ، لأن الرحيل فيه نهايتهم ، أما  
 التحنن فمحال بسبب الهضائع الكثيرة التي معهم ، والتي تشكل حمولة  
 ثقيلة لا يمكن الأسراع بها أو إخفاءها عن عيون العس .

هذا أمضوا شهور الجفاف ثم عادوا مع العشيرة إلى القرية ، حيث بدأت  
 الأمطار تهطل مدرارا والمستنقعات والطين تهادد إقامتهم . حتى العام التالي  
 لم يكن محمد فضل قد فقد الأمل في الإمساك بهم ، وكما أن له جواسيسه كان  
 للذنكا عيونهم المنيعة . وكان أدريس قد أنجب ولدا أسماه حنحوت فصار  
 اسمه حنحوت بن أبوت ، ووعد الشاهر أن يكون اسم الولد الثاني على  
 اسمه ، فأنجبت زوجته مع موسم الجفاف التالي بنتا ، فدعاها قائلا :

— لا تحزن ، ماسميا على اسم محبوبتك زهرة .

فأمر وجهه وزاد شوقه إلى ابنة الأصول التي أحبها منذ سعد برونيتها ،  
 لكن الطواجن حاجته وقال :

— تقريبا طويلا من المؤكد أنها تزوجت . وأن الأهل يشوا من عودتنا  
 أحياء .

سارعوا تغيير الموضوع . وإن كان شوقهم إلى الأوطان وانقطاع الطرق



إليها جعلاً أيامهم شهوراً من الملل . كانوا أيضاً في شغف إلى معرفة ما تم  
بين إبراهيم بك والبرديسي والأنقى والألباني محمد علي وعمر مكرم . كان  
المكتوب أن المختصر من بين هؤلاء سوف يعرض خط حياته خطى حياة  
الشاعر وحتوت ، لكنها لا يعرفان هذا لأنه مازال في بطن الغيب .

طلبت إقامتهم في بلاد الدنيا ، فضاقتهم بحياة الغدو والركو ، وحوا إلى  
روية بلاد الأسود . فجادلوا مع ادريس كثيراً ، حتى توجه إلى والده بالنبي  
الرمح المقدس ، وسأله عن منابع النيل ، فأجاب :

— كنا نعرفها . من بحيرة اكروي ، بحيرة واسعة جداً ، على مسيرة  
عشرين أو ثلاثين يوماً .

— ألا ينبع من جبال القمر ؟ وهل توجد أصلاً جبال القمر ؟

— نجدها عند بحيرة لونا نزيجي ، وهي كبيرة لكنها ريع بحيرة اكروي  
تقريباً . اكروي لا مثل لها ، منها توجه مياه النيل إلى بحر الجبل الذي هو  
جزء من النيل المبارك ، مثل بحر الغزال القريب منا <sup>(١)</sup> .

— فهل بإمكاننا الذهاب إليها مع أصحابي ؟

فكر الرمح المقدس ملياً وقال :

— الطريق شاق وعمر ، كنه مخاطر ، به حيات تبلى الإنسان ، ووحوش  
وقبائل غير صديفة !

فلما لاحظ ملل ضيوفه جهز لهم لوازم الرحلة ، ودفت طبول القرية تبلى

---

(١) بحيرة اكروي : الاسم الأصلي لبحيرة مكتوبا . مائة ميل أسفلها إيمانغري .

القبائل التالية بأمرهم . كما أرفق معهم الساحر الطيب ، الذي يفهم في  
الأعشاب الشافية للأمراض واللدغات ، وعدداً من أسجع رجاله وأعلمهم  
بالطرق . ساروا وصعدوا وهبطوا . انحرفوا يمينا ويساراً . مخترقين منطقة  
المسافاة الشاسعة . كلما توغلوا جنوباً زاد ارتفاع التضاريس حتى علت  
هاماتهم بمقدار أطوالهم ، تتخللها أشجار السط . كلما أوغلوا في فصول  
الجفاف الرطب تعالت محاللات الدخان من الأشجار والأعشاب . مع  
هبوب الريح امتلأ الفضاء بخليط الأتربة والدخان . شعروا بالاختناق .  
وانفلتت الرياح أنفواد البوص والبردي .

ومن حين لآخر يشعرون أنهم مراقبون من الأهالي المتدسين بين الأفرع أو  
أعلى الأشجار . والعشائر دائمو النرحال يصيدون الأسماك بالحراش من  
الجذائل الضحلة . والأهوار تخفى في المستنقعات ، تخفى مجراها الجفهر من  
جلده . وفائدتهم الشكاوى بنجيب الاقتراب من القبائل المعادية ، يلتفت  
بعيداً عنها . ان سمع لغة الطيور وعرف وقوع حرب بين عشيرتين انحرف  
بمساره بعيداً عن أرض المعارك . أراهم أشجاراً تشبه الضبار ، وحذرهم  
منها لأن أوراقها سامة ، والأهالي يضعون عصارتها فوق السهام والرياح حتى  
تتسبب بالسم ، وبهذا تكون الإصابة قاتلة من الجرح والسم معاً ، ولا علاج  
لسمها .

ثم مروا بقبائل رجالها شجعان ، يمارسون عادة التوشم وتصفيف الشعر  
واستخراج الحديد من باطن الجبل ، يصنعون نبالهم من أوراق الأشجار  
وأنسجتها ، يأكلون النمل الذي تجمعه النساء لعدم وجود مواش لديهم بعد  
أن قصت عليها أسراب الذباب القاتل . كما مروا بقبائل يستتر أفرادها  
بأوراق الأشجار العريضة ، والنساء يشاركن الرجال الرقص البديع ، مبه

المرأة عندهم عدة سكانين . ثم مروا بقبيلة الأكا ورجالها الأنداء الذين  
يصطادون الأفيال والبقر الوحشي ، ولديهم من الموز الشيء الكثير ويعيش  
عليه القردة .

طالت المسافات وزادت الأسابيع ، إلى أن دخلوا هضبة البحيرات  
الاستوائية ، وعاد المطر معظم الأوقات . عندما اعتدوها بدت وكأنها أرض  
مهابة بسبب غلبة الساط الأزقي . جدوا في السير إلى أن نزلت لهم عن  
بعد سلسلة جبال القصر الساحرة ، فإذا قممها تنفي السحب وتتوارى فيها .  
فلما منحني إليها وعند الغروب كانوا مازالوا يعبدون عنها . لاحت الفسة  
مغطاة بالثلوج التي تلونت بحمرة المغيب ، فبدت كجمرة كبيرة متقدة ،  
دهشوا لوجود الجبل في القمة الشاهقة والحرارة الشديدة عند السفح حيث  
يقفون . لكن المشهد سحرهم مثل حلم بديع ، نسوا المشاق ، وأبشروا  
خسوف أن من رأى ليس كمن سمع ، فأبشروا هذا المنظر الخلاب من  
حكايات إفرسي عنه وهم بالقاهرة حدثها عن ذهب مرفور وعن صندوق  
مسحور نجأ في مكان سرى ، من جلس بداخله ونظر إلى الشرق رأى بلاد  
الشرق جميعها يملوكها وناسها ودوابها . فإن نظر إلى الغرب شاهد بلاد  
الغرب ، وهذا الصندوق مرصود بطلسم عبارة عن إنسان نحاسي يئن من  
يقرب منه !

بعد الميت عادوا السير في خفة ونشاط . وقرب منهم النعام بين  
الأعشاب ، وقطيع من الغنم يلهو في مرج . ثم عبروا غابة أرعتهم بكونها  
الطين ، حتى إن الصمت وش في أذانهم . انفرجت عن سهول فسيحة  
متراصة ، وبللت الأمطار شعورهم وأبدانهم فأنعشهم . عبق الهواء بعطر  
الحضرة العواحة وزادت الحائش مع تقدمهم الحديث ، إلى أن وقفوا

بشرايين وهم يرون الكروى ، أعظم البحيرات ، مساحة شاسعة من الماء العذب ، لا يقبل مدنى البصر إلى آخرها ، توضعها جزر كثيرة خضراء ، هائلة بدعة أخذة . يحف بها سواحل رميلة صفراء ، وسفوح تكسوها غابات خضراء تنحدر إلى الشاطئ ، ومسطح الماء العجيب يبدل لونه حسب حال السماء ، فتراها السحرة أوالا سمراء اللون ، وأحيانا خمرية ساحرة ، فلما انتفع المطر وانقضت الغيوم لفترة بدت في وضوح الشمس زرقاء . وصارت السماء لطيفة ، فظهرت الطيور ترفرف بأجنحتها على ارتفاع قليل عن سطح الماء ، يسها مجموعة من الخيول تحوم البحيرة عبارة لأهية قرب الشاطئ .

وفت الغروب تألفت السماء والبحيرة بفكر من أضواء بدعة ، في مشهد خلّاب لم يرد له شيا ، يرتبط بمرغبات متواصلة من نمو البردى وارتظام الموجات بأعواد البوص وصرجات الطيور . ثم إذا بالشمس تختفي في غروب مفاجئ . وكأن فرصها لم يكن هناك .

بعد قليل ومع نسبات الماء غلت من القرى البعيدة دفات الطبول يرقص عليها الأهالي حتى يبهكوا ، ولقد شربوا حبة البوبه فيستلقون نياما من حول النيران التي ألفت بأنوارها إلى ما يحطم وقال الخبير :

— من هنا يبدأ القبل المارك ، وكلما ترون فكل شىء جميل هنا ويطبع ، هذا الحكم . ولذلك سوف نبت في العراق ، ولن يدخل البلاد أو القرى لأنها خطر على أرواحنا .

فسأله أدريس عن مخرج السبل من البحيرة العظيمة العذبة ، فقال :

عندئذ نراه ثم نعود إلى دياره ، أخاف الحكام ها ولا أخاف وحوش  
الغاب أو تنين البر

عند الشجر رأوا أول الليل ، ليس منعا جدا . بعضى بين خفاف عالية  
معشوية ، تتركضه جزر صغيرة وصخور والتماسيح على شاطئه . وأقراص  
النهر تغسل ، ومن بين الأغصان يرد الماء قطرات البقر الوحشى لتزوى .

وبذلك يكون حنحوته والشاعر وهنئى هم أول من رأوا منبع النيل من  
غير أهل المنطقة ، لكن التاريخ لا يذكر ذلك

عند هم الطريق بحيث حجب على صغير رؤية البحيرة ، ومشوا بين  
الساقات العالية ، والطيور تراقبهم . يشاء تحف بأجنحتها حواش رفيعة من  
ريش أسود ، وطيور بتألق ويشها برقة زاهية تراهى فيها ألوان قموس فرج ،  
وأصناف وأشكال مختلف المدهد والغراب الربونى والسر هباد السمك ،  
وأصناف من أشجار التين والكافور والموز والنخيل وزهر اللوتس الجميلة  
وفي الأسماك أصوات الطيور والحيوانات وحفيف الأشجار . بينما تحرير الماء  
في السيل المختفى عن الأعين يعلوا كلما تقدما ، حتى بدأ يظفى على باقى  
الأصوات ، لقلب هذرا . ثم شعروا بسحابة ندية من رذاذ غمرش ألهم  
الوادى ، فحابتهم شهقات الانعاش ، ولم أن الهدير كال أهول ما يكون

فلما خرجوا من بين الأدغال إذا الرذاذ المنطائر يصح مقلرا ناهيا  
ستمرا ، بجده الهواء إلى غابة الأغصان الخفراء الطرية التى قدسوا منها  
وأهول يتزايد ، خلال هذا الرذاذ تدفق أسراب من طيور صغيرة مرذاة ذات  
أجنحة مديرة ونشطة إلى الحفرة . تدفع سابعة في الرذاذ لتخط قلوب الصخوخ  
الزبد عند الحافة التى تنصب فيها الماء أهداف أصباها ثم لطير غير آه



مصرى النهر بكاد لا يرى من الرذاذ الأبيض المتساقط حول المياه الشاذرة مثل  
 الرعد مكونة أعظم شلالات النيل المبارك ، وقد ارتسم فيها قوس قزح بكاد  
 يكون كامل الاستدارة . ومئات الأسماك العذرة تفتقر في الشلال بكل قواها ،  
 والصيدون من الأهالي يسعون في الزوارق ويستقرون على الصخور التي  
 تغرض الاندفاع لصبوا الأسماك بالنص وأعواد ذات حواف مدببة . بينما  
 أمراس النهر والنماسيح تستلقى عند الحواف في مخول . وفوق جميع ذلك  
 مهرجان واحتفال ألوان ، حيث جميع أشكال قوس قزح في الرذاذ الدائم ،  
 على هيئة قوس أو خطوط مستقيمة أو دوائر ، بألوان الدنيا السبعة في تناغم  
 وتمازج ، أحدثت مع الرذاذ والهدير المتساقط تأثيرا مخدرا في الرجال ،  
 وأصوات الانحدار تتغير من بوهة إلى أخرى ، ولا تفتت نعمانها على حال .  
 فكاد العباس يعلب عليهم ، لولا أن الخير أمر بالاعتدال .

فواصلوا العودة صائتين ، وقال جنحوت للشاطر وأخريس :

— بهذا تكتمل نبوة صارية الودع العجربة ، وتتم آخر العلامات المرتبطة  
 بحياتي وأنا بعد حزين في بطن أمي : خسوف القمر وخسوف الشمس ومولد  
 بقرة برأسين تأكل بواحد وتجتر بالآخر ، ثم معادع الشمال وتسلط الفار على  
 القطة بالفاخرة ، وهالدا تغرب حنوبيا ولم أكن أريد ، ورايت أشكال قوس  
 قزح والظهور في رذاذ الماء ، أي جمال وسحر هذا !

نهله مرناحا :

— آله الأوان العودة إلى مصر المحروسة ، نرى ما حادنا الآن ومن انصر ،  
 البرديس أم الأنبي أم محمد علي ؟

فقال الشاطر :

— لا فرق بينهم ، سوف تعود إلى مصر ولا تغادرها أبداً كان المنصر ، ولا  
أنهم : لماذا لا يجوز السيد عمر محرم الأسير على وهو منا ؟

انقضت ملائمتها لقرب العودة إلى الأهل ، لكنها يجهل المخبوء في  
بطن الغيب . كان جميع ما مروا به من أهوال ليس إلا نذرة من غضب ، أهة  
من نجيب ، فطرة في بحر الحكايات . صحرة في جبل الروايات . ومضائر  
الناس تتلاقى تتباعد ، تتشابه تتفارق ، تتأسك تشتت . وخطى حياتها  
ارتبطا بحياة المتصارعين في القاهرة . قال محتوت للشاطر :

— كم أحن إلى أسرته .. إلى حضن أمي !

— لترسل أسواقنا إليهم مع هذه المياه المذاهبة إلى ديار الأحباب .

نأمل محتوت شلالات الشبع ، مياهها الناصعة وموجها الخادر البارق .  
حملها أسواقه هامساً :

— السلام أمانة يا مياه ، إلى أبي وضوان وأمي أم الخير ، أخى الرئيس  
مرسى وابنته زهرة ، السلام أمانة يا مياه إلى جميع الأحباب ، حذية إليهم  
وأنت تروين عطشهم .

انعدت المياه هادرة صرعة إلى المجرى . جرت الأيام والليالي ، الأسابيع  
والشهور . اختلطت بمياه النيل الأزرق الطابط من جبال الحبشة .  
اندفعت على مهل حتى اجتازت أراضي الشاذلية . عبرت الحنادل وبلاد  
النوبة . دخلت مصر . اندفعت حتى مدينة ملوي . حيث كان الرئيس  
مرسى لاجئاً بركبه ، هارباً من حرب حذيفة بين المهالك والأنراك في مدينة

الماء شرب رشفة ماء ، لسبب لا يدريه تذكر أخاه حنحوث . شعر بالأسى ،  
ذهب المسكين يبحث عنه وما عاد . استبعد أن يكون حيا . نأسى عليه وعلى  
صاحبه الشاطر .

في دارها الخليل يملأني شربت ابنة رهرة وارنوت . تذكرت أول ما  
تذكرت الشاطر . كان حبها له مثل الحلم القصير . راح وراح عمها  
حنحوث . ذرفت دمعين ، واحدة عليه والأخرى على عمها . كانت قد  
تزوجت من بكر ابن شيخ الأسمرين الطبيب . تزوجته عن طلب خاطر بعد  
أن طالبت غيبة الشاطر .

نهادت المياه حتى بر الميا . تروى الأرض والدواب والناس . شرب منها  
الأهل والمهاليك الأجاس . تسربت في جدول صغير إلى قرية تلة . شربت  
منها طيور وأرانب أم الخير ، وزوجها رضوان ، وجميع الأهل والجيران . نظرت  
إلى جهة الشرق . لم تلبس ولن تلبس . إلى عائد أنها حنحوث فسوف يأتي  
من الشرق مثل الشمس . شربت بعض الماء ثم هلت كثيراً . تذكرته قبل  
الشرب . وفي أناته وبعده . على باطل دائماً . فقلها يحدتها أنه عائد بحكمة  
الشيخ كما قالت العجيرة .

نهادت المياه المارقة إلى القاهرة ، تروى سكانها الملهورين ، وأزاد  
العساكر ، من حنالات الأجاس وبهائمهم . تعكرت من جورهم . روت أيضاً  
المشايخ ، وتقيب الأمراء عمر مكرم . كان حكم مصر بين يديه وأهداه إلى  
محمد علي ، أصبح صاحب الأمر والنهي والأخذ والعطاء وقطع الرفاق .  
وحنحوث والشاطر لا يعلمان ذلك .

## (II)

### العداء والمودة في رحلة العودة

في طريق العودة من أعالي النيل وبحيرة الكروي العظيمة تداعى هادى مريضاً التزعج حتىوت والناظر . في البداية شعر بجفاف حلقه . شرب كثيراً فتحول الجفاف إلى تشفى ، كان في حلقه عشرات الإبر . أحضر إدريس جرأه الذى هرب به من عبد الفرنسيه وبه قوارير لأدوية فرنسية عدها مع . أخفق في معرفة ما يصلح لصديقه . فشل الناظر في قراءة المكتوب عليها بلغة الفرنسي . جربوا بعضاً منها فازداد عذاب هادى . عندئذ تقدم الساحر الطيب وعائى المريض . اخفى في الأدغال وعاد بعض الأعشاب ، وضعها في ماء دافئ ، جعله يشرب منه دوين جدوى !

تعطلت رحلة العودة ومكثوا في مكانهم لا يرحلون حتى شك فيهم أهلى المطلقة ، فتصح الخبير بعمل نقالة لحمل العليل ومواصلة السير قبل التعرض للأخطار . بعد سير طويل بطيء وصلوا القرية ورأت حمة إدريس أنه مهسوم لمرض صاحبه . تعاملت على نفسها وسارت إلى هادى . نظرت في عينيه ثم تحسست إبطيه وقالت :

— هذا امر سهل ، سيشفى بفضل ربنا !

بعد ساعة جاءته بنوع من المأكول ألصقت إليه بعض النباتات المرة وجعلته يأكل . أقل من أسبوع كان قد شفى . فرحوا ومكثوا يجهزون لرحلة

المرور والقدرة أن عسائر السلطان محمد فضل أمهلوا أمرهم . بينما هم  
لذلك على الرغم حامل الرمح المقدس فأجلوا الرحيل ، لأن صاحبهم  
إيريس الذي صار اسمه أبوت وزنه ، بعد أن تعلم منه أسرار الطقوس  
وكيفية الدعاء لاستجلاب الأمطار والتقرب إلى الإله نيك . صار هو  
الزعيم المحبوب والرمح المقدس ، رزين راجح الرأي بسبب ما صر به من  
أحداث وتحوالات ، وما عرفه عندما كان بالقاهرة من الفرنسيين وحيلهم  
الصناعية ، والماليات وبسائرهم ، ثم في الصعيد والنوبة ، وما تدرب عليه  
من فنون الركوب ورمي الرماح عند غرب الشاذلية ، وما وعيه من دسائس  
أبناء سلاطين دارفور ، فكان بذلك هو الابن البار الذي عاهد لأهله وأحبوه .

بعد مرور زمن الحداة والحزم بأن سلطان الفور اعتقد في غنائهم ، فجهزوا  
للرحيل . حزموا متاعهم وبضائعهم التي غنموها بالخلال عندما عملوا  
بالبيع والشراء في الفاشر ثم في بلاد الهندكا .

فقد إيريس اصطحابهم حتى حلفاية منفى النيل الأبيض بالأزرق أبهى  
الكبير . فتمركوا يتقدمهم أعظم حبراء الطريق في قافلة طويلة محرسها  
دينكاويون بواسل أوفياء طوال القامة والحامة ، تمركوا شمالاً بانحراف ناحية  
الشرق ، عبروا بحر الغزال وواصلوا السير حتى دخلوا أرض كردفان .  
استاءوا وقلقوا عندما علموا أنها خاضعة لدارفور !

قال الخبير : أن السلطان تيراب هو الذي أخضعها في حرب المسجات .  
قال أنه في سالف الزمان حكم دارفور سلطان اسمه سليمان ، وحكم كردفان  
أخوه المسبع . استمر الأمر على ذلك في إسانبها وأحفادها حتى زمن  
السلطان تيراب ، يقابله على كردفان السلطان هاشم المسبعاري الذي طمع



في الحشد دارفور وراح يتعدى على حدودها ، حطرت نيراب مراراً ، رآه لا يتردد  
فتوجه إليه بحشده وجميع أولاد أبيه كباراً وصغاراً ليخوض بهم الحروب  
ويخلص منهم وغلبه الولاية لابنه اسحاق . ظل سائر أصوب كردفان يجمع  
عربان البادية ويستخدم دوابهم في حمل الراد والعناد ، حتى صار في جيش  
كثيف على هيئة مربع هائل زاحف . يتقدمه الدادات وهم العبد الذين  
تربوا معه كأنهم أخوته ، تقدموا بالنسوس لقطع الأشواك والأشجار وتهد  
طريق الجيش . في قلب المربع الموقفون الملكيون ثم السلطان ، يسبقه  
حاملو النبات وينعه الكوروكوا حاملو الخراب . عن يمينه الوزراء  
والمكوك . عن يساره أولاده وأولاد السلاطين السابقين ، ثم حريمه يحيط بهم  
الأعوان على رأسهم . أبو شيخ ثم عربان البادية بالمولد والعناد !

قال الخبير :

إزاء هذا الجيش الرهيب تفرق معظم رجال المسعوى عنه . فهرب  
بعائلته وحاشيته واستجار بسلك الفنج حاكم سنار . لكن نيراب طارده  
حتى ملقى النيل الأبيض بالأزرق . هناك النجم بجيش الفنج ودحروهم  
وغنم نحاسهم المسمى بالمنصورة ، من فوط فرحت بها طلائها بالذهب من  
الداخل والخارج ، وما زالت عندهم حتى الآن بالفاشر دليلاً على بأسهم . لم  
يسعه عن عزو سنار إلا اختفاه في عبور النيل !

شكر هادي الخبير على حكايته ، شاعراً بالحزن وقد تذكر أخاه زيادي  
الذي مات بسبب قتله اسحاق بن نيراب . وظنوا سائرين في أرض كردفان  
حتى دخلوا العاصمة الأبيض . وجدوا بيوتها من الطين والنمش . بها عدد  
كبير من البقار فوق أبقارهم يسراويل البنت أو الدمور ذات الأكمام القصيرة

الرأسعة ، كاشفتي الرؤوس حلقى الشعور على عكس أهالى دارفور والنبوة .  
وعدد من الكبابى رعاة الكباش شبان فضية يضاء مشوية حول  
الأكثاف والرؤوس . وكانت سوق الأبيض عامرة بالناس من كل مكان  
قريب ، ويصانع من حراب وسيوف ودروع مصنوعة من جلد الخنزير  
المسبك . وحبال الليف والحبوب والفاكهة والخضر والمطاط ، والزراف  
وانواع الماشية والجلود وريش النعام .

شقوا زحام السوق ، الجميع يرمقونهم فى فضول . يردد أسلحة هادى  
وأصحابه يفسحون الطريق لمعجبين من خلوة القافلة من العبيد .

كان يحكم كردفان مقدم من طرف محمد فضل . يفرض أقوات باهظة  
على المواطنين . سعى بأمرهم فخرج إليهم فى رجاله منبراً عذاراً كيداً . شهبوا  
إليه وظنوه يسعى فى أمرهم للأسباب القديسة . لذلك أسرغوا حتى عصار  
الطريق بين الصخور . اختبأ الساطر وحتوت وإدريس بالنادق ، بينما  
وقف هادى أمام القافلة . فلما وصل المقدم وحده غير هيات . رأى ما هو  
فيه من حسن مظهر فجلست أفكاره . ترجل من فوق جواده فحاكاه هادى  
بين أصحابه الثلاثة متلهيئون بالنادق من مكانهم بين الصخور . سأل  
المقدم :

— من أنتم ؟ من أين وإلى أين ؟

— نحار مهربون ، كنا فى دارفور ضيقاً على قعر السلاطين السلطان  
محمد فضل ، وعائدون إلى مصر عن طريق شندي والنيل ، ولكن من أنت ؟

— مقدم كردفان ، أن كنتم فعلاً من ضيوف سيدى السلطان محمد فضل  
فلابد أنه أعطاكم فرساناً لى أرى أرحب بكم .

— لم يعطنا .

— ماذا فأنتم من جواميس باشا مصر محمد علي .

— نحن تجار نبيع ونشتري حسب شرع الله .

— سنأخذ صلاحكم هذا .

على الفور سمع وقعته بنادق أتية من عند المصحور من ثلاثة اتجاهات ،  
فلتفت حوله ورأى الشاطر شاهراً بندقيته وفي جانبيه عذاريتين وعلى كتفه  
بندقية أخرى وكأنه قلعة ، وبالمثل جنود وإدريس ، عندئذ لجأ إلى  
الملاينة :

— تنوون الرحيل إذن في سلام !

— نرحل مع أول فافلة متجهة إلى حلباية .

— القوافل لا ترحل إلا بأذني .

— سوف ننتظر .

— تدفعون الأتاوة حسب تقديري .

— نقدم الهدايا لك حسب تقديرنا .

غضب وأشار إلى رجاله فشهروا الرماح نحو هادي ، عندئذ انطلقت  
رصاصة أودت جواده قتيلاً ، فانزعج الرجال وارتاجعوا ، أما هو فقد خرج  
شرار الغضب من عينيه ، صاح الشاطر فيه :

— عليك أن تكون سعيداً .

— كيف وفروسي صريع !

— لأن الرصاصة كان من الممكن أن تكون في رأسك .

هزادته هادى قائلاً :

— نعوذ بك عن فرسك بأذن الله ، وعن تعبك ومحبك حتى هنا ، نحن في ضيافتك ، سمعنا عنك حسن استضافة العرباء .

ثم أهداه هدايا قيمة نشترى ثلاثة أفراس ، من حوبر وخوز وصايح وأنباء جبلة لا نهدي إلا للملوك ، ففرح بها لكن عجبته لعنا في طبع وهو يدعوهم على العشاء عنده في اليوم التالي ، ثم استدار عائداً على فرس أحد أعوانه الذي ركض وراءه .

بعد انطلاقه قبلوا أمر الدعوة فيها بينهم وقرروا رفضها خوفاً من أن يدمر السم لهم في الطعام . وراحوا يتناوبون الحراسة ، وكلها سمعوا صوتاً أطلقوا رصاصة صوب مصدره فيتر من يراقبهم ، حتى ناموا آمنين من غير أن يغفلوا الحراسة .

في اليوم التالي أبلغوا اعتذارهم لشوب المندوم فاغناط ، وأرسل محبياً من طرفه إلى السلطان محمد فصل في دارفور يستشير ، على أساس أن يعرفهم ويضعهم من الرحيل ، فلما بلغهم ذلك قرروا الرحيل دون انتظار قافلة ، ونجح خبرهم المتكافئ في العبور لهم على خير كردفاني يقودهم إلى حلفاية ..

فودعوا إتريس بالأخصان والدموع ، وزودوه بمزيد من البهارود والبنادق ، فبحم وجته صوب الجنوب ليعود إلى عشيرته ، بحفظه حرسه الأشداء الأوفياء يحمونه عن أي غدر ، وسوف يعجل سداً إلى طفليه منحوت والشاطر وابنته

زهرة ، والذين سوف يحملون أسماء أخرى في كل مرحلة من مراحل أعمارهم ، وسوف ينجب المزيد من الأولاد والبنات بحيث تقوى عزوته .

أما أصحابه فقد ماروا نحو حلفاية مع النيل الأبيض من غير أن يدفعوا أتاوة للمنسلم ، وكان خبيرهم الكردفاني يكرهه لأنه يعطل أشغالهم ، إذ تكون القافلة جاهرة على أجرة الرحيل ولا يعطيها الاذن بالتحرك ، ويظل يهاطل أسبوعاً بعد أسبوع كي يضطر أصحابها إلى رفع قيمة الأتاوة التي يدفعونها له ، وقد تمر ثلاثة أشهر دون خروج قافلة كردفانية واحدة ، وفي هذا تضييق على الخراء ومزججى الجبال والدواب في معيشتهم .

واصلوا السير أياماً وليل ، يستريحون قرب المياه وفي المناطق المكشوفة حتى لا يفاجئهم قطاع الطرق ، إلى أن وصلوا حلفاية ، فوجدوها واسعة حسنة المظهر ، يوشها من اللبن ، تبعد عن النيل قليلاً ، ويأكل سكانها النعاسبع وفرسان النهر ان استطاعوا صيدها ، وذاقوا لحم النعاسبح فوجدوا لونه مائل إلى البياض يقرب من لون لحم العجل الصغير ، في رائحته أثر من رائحة السمك .

ذهلوا من النقاء النيل الأبيض النابع من بحيرة الكروى العظيمة مع النيل الأزرق أبهى الكبر الأسمى من جبال الاحباش ، والذي يزود النيل المبارك بأشياء وقت الفيضان بتيار قوي ، كان في مداه عندما وصلوا ، فإذا بالنيل الأبيض يبدو وكأنه متوقف عن الجريان وقد أحل الطريق للنهر المتدفق بالمياه وأطلسن الشمس إلى أرض مصر المحروسة ، لا يهدأ إلا في الشتاء ، وعندما يأتي دور الأبيض ، فيدخل النهران معاً قرب حلفاية ويمضيان جنباً إلى جنب ، وخط فاصل بظلل ظاهراً على سطح الماء مسافة كبيرة .



وأما أن النيل الأبيض ليس أبيض تماماً ، وإنما يبيضه شرب بالطين ، أما الأزرق فلم يظهر زرقة إلا دقائق عند الفجر في أول المساء ، لأنه في الغالب أقرب إلى الأخضر الفاتح إلى حمرة الطين ..

كان الجو حاراً بحيث إذا تحركوا خفيفاً نصبوا عرقاً ، وإذا أسرعوا صار العرق غزيراً ، هبطت قوتهم وانتاب بعضهم ميل إلى الانهيار وتخاذل في الصوت . وكان حثوت أكثر تحملاً لأنه من الصعيد الحار ، لكن الشاطر شعر في بعض الأحيان أن رأسه زاد حجماً ، وأن وزنه خف وكأنه سابح في الهواء . على الفور جعله الخبير يستلقي نائماً دون حراك ، ودهن جسمه بالدهن ، وأعطاه ماء غريب الطعم كان السبب في نجاته من موت أكيد .

بعد أيام الراحة توجهوا شمالاً ، فوجدوا أن صبت محمد على بدلاً جميع الأرجاء ، جميع الناس يذكرون اسمه بالرهبة ، وجميع المكوك يذكرونه بالرهبة والخوف من أن يطمع في ممالكهم ، وأنه ما إن ينهض من حربه مع الوهابيين بالحجاز حتى ينجد جنوباً ، فكان الأهالي لا يرحبون إلا بالنجار المصريين الذين يعرفونهم من قديم الزمان ، أما القوافل الطارئة المدججة بالسلاح الناري فهي في رأيهم تحمل جواسيس الباشا .

كانت هذه الفكرة أكبر سبب فيما لا قوة من عشاق ، لأن محمد على كان قد أرسل قافلة كبيرة قوية التسليح إلى سنار عاصمة الفنج وسائر الممالك الشمالية عدا بلاد الشافية بحجة التجارة ، ومعها مندوب من قبله يحمل هدايا لا تقل قيمتها عن ثلاثة آلاف ريال ، ولم يكن ملك سنار لبها ، فقبلها وأعطاه مقابلها هدية تافهة إلى محمد على لا تزيد على ثمانين ريالاً بأسعار سنار ، ولم يأبه الباشا بذلك لأن مندوبه عاد إليه بتقرير مفصل عن المسالك

والدروب وعدد الجيوش وتسليحها الساذج ، كما أن هذا المندوب كان يحمل معه مدفعين صغيرين ، تعتمد أن يكلف تلك سائر عن شيء من قوة تدميرهما ، وما أن بدأ بإطلاق النار وحدث الدوي الهائل حتى غر معظم الأهالي المتجمعين للفرجة ، وسقط كثيرون منهم على الأرض مستغيثين . وبعد ذلك ظل محمد على يرسل القوافل كل عدة مشهور بحجة التجارة ، لذلك ظنوا قاطنة هادى والشاطر وحشوت موفدة النجس ، لم يعد الخطر عنهم سوى بنادقهم النارية الواضحة للعيان ، وشدة يقظتهم .

فلما سارعوا قدر طاقتهم بالرحيل شمالاً إلى شندى ، وهم في فضول لمعرفة ماذا يغري محمد على بها وبغيرها من شمالي السودان ، فوجدوا بها عدة أحياء تفصلها عن بعضها بعضاً ساحات فسيحة وأسواق ، وتشمّل حوالي ألف دار ، منبثة فوق السهل في فوضى ، وبعد عن النيل المبارك مسيرة نصف ساعة ، أحسوا منذ وصولهم أنهم مراقبون في جميع خطواتهم ، فأدركوا أن شبهة النجس لحساب محمد على قد سقنهم !!

سعدوا عن وجود الممالك بدولة ، تعجبوا ، ظن هادى أن محمد على أرسلهم تمهيداً لاحتلال السودان .

ومن عجب ما سمعوه أن شندى كانت تحكمها امرأة من عشيرة « ود عجيب » حكام سائر ، يسمونها « متا » تحكم من وراء ستار مثل ملوك سائر ، ومن رآها وصفها بأنها طويلة القامة جميلة الشكل ذات شفتين شديتَي الحمرة ، وأسنان بدية ، وعينين مذهبتين ، وتضع على رأسها تاجاً فاخراً من الذهب ، ولها قميرة تصل إلى ما تحت خصرها ، وأنها أم « نمر » أمك الحال ، الذي يدفع الجزية كل عدة سنوات لسلطان الغنغ في سائر ،

وكان في حرب سجال مع عرب الشاذلية حتى وفد فلول الممالك إلى دنقلة  
بعد محمد علي ، فانشغل الشاذلية بقتالهم وتركوا الملك نصر ، ونجح الممالك  
في احتلال دنقلة وانتزاعها من يراتهم ومارالوا في قتال معهم .

سمعوا عن أنعام من قواعد غابيل وعرينة مهشة وحطام مسلات  
منقوشة مشورة في الصحراء شرق شندي وعشرات الأهرامات ، لكنهم لم  
يشاهدوها ، وطافوا بالمدينة الخائفة بالعديد من أهالي سنار وكردفان ومن  
عشيرة نصر وغيرهم ، وإن كان أغلب السكان من دنقلة ويشغلون حيا  
كاملاً ، لكنهم يشتهرون بالبخل ونعاطي الربا ، نزلوا في دار أحدهم بالأحر  
الباطن ، بعد أن أحضر لهم جارية لتعد لهم الطعام وتنظف المكان ، لم  
يدفعوا أتاوة للملك نصر ، لأنه لا يأخذها من الفواقل ، وإنما يقبل الهدايا ،  
وهذا سبب رواج التجارة في مملكته ، فصاروا شندي تسمى الجارية ، تعد  
إليها الفواقل من الغرب من دارفور وكردفان ، والجنوب من سنار وأحيشة ،  
والشرق من ميناء سواكن على البحر الأحمر وبلاد اليمن والحند ، والشمال من  
مصر ، ربما كان رواج التجارة من أسباب طمع محمد علي ، إن كان فعلاً  
يطمع في احتلال السودان !

خرجوا يطوفون بالبلدة ، فيجذبونها عامرة بمشارب البوطة وبيوت الحظ ،  
وساكنها باليمن الأقراط الذهبية في ألبهني وأذانين دليلاً على الثراء ،  
وعندهم سوق يومي وآخر أسبوعي حافل يبعون فيه التياكل الجميلة بفرونها  
الفضول المثيرة حتى منصف ظهرها ، والنعام وإن كان ريشه بقل ثمنه عن  
الريش الذي أحضره معهم من دارفور .

تابعوا التجوال في اليوم التالي ، بينما هم يعانقون البلدة إذا بالملك نصر يأتي  
في أهله وجلاله ، شاب طويل تبدو الكبرياء على ملامحه ، يمشي في احتفال

المكوك ، مرتدلاً من المواضع وزى السلالة الملكية وهو جلد فهد ، ويجوز أنه  
عادم يرفع فوق رأسه مظلة ، وأمامه نقارته ينقر عليها أحد عمده ، وأهم  
ولم ينادفهم وانفهر وجهه لكنه تجاهلهم ، تبعوه عن بعد في فصول ، حتى  
دخل قلعة عن سفاف النيل حيث السواقى تديرها الأبقار لتدفع المياه إلى  
الأراضي الزراعية المسترثة !

كانت قلعة نهر مبنية من اللبن الطلي بلون الخبز الأبيض ، وأبست مثل  
قلعة مك عرب الشايكية المبنية من الحجر أو الحجارة ، لكنها البناية الوحيدة  
المشيدة من طابقين ، وقال فم صاحب الدار الدنقل الذى يسكنون عنده  
أن لنهر أسرة مطهنة بالصدف مثل أسرة المالك عندما كانوا إلى عزهم ، وله  
ثلاثة منازل أخرى في كل منها حبة حريم منفلة ، يقضى في كل منزل  
أسبوعين بترتيب لا يخل . وحيشه مكون من ثلاثمائة فارس وأقل من عشرين  
مندفة بالية صدنة ، لكنه بهذه القوة يحكم ، وكثيراً ما شن بها حروباً على  
جيرانه عرب الشايكية ، لذا فهم خجوت والشاطر كيف أن عائلته وخمسين  
فقط من صعبالك المالك الماجين من مداح محمد عل نجحوا في فتح  
دنقلة وسيطروا عليها رغم مقاومة الدناقلة والشايكية مجتسعين . كما أنها  
لاحقاً أن مكوك السودان لا يختلفون في شيء عن المالك في مصر مع مازق  
التسلح ، رغم أن نهر واسع الشراء من نخارة الرقيق ، وتأجير الجوارى قبل  
يعين بالبليلة في بيوت الخط في مسدى والغرى التابعة له !

عند الظهيرة استند النبط ونار الغبار ، رغم ذلك نشطت الأسواق ،  
والسوق الكبير يتكون من ثلاثة صفوف من الأكواخ في وسط المدينة ، وهو  
السوق الأسبوعي ويقام يومى الجمعة والسبت ، وفيه كل شيء من كل  
مكان . جميع الصناعات المصرية والمندبة ، ثوابل وخشب صندل ، حجر



الكحل والعقاقير والسيوف والسروج والمصنوعات الجلدية من كردغان ،  
ورق الكتلة وإن كان شحيحاً ، والخمر من البندرية بلاد الطليان ، والفخار  
والخريف والسلال بأنواعها ، والصابون المصري والنفط والملح وذهب  
الحشة ، وفروء ونسائس مدرية على القيام بالألعاب ، والأطباق الخشبية  
صناعة شنتي ، وخيول دنقلة الشهيرة ، والجمال والذئاب الأخرى ، وكل ما  
تشتهيه الأنفس !

وقل طائفة تبع منفصلة ، من عرب أميل إلى البياض إلى أشد الترنج  
سواداً . منهم من يرتدى العراشم والنفطالين والعباءات ومنهم من يمشي  
عاريًا قداماً . وقال الشاعر طادني :

— لعل محمد علي طامع في هذا الزواج !

— أطله طامع فيها هو أكبر ، السودان ومنابع النيل والحشة !

توقعوا أن يستعبد إليهم الملك نمر وقد رأهم لكنه لم يفعل . مع عجيء النيل  
شعروا بالملل وبالفوت لا يهر . توجهوا إلى مشرب الخعة . في الطريق أعلن  
الشاعر عن شكه في الجارية التي تخدمهم ، لماذا لا تكون مدموسة عليهم  
من طرف نمر لمعرفة أخبارهم قبل أن يلقاهم ، مثلاً فعل معهم أبو شبح  
محمد كرا وأخوه ياسي عوض الله عندما دسا عليهم العبد الذي ادعى  
الجهل باللغة العربية . شاركوه في فقه لأن كأي شيء جائر عند الحكويك حتى  
قتل العجائز !

لكن التجار في المشرب كانوا منحفظين معهم لأنهم مصريون . كان  
هناك يريد معرفة أحوال الدروب التي سبب كونها من شنتي إلى أسوان . لم  
يلتفت إليه أحد من رؤساء القوافل ، الجميع في صخب وهيج ، والنساء



يتنقل بين الخالسين ، وبعض العازفين يعرفون أنزل هادي الشراب على  
حسابه الجالس من حوله . فلما دارت الكؤوس بالبرؤوس انطلقت  
الأنس . لأموه لأنه لم يرسل الهدية المعتادة إلى الملك الذي يوتاب فيهم ، وهو  
إذا ارتاب في إنسان يصبح لزماً عليه إما مغادرة شتى سريعاً وإما  
التعرض للاغتتيال .

شعروا بالاكئاب والفقر فنهضوا منهزمين تاركين السكراني يستمعون  
إلى العزفة الموسيقية وعزف الطنبورة والتمار والتجارة .

من طلعة اليوم التالي أرسلوا إلى الملك نمر هدية فاخرة من الحرير الطندى  
والمساح وكميات من الصابون النادر . فلما منهم عماله . ولم يطلب نمر  
مقابلتهم . فعادوا إلى السوق ، وكانت في رواج أكثر من اليوم السابق بسبب  
وصول قافلة جديد في الليل أصحلتها من حضرموت بالسن . جاسوا عن  
طريق سواكن على البحر الأحمر بالسلع الهندية من بخور وحرير وبنج ،  
ليبيعوها ويثروا بثمنها العبد وجباه دفقة الشهوة .

كان العبد المعروض للبيع يقفون في مهانة ، والتجار الأنجاس يذكرون  
محاسنهم ، الأحباش أغلاهم سعراً خصوصاً المرأة لجهاها وحرارة جسمها  
عند الجماع وثباتها على المودة والولاء لسيدها . لتشاري أن يجرب العبد أو  
الجلارية يوماً واحداً ، ومن حقه أن يعيد البضاعة إن اكتشف عيباً فيها مثل  
مرض قديم أو الشخير أثناء النوم .

أما الخصيان فتجارهم خفيفة ، وهم سلعة غالية ، ومالك الخصي يعتبر  
ثوباً جداً لديه نساء عذوبات في حريمه ، وسعة الثراء تجذب شهوة محمد  
على الاستيلاء عليها ، فلذا في الطلب عليهم !

سمعوا كذلك عن محمد علي أنه أمر منذ سنوات بخضى مائتين من  
العبيد صغار السن ، ثم أرسل من بقى منهم حجاً إلى سلفاته التركي  
ليخرسوا حريمه !

سمعوا كثيراً عن محمد علي والرعب منه . وكرهوا الخناسين الأجسام .  
ولو كان إفرس معهم ذئب تحمل ما يروونه . رأوا الخناسين يأمرؤن النساء  
بالوقوف في صف يبدأ بالصغرى وينتهي بالأكبر طويلاً وسناً ، وقد نظفن  
بشرتهن ودهنها بزيت جوز الطيب وطلبن وجوههن بالأحمر والأبيض للتزيين ،  
وفي أيديهن وأنوفهن وأذانهن وأقدامهن الحلى المذهبة والمفضضة والجواهر  
القليلة . والشاري ينحصر السلعة ربناكد من سمعها وبصرها ونظفها  
بأسنانها وجميع جسدتها وعلى الأخص ثدييها وبواطن أعضائها ، ثم يأمرها  
بالتحرك والجري . فإن تم الاتفاق جردها الخنا من الزينة وسلمها لمرأها  
الجديد .

ثم رأوا ما لم يحيطوا به على بال أحدهم .

في السوق الكبير التقوا امرأة من نساء الماليك تتسوق حوائجها ودهنها  
عبدان وخادماتان . تحدثوا معها لمعرفة أخبار مصر ، فذكرت أنها جارية لأمر  
مملوك اسمه عبد الرحمن بك المشوخ . كوني راعية أئمة إليك أخبار بين بلدنا  
والثوبة لأن زعمهم القديم إبراهيم بك مات بالشيوخوخة والحسرة . خاف  
عليها مالكها من القتل الدائر مع الشايبة فأرسلها إلى شادي حيث هم  
الآن . ولاحظوا أن الأهالي يسحبون منها لصلفها وتعاليتها رغم شدة جمالها .  
ولباب العجبية !

لاحظ هادى أنها تزنو كثيراً إلى الشاطر في اعتجاب . همس له أنه يزداد

إليها ويصفحها ليعرف منها أخبار الممالك وأخبار الطرق إلى أسوان .  
رحب بالهمة سعيداً ، وانفرد بها بفتح حسناتها وأثريتها وهي رغبة راضية .  
ثم لبي دعوتها له إلى دارها .

في إحدى غرف دارها خلعت حيرتها وبرقعها ، وبقي شعرها ملبساً تحت  
الظربوش القصير . سألتها عن أحوال الممالك فحدثته عن وإلى مصر الجديد  
محمد علي البهيم وقبونه وغلقته . قالت أن الرحمة عنده هي قطع الرقاب  
لأنها الموت السريع ، أما الموت البطيء فهو بالحرقلة بإدخال خاروق كبير في  
جسد المعاقب ، يبدأ من أسفل حتى يقطع من فيه مخترقاً أحشاءه . أما  
الجريمة فهي عقاب مثل المداخبة ، يكون المعضوب عليه على حمار بالمقلوب  
وهو قاصر على الذليل ، ويعسونه بأعواء ذبيحة ويقعون على كتفيه  
كرشها ، بعد أن يكونوا قد حلقوا له نصف لحية ونصف شاربه .

تهددت بتأمله ثم قالت :

— لماذا تجلس بعيداً ؟؟ ما اسمك ؟؟

أخفى اسماءه لما سمعه عن وإلى مصر الجديد ، واقترب منها هامساً :

— اسمي الشاطر .. ما سبب محبي الممالك إلى السودان ؟

— ضد قتي أنت جميل هي الطلعة !

— صدقيني أنت أجمل من رأيت .. كيف جالك مع الممالك ؟

— جئت كما ترى لا بسر .. منذ مدة أرسل الممالك إلى محمد علي  
ستمطغونه أن يعم عليهم بالأمان والعودة إلى مصر اتباعاً له . اشترط أن  
يخضروا في حراسة عسكره . طبعاً خافوا أن يفسحهم كما فعل مع رفاقهم من

قبل ، وأبو وافي لفرحت أنا وعذت إلى القاهرة التي أحبها . بقوا هنا في  
جنسوا حتى دفنوا حتى مات إبراهيم بك كما أخبركم ، فلم يمت أرملة  
المسكينة إلى الباشا وقبلت يده تسأله في نقل رمة زوجها إلى القاهرة ، مسح  
لها ودفن في صندوق وقد جفف جلده على عظامه لحافته . كان ذلك بعد  
موتة بحو ستة أشهر . فأتى مدلة أنهى بها حياته . محمد علي هذا لا قلب  
له . وأنت فاسي القلب لجنوسك هكذا بعداً عنى !

بداخله كان الشاطر راضياً عن فناء الماليك . التفتى بها وأحاط كنفها  
بمساعده . شتم عطرها وقال بواسيها ويستدرجها :

— مع انه إبراهيم بك في حياته كان عين أعيان الماليك هو وشريكه مراد  
بك . اشترى الكثيرين منهم رباهم وأعتقهم وجعلهم سادة علينا !

— محمد علي نفسه كان يأخذ راتبه وجوابته منه ، فضة وخيراً ولحماً ولزناً  
ومسناً ..

تهدت فراذيت رغبته فيها . تحسرت :

— والى الخيال بأن دفن ثما سمعت بالمقبرة الصغيرة إلى جوار ليه  
مرزوق بك الذي مات في ملوحة القلعة ، ومن غير جنازة !

سألتها عن ملوحة القلعة التي لم يسمع عنها . تصغت الزعل :

— أنا لم أسمع عن شاب يخلل بأمرأة مثل ولا يغارها !

ماتت قبله فوق طربوشها من فوق رأسها وانسل شعورها في لوز  
الذهب . بهر حشها فاراد بك . تأملت في يافعه الذي لوحته الشمس .  
جذبته إليها قبله في شبق ، وظل في عناق وهناء حتى صباح ذلك الفجر .  
وذاق طعم المرأة من بعد حومان ونشرد .

في الصباح ذاق وجبة إفطار شهية ، وعرف أنها في الأصل من بلاد  
مروجها خطتها الخاسون وهي طفلة ، ثم بيعت من مكان لكان حتى  
استقرت في مصر ثم شمدى .

أمام دارهم ، ما إن رأى العبد الذي تخدمهم حتى اغتم وقد تذكر شكه  
أنها جاسوسة للملك نمر ، أحس قلنا غريباً شوش على ذكرى امرأة الأمير  
الحميلة وتدفقها رغبة بين ذراعيه . اغتم أكثر لأنه نسي أن يسألها عن  
أحوال الطريق إلى أسوان كما طلب منه هادي .



## نقيب الأشراف و

كان هادى وحتحوت ينتظران الشاه  
بينما هم كذلك وقبل أن يسألاه عن  
جاءتهم دعوة الملك نمر على يد أحد  
حتى وصلوا إلى القلعة . قبل دخولهم  
النارية لكنهم رفضوا . إزاء إصرارهم  
في تكبر .

بعد فترة صمت صاح فيهم :

— أنتم جواسيس باشا مصر

رد هادى في هدوء :

— نحن تجار ولا نعرفه .

— فلماذا لم تتركوا بنادقكم بالخارج ؟

فسكت هادى وارتبك حتحوت ، ثم

— لأن الباشا محمد على أمرنا بذلك .

وذهل صاحباه ، وصاح نمر في فوز :

— تعترف أنكم من عماله .

## ( بأقصى الأطراف

طر في لهفة ، والعبدة تعد الطعام .  
بيلته وما ظفر فيها من معلومات ،  
سأكره ، فتوجهوا معه من فورهم ،  
حاول حراسه تجريدهم من أسلحتهم  
محوأ لهم بالدخول بها . قابلهم نمر

فوجئنا بالشاطر يقول في ثبات :

ويفخر بذلك وهو قادر على حابئنا وجيوش غضب لأحد جبروتها

فبذل لونه واغناط لكه كم ما في نفسه كان الشاطر قد أدرك حوده  
باس محمد علي فقال ما قال متوقعا أنه لن يؤذيههم خشية انتقام الدنيا  
ولدهنة جنحوت وهادى وجداد بلبي في الكلام وينودد ويستدح وبلى مصر  
وسلطانه ، ويطلب منه إيلامه لحياته فأتلا لهادى :

مدكل ما تريد أن يظل على عرش مصر هالك ، ويتركنا هنا في حالنا  
بهذا والله ما نريده أيضا .

ثم انصرفوا إلى البيت ، وفي وقت المظلمة في اليوم التالي لم يستطع  
حنحوت النوم ، جلس يراقب العدة التي تعد لهم الطعام من خلال الباب  
الخارج ، وأما كثفت صوب غرفتهم في حذر لم تزد لأنه كان في الظل  
فأطعمت وأخرجت من عندها كسا ألحمت ما فيه في رضاء الطعام وكان لونه  
مائلا للصفار

دخل حنحوت وأيقظ الشاطر وأخبره ، ففكر قليلا وطلب منه أن يسر  
الأمر بعد أن جهزت الطعام وأحضرت له ، نظروا إليه وتركوه دون أنكل  
وهي جملة بالخارج توفهم ، مد الشاطر يده متظاهرا بالبدء في الأكل  
فلمعت عيناها ، فلما لم يأكل غطى الأحباط وجهها بعد وقت فوجت به  
يحمل الطبق ويخدم به إلى حمار صاحب الدار المنقلى ويضعه أمامه ، ما في  
مد الحمار فيه لياكل حتى أزعجت المرأة ودفعت الحمار بعيدا ، فأمسك بها  
وجرها إلى الغرفة وراح يحاورها حتى اعترفت له بأن الملك سير أمرها بوضع  
نبات السجو لهم في الطعام ، وهو ليس ساء وإنما نخلر ، وكان يقم من  
وراء ذلك تحريدهم من بنادقهم وسجنهم ، فتركها لكنها عادت بعد حين

وأعلنت من عند الباب حيرى ، ومساكنهم كيف عرفهم فعاتتها وقد كانوا ينام ،  
أحباها الشاطر في اختصار :

### — لانا تعرف في السحر !

فحملت حاملة ، وراجعت بظهورها . وبعد أيام استدعاهم الملك نهر  
وطلب من هادى أن يهديه بعض بلادهم الجديدة ، فاعتذر لشدة  
احتياجهم لها في رحلة العودة عبر الصحراء الآهلة بقطاع الطريق ، قال نهر  
مدهشا :

— كيف تخافون قطاع الطريق وأسم سحرة " أ فقهاء مملكة داور السحرة  
يرجعون إلى الخلاء ليلا وهم عزول من السلاح ولا يخشون لص على الاعتداء  
عليهم ، حتى الوحوش والآفاقي يرهيبهم !

اجتازوا بهذا يردون ، فظنهم لا يربطون البيع بأمرهم ، وكانت قافلة قد  
وصلت من كردقان حكى أفرادها ما فعله هادى وأصحابه في المسلم عليهم  
الردان ، وكيف أنهم قبلوا فرسه ورفضوا دعوتهم ، وما جسر أن يفعل  
دعهم شيئا

لذا أحضر نهر بلادته الصلابة ، وعددها أربع عشرة هي جمل سلاحه  
الناري ، وطلب منهم وهو في غاية اللطف إصلاحها ، فوجدوها تكاد تكون  
غير صالحة للاستعمال ، لكنهم قضوا اليوم كله يربطونها عنها الصدا بغير  
الإمكان ، آخر اليوم شعر نهر بالسعادة وهو يراها لا معة من جديد  
ومواسمها سالكة ، عندما عرض عليهم أن يعملوا لحسابه كصانع سلاح ،  
وطل بفرهم بالأجور العالية وبحاريتين وعبدتين لكل منهم ، فالتذروا في  
أدب وحسن . . . كتم غبطة وألمح لهم إلى ضرورة الأسراع في الرحيل ، فرحلوا  
سلك

وعندما تجهزوا لمواصلة السفر أوفد معهم اثنين من عسكره يحرسون  
فأفلتهم حتى آخر حدود مملكته

دخلوا حدود الدامر ، فاستقبلهم بعض شيوخها من الفقهاء الذين  
يسمونهم فقهاء ، أي فقهاء إلى الله ، ويخالفهم النصوص بسبب معرفتهم لغز  
السحر ، رافقوهم لحراستهم وهم عزل عن السلاح ، بينا لصومس عشرة  
الجعاليين يحومون عن قرب .

لما وصلوا بلدة الدامر وجدوها أفضل من الدامر عاصمة درافور ، وفيها  
من الثفاء نهر عظيمة بالنيل ، وعدد مساكنها نصف عدد مساكن الدامر ،  
نظيفة وعلى شيء من التسقي ، شوارعها منتظمة ، وبسكنها عرب حكام  
من رجال الدين أو الفقهاء ، ورئيسهم الفقي الكبير هو القائم مقام الملك ،  
وهم من عشيرة المجذوب ، ولهذا فإن كل درويش في مصر يسمى مجذوبا ،  
وهم مشهورون بالسحر والعرافة وقرأة الغيب ، ويقولون أن أحد الناس كان  
قد سرق شاة ودبحها وأكلها ، فتمكن الفقي الكبير من كشف سرقة بل  
جعل لحم الشاة في بطنه يدامى !

ثم ارتحلوا إلى بربر ، آخر الممالك الخاضعة لسلطان مصر يومئذ  
منعصات ، ثم حدث ما سوف يكون له أثر كبير على محتويات ابن بطوطه  
وصاحبه الشاطر .

وصلت قافلة كبيرة بتجارة محمد علي ، تحت حراسة رجال الملك  
مساحين أعظم سلاح ، رؤسها مشوق طويل له لغز يرتج إذا هزعت ،  
وعندها فاذن أن راعم في السوق ينجلون فاعرف إليهم . لم يظهروا أحدث  
معه ، وإنما كان عنده من وهو غير محتاج



في الدار الذي ينامون فيه حذرهما :

— أنا أكبر منكما فاسمعا نصيحتي فجاهلا هذا الرجل ، أظنه من  
جواميس محمد علي

قال حثوت :

— لماذا نخشاه ونحن لم نرتكب إثما !

— خرجت شايًا ومأثرا أحرد كهيلا ، ولا أريد إلا تحب المنازل

— بالليل نام هو ، وخافاهما اليوم ، فخرجا ينسيان ، لم تكن بربر سوى  
أربع فرس صغيرة على حافة أرض زراعية ، بينها وبين النهر الذي يشق  
الصحراء مسيرة ساعة . جميع النساء يسن فيها سافرات ، صفار البنات  
عاريات إلا من نطاق من شراب جلدية قصيرة حول الخصر ، بعضهن  
يكحلن ، والمتأنقة منهن تطرح فوق القميص عباءة بيضاء بحواش حمراء ،  
من صنع المحلة الكبرى لوهم أسمر داكن ، للرجال لحى وشوارب قصيرة ،  
شعرهم مجعد إن كان مفصفا ، وإن أطلقوه صار في حصوات هائلة  
وخمرهم من ثقت خبز النذرة وتخميره ، فيصبح هريسة أو كما يسمونه  
أم بلبل ، لأنه يطلق لسان شاربه بالفناء . جميعهم مولعون بالشراب للتحية  
عندهم يقولون : طيب طيب وللأسرة المالكة يقولون : يا أرباب يا أرباب  
لا يقولون السلام عليكم لأنها إشارة الحرب عند حيرانهم من الشائبة  
ومكهم يدفع إنارة ذلك سار ، كما كان يفعل مكوك دنقلة قبل اجتياح  
الأمريك لإقليمهم ، وعرب الشائبة قبل أن يستولوا

لم يجدا ما يفعلانه سوى دخول مشرب الجعة . وجدا رئيس القافلة به  
وعاهما المتجلسي معه . حذر الشاطر صاحبه حثوت بعدم شرب أم بلبل

لكن الرجل طلب لها قدحين منها فذوقا بعضه في حذر ولم يكمل سألها  
من أي بلد هما ، سارع الشاطر برد :

— من القاهرة ، من حي امبابه

— ماذا تفعلون هنا ؟

— في رحلة تجارة ، طبعاً شاهدت بضائعنا .

— بضاعة وفيرة وغالية الشربا ، جعة أم بلبل تذهب بأحزان الشرية  
وتطلق لسانه بالتغريد !

رشفاً قليلاً في حفر وإرتباب سألته محتوت عن أخبار عصر المحروسه  
ومحمد علي وعمر مكرم وسر وجود المالك بدنفلة ؟

قطب الرجل متعجباً :

— ألا تعرفان ما حدث لعمر مكرم ؟ السهم تجاراً ؟ وينادفكم قديسه  
وإن كانت جيدة !

على الفور تظاهر الشاطر بالتأرب ونهض مصرياً بحتوت في الخارج  
عاقبه لأنفلات لسانه :

— أنت عائد من تغريبك الطويلة بدون حكمة الشيوخ !

كان هادي قد دفع ابتارة المرور ، خسة أبواب دهور للملك ، ثوباً لموظفيه  
وأخر لعيده ، وثلاثاً لرؤساء قبيلة البشارية لأنهم سادة الصحراء من بعد  
الخروج من البلدة . تعجل الرجيل فأذن له الملك بالسفر بعد يومين ، وذلك  
كى يتفقدوا بعض الأموال أثناء الإقامة

لكنهم في المساء التالي فرحنوا برحلة رئيس قافلة محمد علي لهم ، بنبعه

بعض خدمه حاملين أطباق اللحم المشوى الساخن وعدة أباريق مملوءة  
بماء أم بابل . رجب به هادى فى تحفظ وادعى التعب والنوعك . رمقه  
حنحوث فى شك وتحفز وظل الشاطر يرفه متوجسا .

أكلوا معه بعض الشراء ولم يشربوا . صلب لهم الأقداح فتجاهلوا . ألح  
عليهم بالشراب فسأله حنحوث بعصبية :

— هل أنت من جواسيس محمد على ؟

قهقه غالبا حتى اهتز لغمده :

— من أجل هذا انصرفنا مبكرا . أنا أكرهه .

— كيف والقافلة التى ترأسها فافلده ؟

— كانت لى تجارنى الخاصة ، وكنت أربع كثيرا . تسعة أعشار الربح فى  
التجارة . ثم جاء هذا الباشا واحتكر لنفسه تجارة الشمع والقطن والكتان  
والسرج والصابون والخيش والكرشم وعسل النحل ، كلما سمع عن تجارة  
رابحة يمنع العمل فيها وينولها وحده . هكذا صرت أجبرا عنده . أنه ظالم  
دموى أمكر من ثعلب !

بدت الحبرة فى وجوههم . قال هادى :

— نغربنا عن مصر وقت خروج الفرنسيين منها ، ماذا حدث بعد ذلك ؟

— حدث الكثير . عاد المماليك أسيادا من جديد . تحكم فى مصر إبراهيم  
بك والبرديسى ، ومحمد على يظهر لها الود . وعساكرهم جميعا ينهبون الناس  
فى الريف والحضر ، يخطفون الثياب والعمايم حتى أن الرجل إذا مشى رباط  
عمامة خوفا منهم .. استجار الأهالى بالمشايخ وتقيب الأشراف السبد عمر  
مكرم . كان السلطان العثمانى تحالف مع الانجليز ليخرج الفرنسيين من

أجل الممالك أرسل إليها جنوداً إلى مصر حكايته تروى للاعتبار اسمه  
على باشا الخزانة ، لأنه في السابق كان مملوكاً لحاكم الجرائز وصل  
الأسكندرية في نفخة كاذبة ومعه ألف جندي ، استقل مركباً كبيراً له  
منصورة عليها يوارق وشرايب ذات ألوان . سار بها من ... إلى قرية  
شلفان ، بعد أن أرسل محمد علي سرا للتحالف معه ضد الممالك . كأنه أراد  
صيد السر بالعراب . نقل محمد علي الرسالة إلى البرديسي وانفقا معا على  
أخذه بواسطة بينهما والموعود في شلفان ، وفيها قتلوه وغنم البرديسي فرقة  
مهاجرة والطبخانة ، أي فرقة الموسيقى وطبول موكبه ، ودخل بها القاهرة  
بين الطبل والزمر !

نأملهم ثم دعا جنحوت والشاطر إلى شراب . حذرهما هادي خفي  
ابنهم الرجل وقال :

— كانوا قد غفلوا أمر محمد بك الأنفي الذي سافر مع الانجليز وغاب  
هناك أكثر من عام ، ويقابل ملكهم وجهزوه لحكم مصر . وقبل أن أخلاقه  
نهبت بما أطلع عليه من عمارة بلادهم وعدلهم بين الرعية ، لا ينهب  
عساكرهم الفلاحين ولا يخطفون قيعات أهل المدن . وأهدوه جواهر وأدوات  
فلك ونظارات لمشاهدة النجوم وأخرى للرؤية في الظلام مثل القنط .  
ومستوفي موسيقى بداخله أجسام تدور على الأنعام .

بعد أن أعدوه أرسلوه إلى شاطي . أبو قير ، فسار من فوره إلى رشيد .  
وفيها اجتمع مع نائب قنصل الانجليز الذي أهداه زورقا ، انحدر به إلى  
القاهرة . وكان محمد علي عرف بعجبه فندس له عند البرديسي . ما طلع  
النهار حتى أغار عليه ممالك البرديسي . في أقل وقت هرب واختفى وهم

حيارتي التجأ إلى عرب الحويطات أجارته امرأة منهم وأركبته فرسا وأمرت  
بجائين يكونان معه ، سارا به ليلا . وكان جالسا داخل خيمة من خيش  
عندما مر محمد علي وعساكره يراهم من الداخل وهم لا يرونه وقد أعماهم  
الله !

اقترىوا منه وقد شدتهم الحكاية قال منعجبا :

— الألفى جبل الصورة أيض مشرب بالحجرة مثل هكذا ولكن بدون  
لغد ، مدور اللحية أشفر الشعر بشيب حكايته مثل حكايات السير  
الشعبية أحبه البدويات وأمثل العربان لطاعته تزوج كثيرات من بنات  
العرب ، التي تعجبه يقبها حتى يفضي وطره منها . لم يبق في عصمته غير  
واحدة هي التي أحبها أظن أنه يملك سرا يسحرهن به . وأخفق محمد علي  
في العثور عليه وعاد إلى القاهرة ، كذلك أخفق مرزوق بن إبراهيم بك !

ابسم تحتوت للشاطر . مرزوق هذا أهله مراد بك وهو طفل البقرة  
الأعجوبة ذات الرأسين ، التي تأكل برأس ونحوها بالأخرى ، وكان ظهورها  
هو العلامة الثالثة المتعككة في حياة تحتوت ، حسبها قرأت العجربة ذلك  
في الرمل قبيل مولده .

نسى تحتوت تحذيرات هادي وشرب بعض الجعة ، سر الرجل وقال :

— الثعلب في الحكاية التي أروينا لكم هو محمد علي . أظهر الود  
للبرديسي وتأخى معه بأن جرح كل منها نفسه ولقي من دم الآخر

ابسم تحتوت والشاطر سبق أن تأخى بالدم وهما صبيان . لكن فرق  
بين تأخى الذئاب وتأخى الأحباب . ضحك الرجل :



— راجت بضاعة الثعلب عند البرديسي حتى أنه جعل حراسي أبراجه  
من الألبان عساكر الثعلب ، الذين طالبوه بأجورهم المتأخرة ، ففرض  
الأموال على الناس ضج الفقراء وخرجت النسوة جماعات وقد صغر  
أيديهن بالنسبة ، يصرخن على دقات المدفوف ١ إيش تاخذ يا برديسي من  
نفليسي ٢ .

كانت فرصة الثعلب للتخلص من البرديسي وإبراهيم بك في آخر لحظة  
أفلحا في الحرب . وطاف الألبان على بيوت محاليتهم ينهبون الحريم والدواب  
والجوارى والغلال والسمن ، وكان انشغالهم بالنهب مسيا في فرار بعض  
المماليك . أنا رأيت النسوة النائحات وكادت أبكي نائرا .

رأى عدم التصديق في عيونهم فصب لهم مريدا من الجعة وقال :

— عين السلطان الزكي واليا جديدا اسمه خورشيد باشا وكان حاكما  
للأسكندرية . وظل محمد علي يزوره في القلعة ويظهر له الود ويحرضه على  
فرض الأنوار ، وينزل ليلال دار نقيب الأشراف عمر مكرم ويتعلقه حتى  
أحبه المشايخ والرعية . ثم إذا الألفي يظهر من جديد !

سكت وسأل تحتوت بغته :

— من أين أنت ؟

أسرع الشاطر يقول :

— أكمل من فضل جنابك

— ظهر الألفي من جديد وتصالح مع الأمراء في الصعيد على ما في  
نفوسهم من ضغائن . وجمع جيشا كبيرا تحرك به إلى القاهرة ، بينما توالى

وصول النجدات إلى الباشا خورشيد ، من انكشازية جيش الأتراك الجديد ،  
ثم الدلالة الأكراد . ما إن وصلوا حتى أخرجوا السكان من بيوتهم بمصر  
القديمة وبولاق ، وسكنوها وأحضروا النحاب والخمور لكن خورشيد باشا  
أسند بهم وأمر محمد علي بأخذ عسكره الألبان ومنازلة محاليك الصعيد  
بالحيا .

خفق قلب حنوت خطف الفدح في عصبية وعجب جميع ما فيه أحر  
وجه الرجل طربا وقال :

— كان المحاليك منحصنين بالحيا عندما وصل محمد علي وحاصر  
أسوارها . وذاق أهالي الحيا العذاب حوالى شهرين . الألبان بالخارج والغز  
بالداخل ثم تمكن المحاليك من الفرار والاختفاء بالصحرَاء الغربية .

شرد حنوت والجمعة تحدر ذهبه إلى أهله بقرية تله ، مشفقا على  
أحوالهم . لا بد أن الغز في هروهم مروا بالقرية . وكانت هذه الأحداث قد  
حلت الأذى إلى أسرته فانهبط دخلها ، لأن أمه العفيفة أم الخير الملهوفة على  
غيابه امتنعت عن النزول إلى النجا وبيع ما كانت تربية من دجاج وبط  
وأرانب واضطر ابنها الأكبر الرئيس مرسى إلى التفرج جنوبا بمركبته عند  
شاطيء ملوى بعيدا عن حروب المدينة ، وصار يست عند ابنته زهرة وزوجها  
بكر ، زهرة التي مازال الشاطر يحبها ويحلم بالزواج منها !

النهم الرجل قطعة لحم كبيرة ، مسح فمه بكمه ، يراقب آثار جمعة أم  
بلبل على الشاطر وحنوت . ثم أكمل حكايته :

كانت القاهرة قد اكتظت داخلها وخارجها بأرامل العسكر مخطفون  
الأرزاق والبسات والغلمان فصعدت السرة فوق المآذن مستجيرين بالخالق

الجبار. استخار عمر مكرم ربه وأخذ المشايخ والناس إلى بيت القاضي بات  
وأصبح وأخذ قرارا هو الأول منذ القدم. استدع محمد علي وحاطبه على الملا  
قائلا :

— عزنا الوالي خورشيد وأخبرناك برأى الكافة لتكون واليا علينا بشروطنا  
ونعيتك فالنظام حني تصل موافقة السلطان من الأسنان. لا نفرض ضريبة  
إلا بعد موافقتنا ، لا يدخل جندي المدينة حاملا سلاحه ، تعيد فتح طريق  
غلال الصعيد إلى القاهرة .

هاج خورشيد وهاج ، فقام الناس بالنابث والسلاح ، سدوا طرقات  
القبعة ومنعوا فتحها الماء . وطاف المنادي بحرضهم على رد أذى العسكر  
بالمسل . ظلوا بحاربون عدة أسابيع حني جاء فرمان السلطان بعزل خورشيد  
المخلوع وتولية محمد علي ، فصار باشا مصر وما انتصر إلا بالسيد عمر  
مكرم والرعية .

تعجب هادي :

— لماذا لم يأخذ عمر مكرم الولاية لنفسه وهو مبدع الموقف ؟

— لأنه مصري ليس عنده مدافع .

أما الآن فقد راح ينتقل كالطائر الجريح من اليوم إلى البحيرة إلى كل  
مكان فيه أعراب . كان ينتظر أصحابه الأنجليز . حارب الألبان والدلاء  
وهزمهم ، ولو طاردهم وأقضى أقبنتهم لدخل القاهرة دون مناع ، لكنه كان  
ينتظر الأنجليز ، يمشى كل يوم بمسالكه وعربانه في بر الجزيرة وأمهاته  
وطبوعهم نصم الأذان ، ومحمد علي يراقبهم من بعيد مرتاعا ، مرة بعينه ومرة  
بالمنظار .

ميرته الأيام ولم يأت الأنجليز ونجلي عن الألفى معظم الأتباع بكى  
وتأمل الحقل والزرع وقال :

— أنظري يا مصر حالك وذل أولادك وقد استوطنت أجلاف الأتراك  
واليهود وأراذل الأتبان والدلاء ، يهدمون دورك ويفسقون بأولادك !

على الفور لحرك به خلط دموي ثقيلاً دماً وقال :

— فنى الأمر وسأمت ، خلصت مصر لمحمد على وما بقى غيرى  
يعمل له حساباً .

— فلما مات اجتمعت بنات العرب ومصرن بندينه بكلام حزين تناقته  
المعمرات على آلات الريانة إلى كل مكان !

رشف هادى جعته على مهل بتأمل الرجل كيف عرف كل هذه  
التفاصيل ؟ أكان من أتباع الألفى ثم انضم للفائر ؟ ماذا جاءهم بالشواء  
والخمر ؟ ماذا يريد منهم ؟

لكن جمع ذلك كان يحدث كى يتم المكتوب على حنوت بن  
رضوان (١) .

---

(١) كان بيت إبراهيم بركة الغيل ، وبيت العريسي في قصر حسن قاشق الذي كان مقر المجمع  
العلمي في عهد الثورة العربية وسكان الأبنية السبيل واحترار الناس محمد على في مايو ١٩١٥ وجاء  
بوصف السلطان في شهر يوليو وهناك رواية تقول أنه عندما كان في جمع فاته قام الولي بيت بالتركية قام  
أحد أمراءه بجمع قتل الطوائف والأعيان واستمع إلى شكواهم ومطالبهم ثم جعلهم يضعون أحاسيسهم في  
الجزء الأسفل من ورقة خالية ، على بعد أن يكتب أعلامهم الثياب إلى السلطان عبد الحميد لتحقيق رغباتهم  
بدلاً من ذلك كتب الشاهما بثبوت محمد على واليا .

• ودلاء كلمة تركية تعني المجنون •





(١٣)

## حضور الأنجال وذبح الأنذال

زاد شكهم في الرجل ، والظلام بالخارج والهدوء إلا من أصوات خافتة  
لغناء السكارى بمشرب الجعة لكنهم أكلوا حتى شبعوا ، وشربوا عنده  
فداح حتى بدأ تأثير الخمر ينسرب إلى الرؤوس ، فتخلوا عن بعض حذرهم  
إلا هادى الذى كان فى كامل بفضته والرجل بصب لها وله ويترنح ويحكى  
أخبار مصر المحروسة .

لم بعد أمام محمد على إلا الممالك بالصعيد والدلاة فى البحيرة ، والسيد  
عمر مكرم والمشايخ ، وكان قد أعفاهم من دفع ضريبة الأرض منذ أن ولوه ،  
فلتعت الثروة بعقول بعضهم واعتقدوا فى دوام الحضرة . حتى مات الألفى  
فطلب أموالا كثيرة من التجار والنصارى ، ثم فرض فردة على جميع البلاد  
للالتحاق على نجريدة لظرد الدلاة فى البحيرة . فصارت كل قرية فيها تتعرض  
لنهبهم أولا ، فإذا انصرفوا دامها العرب وأكملوا النهب ، فإذا انقشعوا  
جاءت نجريدة الألبان وأجهزت على البقية ! أخيرا انزاح الأكراد فاستدار  
لملاقة ممالك الصعيد ، وتوجه إليهم فى المنيا .

توقف الرجل يراقب شحوب حنحو . كان يقاوم النوم بصعوبة فإذا هو  
يتنبه على كلمة المنيا أغرورقت عيناه متذكرا أسرته بشكل مشوش . هز  
رأسه يوقظ نفسه .

في تلك الأيام كان أخوه الرئيس مرسى قد ودع ابنته زهره العفيفة وزوجها  
بكر بن شيخ الأشمونين الطيب عاد بمركبه إلى المنيا ليجد المماليك  
بحكمومتها ويمنعون غلال الصعيد عن القاهرة دهش لأنهم تركوا الأسوار في  
حراسة البدو ، ليناموا هم بين أحضان الجوارى والغلمان

قبل مرور أربعين يوما على وفاة الألفي قدم محمد علي إليهم في جيش  
كبير . أشتري ذمم بدو السور ففتحوا له الأبواب والنديا ظلام ، ليذهب  
المماليك وهم نيام قطع أحلامهم وملذاتهم بقطع رقابهم من فر منهم كان  
في شباب النوم . استرخى هو في دار الكاشف سعيدا ، لكنه سرعان ما اغتم  
وقد بلغه أن الانجليز نزلوا إلى الاسكندرية واحتلوها من عساكر الأتراك دون  
قتال !

هز حنوت رأسه بشدة :

— ماذا قلت !

— كان ذلك من عجائب الاتفاق لو وصلوا قبل ذلك بشهرين لتغيرت  
أحوال الديار المصرية . وكانوا حثالة في سنة آلاف مكثوا ينتظرون مماليك  
الألفي ثم زحفوا إلى رشيد . انحلت عزيمة محمد علي وراح يدبر المصير  
ويتسقط الأخبار وجاءته أعجب الأنباء . سكان رشيد وحدهم صدوا  
الانجليز ، بالنابيت وشباك الصيد وأقل السنادق ذبحوا منهم جملة وأرسلوا  
الزروس المقطوعة والأسرى إلى القاهرة . ردت فيه الروح وفي طريق العودة  
من المنيا بلغه أن عمر مكرم يجهز الرجال لقتال الانجليز ، بينما العساكر في  
القاهرة يذهبون إلى بولاق بحجة الذهاب لمقاتلة الكفار ويحفظون الدواب  
والعلمان ، ثم يهرقون ويراهم السكان في اليومين الثاني والثالث في جهاد  
هو من أهوال الساعة .

أخيرا وصل محمد علي إلى القاهرة صعد إلى القلعة وهبط ، وفصل  
الفرنسيين يهندس له أماكن التحصين تحسبا لوصول الانجليز والرشايمة  
وحددهم بمقاتلون ويرسلون بشاراتهم ، ثلاثمائة وأربعين رأسا بينها الباشا فوق  
البابيت بالأريكة ، بعد أن قطع آذانها ووضعها في ملح في صندوق أرسله  
إلى تركيا مع أسيرين على سبيل العينة ، فأنشرح قلب السلطان اعتبر الباشا  
النصر نصرة وفرض على الناس أبسط الضرائب ، فهاجر منهم المئات إلى بر  
الشام . خطابه المشايخ في رفع الظلم فقال :

— أنا لست ظالما وحدي . رفعت الضرائب عن أطباكم وداوئتم على  
جمعها من الفلاحين ، وعندى دفتر مسجل فيه ما جمعتموه ويبلغ ألفي كيس !  
نم ركب إلى بيت ولده إبراهيم وطلب القضاء والمشايخ الذين مالوا  
إليه ، وأعطى نقابة الأشراف للمشيخ السادات ، وأسر بنفى عمر مكرم إلى  
دمياط . فرحل من بيته إلى منفاه ، وكان هذا بعض ما يستحق لأن من أعان  
ظالما ظلمه !

هب محتوت محمدا في وجه الرجل :

— عمر مكرم أشرف الناس . أنت لست مصريا . أقول لك من أنت ،  
كنت في بلدك خادما أو خطايا وجئت مصر تسيد علينا !

ثم اندفع يريد خنقه لولا أن هادى لحن به وأجلسه ، واعتذر للرجل  
الذى شرب بعض الجعة وزاح بكمل في برودة :

— أرسل محمد علي وأحضر زوجته والأقارب وأهل الأهل ، فجاءت  
ونهبوا على نساء الأكابر أن يركبن لاستقبالها في بولاق . كانت السيدة نفيسة  
أرملة مراد بك مريضة فأجبروها . ليجتمع على النيل خمسمائة سائس

بحسبهم ، فوق كل حمار امرأة تحمل هدايا لنساء الباشا . بعد ذلك وصلت  
أفواج الأنساب والأصحاب ، ونالوا القصور ولبست حريمهم الخواتم  
لكنني لست منهم يا أخى حنوت . أنت من الصعيد ، أليس كذلك ؟

— من أية مصيبة . لا شأن لك بي !

— محمد علي جعل ابنه إبراهيم باشا حاكما على الصعيد لتظهره من قلل  
الماليك ، فقتل منهم من طاله وفر الباقون إلى هنا ، وهذا سبب تواجدهم  
بالسودان . بعد ذلك استدار بذل الصعابة الكرام . رفع الواسطي وأخفض  
العالى سلب نعمة أعزائهم وأخذ الأبقار والأغنام وفرض المعازم الهائلة ، من  
عجز عن الدفع أجرى عليه أنواع الآلام من ضرب وتعليق وكى بالنار .  
نصروا يا أخى حنوت ؟

— لست أخاك !

— بلغنى واستغفر ربي أنه مدد رجلا على خشبة طويلة وربطه  
بالسلاسل ثم جعل رجلين بمسكان بطرفها وبقلبان على النار المضمرة مثل  
الكتاب . وهذا طبعاً حرام يا أخى حنوت !

— في الصعيد رجال . أنت كاذب !

— هذا ليس بمستبعد على شاب جاهل منه دون العشرين عاما ، وجد  
نفسه يتحكم في عباد الله الطيبين ، بعد أن حضر من بلده دون أن يؤدبه  
مؤدب ، لا يعرف شريعة ولا منهيات إلا ما علمه أبوه ، حتى صار الفلاح  
الصعيدى أذل من العبد ، فربما هرب العبد من سيده إن أهانه بالضرب أما  
الفلاح فلا يمكنه ترك أرضه وأولاده . أتوافقني يا أخى حنوت ؟

ظل حنوت جامدا شاحبا برهة ثم انهار باكيا . اهتز لغد الرجل :

— والباشا عزيز مصر احتكر شراء المحاصيل الجيدة بالشمن الذي  
يجمده . من أين أنت يا أخى حنوت ؟  
انفجر فيه بازاء :

— أنت تلف وتدور لتعرف اسم بلدتى . أنا من النيا من قرية نلة . وأنا لا  
أخشاك ولا أخشى ميدك .

ثم اندفع فى عبارات غير مترابطة فضحت جميع ما كان من أمر تغريبة  
مع الشاطر وادريس ثم مع هادى ، والرجل بصفى فى تهلل السكير . لم  
يصدق أن الذهب غير موجود فى جبال القمر ، وأنكر أن الباشا يريد  
احتلال السودان .

ثم وقف لينصرف .

قرب الباب اهتز لغده وقال هادى :

— أنا والله معجب بصاحبيك ، تصبحون على خير !

لاحظ هادى أنه انصرف بخطوات ثابتة لا تنم عن السكر . التفت إلى  
رفيقه فوبخا :

— إن كان من جواسيس الباشا فالويل لنا ! . أن أولان الرحيل .

كانت دوابهم قد ارتاحت ورجعت وارثوت . اشتروا نائتين للشرب من  
لبنها وهم فى الصحراء ثم أسرعوا بالرحيل . منذ الصباح الباكر دخلوا المغارة  
الرهية ، من بربر قاصدين قرية دراو قرب أسوان ، ومدة السفر ثلاثة أسابيع  
وثلاثة أيام ، عبروا فيها واديا زائرا بالأشجار ، ثم آخر اسمه وادى الحمار  
شاهدوا فيه بعض الحمر الوحشية ، ثم صغورا فسهلا فسيحا به نعام



وبعض بيضه الكبير مهشما . تغيرت الأرض من صخرية إلى صحراء دائمة  
اللون ، ارتفعت في جبال شقرة . وأوغنهم بحيرات السراب في زوقة خالصة  
حتى انعكست عليها ظلال الجبال !

ناموا وصحوا وعبروا على بعض أشجار الدوم ، فأرض صخرية ثم راد  
منفتح يزخر بالأشجار . حلفت فوقهم طيور بيضاء في حجم الأوز . هب  
عليهم هواء منعش بسبب انفتاح آخر الوادي على النيل . ثم اجتازوا وادي  
الطواشي المنسوب لأحد خصيان الكعبة الشريفة ، كان قد وفد إلى السودان  
مسولا فقتله قطاع الطرق وسرقوا مبات ملوك القوير وسار له !

صادفتهم أرتال الحراد وتكاثرت تلثمهم الأشجار . ومن وادي كالأ إلى  
تلأل حجرية ودروب صخرية ثم أشجار سبط . حتى دخلوا أرض العبادنة  
المواليين لمحمد علي فاطمأنوا . رأوا بقايا روث ومزق خيام وباب خلفها  
وراءهم المماليك القارون ، وقبرا بني على عجلى .. من جديد صادفوا أسراب  
الجراد ونزفوا أنها متوجهة إلى مصر . حتى دخلوا وادي هود فوجدوا مزيدا  
من الجراد يلثمهم الشجيرات والأعشاب . بذلك صاروا على مسيرة يومين من  
قرية دراو .

استراحوا ثم وأصلوا السير . بانوا وأصبحوا وتقدموا قبل طلعة الشمس  
حتى صاروا على بعد ثلاث ساعات من آخر الدروب . أخيرا داخلوا دراء  
من شدة فرحتهم بالنجاة نزلوا واغتسلوا في النيل المبارك ، غير أنهم  
بالتأسبغ النائمة على الشاطئ .

قال حنوت :

— يا سبحان الله ! أخيرا فوق أرض الوطن !

كانت أسوان على مسيرة نصف يوم من دراو ، مركزا عظيمًا للفواقل جميلة  
بمزارع القمح وصفوف الجمال ، والدواب رائحة غاذية بين أشجار النخيل ،  
والقرى متناثرة والفلائك والمراكب ، والحمام على كل سطح ، ومالك الحزين  
يصطاد السمك بمنقاره من النهر ، والخاموس ينزل على مهل ليرتوي

دفعوا لعمال الباشا مكوسا كبيرة ، ثم باعوا بضائعهم بعد أن استيقظوا  
بعض الهدايا للأهل . لاحظوا أن الطرقات صارت آتة ، وإن كانت القرى  
معانى البؤس مع ذلك كانوا متعشين صواح الشاطر من فوق جملة :

— أربعة عشر عاما من الغربة رأينا فيها عالم يره الاستبداد في رحلته  
السبع .

هز حنوت رأسه :

— تقرب أنا وأنت الآن من الثلاثين ، لن نرمل أبدا لأي سبب كان  
نزوج ونعجب لابد أن الأسرة تضاعف عددها الآن !

هذا ما قرأه لكن المكتوب لم يكن قد تم جميعه وللأنداز نصاري  
أخرى ، جبل بها في بطن الغيب<sup>(١)</sup>

---

(١) نولي محمد علي في مايو ١٨٠٥ — ومات الرئيس في نوفمبر ١٨١٦ والألف في يناير ١٨٠٧ —

وزيل الأنجليز الأسكندرية في ٢١ مارس ١٨٠٧

( ١٤ )

## زوال الأمان بالقبض على رضوان

أما ابنة الأصول الشريفة العفيفة أم الخير ، فهي عندما أمرت ولدها خنحوت منذ أربعة عشر عاما بالخروج للبحث عن أخيه الكبير مرسى ، ثم عاد مرسى ولم يعد هو ، راحت تتوقع عودته ، وبقيت تنظر صوب الطريق القادم من الشرق عله يكون آتيا ، وأيضا إلى طريق الغرب ، لأن مرسى عاد لها عن طريق الصحراء ، أبناؤها يعودون من أى اتجاه ، المهم أن يعودوا ، وكانت دائمة التحدث عنه ، وتحرص على أن تحفظ له نصيبه من كل وجبة حتى إذا عاد وجد طعاما جاهزا ، وكلما رافقتها فتاة فكرت فيها عروسا له

وكان زوجها رضوان وابنها الرئيس مرسى يشفقان عليها مخافة ألا يعود الغيب ، فلما طال الغياب كفت عن ذكره أمامهم ، لكن الهاما ما جعلها موقنة بسلامته ، حتى أنها آمنت بنبوءة العجربة التى ظهرت وتنبأت واختفت ولم يعرف أحد عنها شيئا . رغم زيادة عدد أفراد الأسرة ظلت تحفظ بمكان نومه نظيفا ، له ولصاحبه الشاطر الذى أضافته إلى الأسرة منذ عرفت أنه يتيم !

غير أنها منذ أسابيع فاجأت أسرتها بعودتها إلى الحديث عنه ، دهشوا وكان أكثرهم دهشة نسلها الذين ولدوا فى غيبته ولم يروه ، سألتها الرئيس مرسى عن سر تذكرها لخنحوت ، ابتسمت وقالت :



— بأنثى في المنام كلما غفوت

بعد آخر أحلامها استيقظت والطيور والناس في سبات ، ونهضت بشدة  
واغتسلت ثم أبغظت أهل الدار وجعلت زوجها يخرج إلى الغيط وبعد  
الأحفاد ، الشغل مع مبروكة زوجة ولدها مرسى في تنظيف الدار وتربية  
ومبروكة متعجبة لكنها تعودت منذ حضورها الدار على طاعتها والفتة  
برحابة عقلها ، وبعد أن تم جمع ذلك صعدت إلى سطح الدار وراحت  
تربط الطريق الشرقي معظم الوقت والطريق الغربي أحيانا ، كلما رأت شيئا  
قائما من بعيد دفقت النظر إلى أن تتأكد من أنه ليس حنوت ، فكررت  
كذلك في مقبر صاحب الساطر البسيم ، لم تحلم به لكنها دعت أن يعود مع  
ابنها سالما ظافرا ، ظلت في محل رصدها حتى علت الشمس وحملت وعندئذ  
نزلت ووجهها في حمرة النعاس والعرق يجعله لامعا ، ثم نادى على مبروكة  
وأشارت إلى أربع دجاجات سمان وأمرتها بمرطها جانبها ، فنظدت الطلب وقد  
زادت دهشة وسالت :

— أنتظرين ضيفا يا خالة ؟

فأبسمت في صفاء :

— أنظر جييا .

ذهبت مبروكة ، بينما كان زوجها مرسى في ذلك النهار قد رفع عرسا  
مركبه وبدأ ينعد عن موردة الخش ميناا الحيا على النيل المبارك ، عندما  
سمع صوتا يناديه .. التفت فرأى رجلين يلوحيان له من فوق جملين ومعهما  
ثلاثة جمال محملة ، فظنها تاجرين ، لكنه تذكر صوت المنادي رغم نغم  
هيبته ، بقي لا يصدق أنه يرى أخاه الصغير حنوت وصاحبه الساطر بعد  
غية أربع عشر عاما أو أكثر !



عاد المركب إلى الشاطر وأرغم حنحوث في حضن مرسى ثم جميع  
 النوبة ، ورحبوا بصاحبه ، وتاملهم وتاملوا فعل الزمان فيه ، سألهم فني وعاد  
 رجلا بناهر الثلاثين ويبدو كأنه في الأربعين . طلب مرسى من نوبيته أن  
 يرتحلوا بدونه ، فأقنعوا من جديد وبقي هو مع أخيه والشاطر ، وظال  
 الحديث وكثرت الأسئلة والأجوبة والأحضان والقبلات ، وعرف حنحوث أن  
 عمه الرئيس جابر أستاذ مرسى قد رحل منذ عامين إلى دار البقاء مغادرا  
 الدنيا دار الفناء . فحزن عليه وترحم ، ثم سأل عن المواليد الجدد في أسرته ،  
 ثم أصر على التوجه إلى الحمام العمومي للاستحمام على يتوجه إلى أمه نظيفا  
 منعظا .

وبنها هو يستحم عرف أن أمه صارت جدة لولدين وبنت من سنية  
 أخته ، وأن مرسى ذاته أصبح جدا لثلاث بنات وولدين من ابنته منصور  
 ومنصور ، وأن زهرة تزوجت من بكر بن شيخ الاسموني لكنها لم تحب منه ،  
 وهي التي كان حبها قد وقع في قلب الشاطر وتمناها امرأته !

كانت أم الخير ترش المكان أمام الدار ، ومبررة يزداد عجبها لأن حمامها  
 ظلت تفعل ذلك بنفسها طوال الأيام السابقة ولم تكن عاداتها ، ثم أنها  
 التفت نحو الشرق فرأته ركبا من حمار ولحمة جمال ، تبينت فوق الحمار  
 ولدها مرسى ، فدق قلبها بعنف ، وأبقت أن الرجلين الآخرين هما حنحوث  
 والشاطر ، وصعدت الدماء إلى رأسها بسدة حتى إنها شعرت بدوار  
 خفيف ، وقالت :

— صدق قلبي .

ما أن اقترب المركب حتى قفز حنحوث من فوق الجمل من قبل أن يبرك ،

واندفع إلى حضن أمه التي ظلت تجذبه إلى صدرها وتقبله ودموعها تال وجنتيه ، ثم نهبت إلى الشاطر الجميل الطلعة فتقدمت نحوه ، مد يده بحبيها لكنها جذبت إلى صدرها فأحس بالطمأنينة ، وتذكر حضن أمه التي ماتت وهو طفل ، وسالت دموعه على صدر أم الخير ، التي نراجعت خطوات تمنع ناظرها برؤيتها ، وفجأة تجهمت ورفعت أصبعها غاضبة في وجه حثوت :

— أربعة عشر عاما ، كيف طارعت قلبك ؟

ثم صاحت في الاثنين :

— تستحقان عقابا شديدا .

استدارت داخلة الدار وهم في أعقابها ، ونادت على مبروكة زوجة مرسى التي رأت حثوت فنامته ، وخجلت أن تأخذه في حضنها وقد صار رجلا وهضت :

— يا ربى ، جنت أما الدار وأنت نجو ، وأنا من علمتك المشي ، الآن صرت رجلا !

ثم تحركت تنفذ أمر حنانها أم الخير بفتح الدجاجات الأربع التي اختارها في الصباح ، وهي تقول لمبروكة :

— قلت لك إننى أنتظر حبيبا .

نامت الشاطر واستدركت :

— أخطأت سامحنى الله ، بل حيين .

نامها حثوت فوجدتها نظرة جميلة كما تركها رغم أنها تقترب من

السنتين ، ورأى عينيهما الخورابين أسرثين كعهده بهما ، كان مرمسى قد توجه  
إلى الحفل يجبر والده رضوان الذي جاء مهرولا مع أحفاده ، وكان لقاء ،  
ورأى الأحفاد حثوت لأول مرة في حياتهم بعد أن سمعوا عنه من أم الخير  
مرارا .

أخرجوا الغدا بالعجينة التي أحضرها من بلاد السودان ، وجلست أم  
الخير تحرك الغداء أمام وجهها بهروحة بديعة من ريش النعام الغالي ، فكانت  
أول فلاحه في بر مصر تفعل ذلك . وأخرجوا العاج والحرير الهندي والتعمر  
هندي وسبعة أصناف أخرى .

وكان الخير قد فشا في القرية كلها فأمنات الدار بالوافدين للتحفة ،  
وجاءت سنبلة أخته وزوجها أمين وفريتهما ، ثم انتقلت الجلسة أمام الدار  
فوق الأرض المرشوشة ، والجميع في النهار من حكايات الشاطر وحثوت  
في ممالك السودان وسلطنة الفنج وسلطنة دارفور وأرض الشاذلية ومنابع  
النيل والشلالات وأقواس قزح ، حتى أن أحدا لم يشأ النهوض عندما جاء  
موعد الطعام ، والقلوب هائه والسعادة مرفرفة . أمرت أم الخير حثوت  
والشاطر بعدم التغرب ثابة فواعداها ، ثم نظرت إلى الشاطر وقالت في  
صراحة عجيبة :

— يا لطلعتك الجميلة ، من أجلت زواج زهرة أكثر من عام ثم اضطرت  
للموافقة ، حررها له أفضل علينا لا تنسى لكن اطمئن ، سأختار لك  
عروسا لائقة ، أنت أولا ثم حثوت

نادما في المكان المعد لها منذ أيام ، وفي الصباح سألتها رضوان عما ينويان  
عمله ، فقال حثوت :

— قررنا أن نعمل بالتجارة ، معاخرة طيبة من المال

فأحرق وقال :

— بحر التجارة قارب الخفاف ، احتكر الباشا لنفسه معظم

الرزق بما ولدي ، حتى المذبح النسي في بيوت العباد لا ينفري نسجتها إلا

عماله ، فكيف أمك عن نسجتها البديع إلا لنا وصارت معظم مراكب النيل

ملكه وملاحوها خدما عنده . ما بقي حرا إلا القليل مثل أخيك مرمي الذي

نضرب كثيرا . وزاد البلاء بوصول أسراب الجراد حاجبة قرص الشمس ،

حطت وأكلت كل أخضر !

طالت الأحاديث والسهرات ، ورثف الغناء على الجميع ثم وصل القرية

أحد عمال الباشا في حراسة العسكر يريد أن يفرض على الفلاحين شراء

النشوق . تصدى له حنوت قائلا : أن الفلاحين لا يستطيعونه خدمة

الرجل في تروعد قائلا : أخذتموه أو لم تأخذوه أنتم ملزمون بدفع ثمنه . إحد

حنوت لكن الشاطر أخذه بعيدا لأن الفلاحين سبق لهم أن اشترؤا

النشوق .

مر أسبوع وعاد العامل والعساكر يريد أن يبيعهم خمر العرفى بحجة أنه

مشروب يقوى الفلاح في عمل الزراعة وشغل الشادوف ! هذه المرة دفع

حنوت صاحبه الشاطر بعيدا قائما ومنع الفلاحين من الشراء لأن هذا ضد

الدين ، وتم له ما أراد ، وانصرف العامل والعساكر بغير ثمن !

ولم يكن رضوان مرتاحا لاندفاع حنوت . لكنه شكك قائلا :

— عيد الفطر الأخير لم يكن فيه من علامات الأعياد إلا فطر الصائمين

هذا الباشا يا ولدي جبار أذل المهالك العناء . أخباره تملأ البلاد ، يسمعها

موسى في نوحاله ورثه الرزق وبأثني ليرويه لنا. أخبره أطباؤه الطليان أن تدفع  
اليهائم في البيوت من أهم أسباب انتشار الأوبئة ، فأمر بآلا تدبج بهيمة إلا  
في مدايحهم وبعد التأكد من سلامتها ، وحمل على كل رأس تدبج مئذنا إلى  
جانب أنهم يأخذون السقط والجند . هو ينفق على حشته بالحجاز وعلى  
حفلات الزواج ونحن الفقراء ندفع !

وكان القمر ينير السماء وأم الخير جالسة تأمل حنوت والشاطر ، بينما  
رضوان يحكى كيف أن الباشا زوج ابنة محمد بك الدفتر دار منوى شئون  
المال ، وابنة اسماعيل من ثرية تركية ، وأن هذا الأعيان وحرصهم انماالت  
على العرسان بالأوامر ، إن كانت الهدية غير باهظة الثمن ردتها زوجة  
الباشا ثم حدثت في الرقة التي شاهدها موسى أحداثا مساوية ، إذ أطبق  
الجو وأمطرت السماء فتوحلت الأرض وتزحلق معظم الناس وتلفظوا !

مع سيرة الزواج قررت أم الخير تزويج حنوت والشاطر في ليلة واحدة ،  
حتى تدخل الأفراح دارهم من بعد طول كآبة

ثم جاءت زهرة مع زوجها بكر من الأسمنين لثرب بعينها حنوت  
رأها الشاطر فتلون وجهه بسبب الحب القديم . لم يزد حديثه معها عن  
التحبات حتى سافرت . لم يكن للمسكية نسل ، فكلما أنجبت طفلا مات  
بعد الولادة ، مثلما كانت أم الخير في بداية رواجها !

ثم إن أم الخير اختارت عروسين . ميسورة لابنها من الرحم حنوت ،  
وغندورة لابنها بالثني الشاطر ، وانهكوا في الاستعدادات وشراء  
المفروشات والحصر وحلوى الزفاف . أتفق حنوت والشاطر دون شع  
شيلدا دارين متجاورين .



بعد أربعة أشهر تحدد اليوم الموعود . وهما لا يملآن الحديث عن رحلتيهما  
شاعت مغامراتهما في القرية والنيا وزددها الرئيس مرسى على طول بحرى النبل  
المبارك .

ثم جاءت زهرة ثانية مع زوجها بكر للمشاركة في الأفراح . هذه المرة دق  
قلب الشاطر صاعها وضاع منه الكلام . وما كان حالها بأقل منه . لكنها  
ثماسكت وحينه بأدب العزفة إلى الأصول . عندما انفرد بها قال في حيرة :  
- المفروض أن تكونى أنت عروستى !

ردت فى أسى :

- ربما كنت مثلتى . أنجبت من زوجى أربعة أطفال ماتوا جميعا لأنهم  
ولدتوا ضعفاء ، وحمى ضعيف . وبكر زوجى يعنى ويخون على .  
ولما تحدث مع زوجها بكر وجلت رفيق المعشر مهذبا ترميها فأحبه .

في اليوم السابق على الزفاف ، والاستعدادات في ذروتها ، والقرية تنأهب  
لزفنين وطبول وزمر وحلوى وأكل ، حدث ما لم يكن على البال . كانوا  
جالسين إلى العشاء يتحدثون عن الغد وأفراحه ، فجاء سبعة من عسكر  
كاشف النيا المسلحين ومعهم سراج موقد . طلبوا رضوان ، فلما خرج لهم  
هجموا عليه وقبلوا يديه ومضوا به بين نباح الكلاب ووجوم الجميع .

ثم ذلك بسرعة بالغة حتى أن معظم أهال القرية لم يتجمعوا كعادتهم  
بعد الصدمة حل الغضب ثم الحيرة ، لأن أحدا لم يعرف السبب . والظلام  
فوق القرية والنواحي حصار مفهوما أن أبواب النيا قد أغلقت ، ولن يستطيع  
أحد الدخول .

أمضوا إليهم في هم وكدر . شك خنوت والشاطر ومرسى في أن أحد  
العسس سمعهم وهم يتحدثون عن محمد علي قبل الشروق كانوا أول  
الداخلين إلى المدينة اتجهوا إلى بيت الكاشف رأسا ، والمدينة ما زالت  
نائمة منعهم الحراس من الدخول ارتفعت أصواتهم في غضب وهياج ،  
خرج أحد الصناجق يستطلع الأمر عرف سبب مجيئهم فقال في انضاب :  
— نقلنا أوامر أفندينا عزيز مصر

— وهل يعرف عزيز مصر فلاحا عجوزا مثل أبي رضوان !

— الباشا يعرف كل شيء

— فلماذا أخذتموه ؟

— الباشا وحده يعرف . نحن لا ننافس أوامره انصرفوا من هنا وإلا

أمرت العسكر بجلدكم

انصرفوا موقنين أن الأمر لا علاقة له بأحاديثهم عن محمد علي وإنما  
بعامله الذي جاء يبيع لهم خمر العرقى وتصدى له خنوت ومنعه وقفوا  
حائرين عاجزين إلى أن خطرت لمسى فكرة . أخذ الشاطر وخنوت وتوجه  
سهما إلى بيت الصراف المختص بقريتهم . قابله وما عرفوا إلا أن الأوامر هي  
بالفعل أوامر محمد علي ، وهذا ما به شبه وبجيرة حك دقته وقال :

— هذه أول مرة في حياتي أسمع أن الباشا الوالي يستدعي فلاحا ، في

الأمر سر غامض !

خرجوا من عنده . توجه مرسى إلى مركبه عاد خنوت والشاطر إلى  
القرية بخطوات الخفية والغم ، والقرية كلها في حزن وهم ، وأكثر البيوت  
حزنا بيوت رضوان والعروسين ، لأن الزفاف تأجل . تكرر نزول خنوت  
ومصاحبه وأخيه إلى المساء من غير طائل

بعد ذلك بأسبوع جاءت غيرة العساكر من جديد : يسعون في  
جوادين ، نزلوا أمام الدار وطلبوا حنحوت والشاطر بالاسم . وقت أم الحارث  
أمامها تحميمها بجسد هذا الرقيق ، فجمع أهل القرية غاضبين ، فوجها برأس  
العسكر يترجل مبتها في أذب جم :

— اطمشي يا هانم أفندينا يريدهما وأوامرنا أن نعاملها معاملة فـ

فكان أول عسكري يرويه مبتها في قريتهم ويخاطب فلاحه بلطف  
هانم ، أشار إلى الجوادين ، فنقدم حنحوت أولا فأنالا للشاطر

— على الأقل نعرف سر اختفاء والدنا رخصوان .

انصرفا مع العسكر ، وأم الخير ومبروكة والأولاد والبنات ، وجميع القرية  
يودعونها بدموع غديبي الحيلة ، حتى اختفت الغيرة في الأفق العبد

## ما قاله الباشا الحوت للشاطر وحتوت

ما إن وصل حنحوت والشاطر إلى مدينة المنيا في حراسة العسكر حتى  
 جذا أحد الغلايين القوية في انتظارهما على النيل أمام بيت الكاشف .  
 بمجرد أن أصددهما رئيس العسكر إليه ، تحرك بهما على الفور صوب  
 الشمال ، جلسا فوق الغليون لا يفهما شيئا ، الجميع يعاملونهما في غاية  
 شأب ، وهما في غاية الذهول . في وقت الغذاء احتضروا طعاماً فاخراً ،  
 رئيس الغليون يحاملهما ويلاطفهما . ومن شدة حيرتهما أصيبا بعدم التفكير  
 جلسا واسترخيا وراحا يغلان أنظارهما من مياه النيل المبارك إلى طيور  
 السماء إلى الثرى التي يعبرون من أمامها ، وعند الليل كانوا يرسون في نهر  
 القديسة ، حيث وجد بها حامية مقيمة على الشاطئ .

رحب بهما رئيسها وأعد لها جوازين ، ورافقهما مع ثلة من الجنود إلى أحد  
 بيوت القرية داخل المدينة ، حيث باتا ليلتهما في نوم منقطع من شدة  
 تعب والارهاق والتوتر .

في الصباح صحبهما إلى نهر بولاق ومنه ركبا غليوناً قوياً من غلايين  
 الباشا سار بهما إلى نهر رشيد على البحر المالح ، فباتا ليلة ، وعند الفجر ركبا  
 إلى الاسكندرية حيث كان الباشا هناك ، انزلوهما في قصر بديع بحرمه  
 لعسكر من كل جانب ، وإن كانوا قد تركوهما بنحولان خلال القصر  
 يستانه كما يشاءان ، مع إظهار الاحترام الزائد لهما .

ظلاً في هذا القصر ثلاثة أيام لا يجادتها أحد أو يجيب عن استئجارها ،  
اليوم الرابع جاء من يصحبها إلى قصر الباشا المظلل على البحر لثوبها  
وتسلعها عند الباب الخارجي ضابط كبير أبيض البشرة في أحمر ،  
البدن ، تبعه خلال بستان واسع عامر بأشجار التين وكروم العنب والصفوة  
الزهرة ، وسار بها عدة دقائق حتى باب القصر ، ودخلوا فإذا بالقصر مشيد  
كأنه من عمار ما يكون ، مذهب الجدران على السقف ، ثم صعد بها الدرج إلى  
الطابق الأعلى وأدخلها غرفة وتركها بعد أن أغلق عليها الباب ، ولم يبق  
أحد من القدرة على الحديث إلى الآخر ، ولم يجد في ذهنه ما يريد أن يقول .

بقيا على هذه الحال أكثر من ساعة ، ثم حدثت حركة وفتح الباب ،  
ضابط آخر أحمر اللون شكري أو تركي أشار لها أن يتبعه ، فذهبا  
ممرات طويلة على جانبيها التماثيل المذهبة والمفضضة ، والمرابيات المصقولة  
من الأرض إلى السقف العالي ، والنخفات والتربات منديلة ، والمرامير  
وقوافل التماثيل كل عدة خطوات ، حتى أوقفها أمام باب مرتفع ومزخرف  
ودخل وغاب ثم عاد يشير لها بالدخول .

مثل المحذرين دخلا ، فوجدوا غرفة فسيحة جداً ، ومفتحة ، تحبس الهواء  
عند آخرها ومن وراءه جدار كامل الزجاج يحاط بالسباكر ، وورقة السباكر  
ورائه ، وأصوات المرح مسموعة ، خيل إليهما أن المسافة إلى طرفة جدار  
بعد وقفة حمود تحركاً صوبه ، شاعرين بأن المسافة لن تنهى وداع حمود  
يصحب خطواتهما ، متباً وتقدماً ، ونظرات الباشا في عينيها وهو يمشي  
الشبك الذهبي .

أحسا رجفة الرعب ، بعد وقت حسبه دهرأ تسجراً على بعد أمدار من  
فنفحصهما بنظرات قاسية سحبت الدماء من جميع أطرافهما ، ثم أشار عليهما



يقتربا فتقدما حتى وقفا من جديد . تركها جامدين إلى أن أشار لها أن  
يجلسا ، فجلسا فوق مقعدين وطبيين بلا مساند ، وبقي يدخن ويخرج  
الدخان من فمه وتحتى أنفه حتى شعرا بالأرض تدور ، ذكرتهما عيناه بعيني  
يونائيرته عندما وصل إلى قصر الألفى بعدان الأربكية لأول مرة ، كان يبدو  
مثل نهر يستعد للانقراض ، لكن يونائيرته كان في الثامنة والعشرين وقتها ،  
والباشا في الخمسين تقريبا الآن ، وفي عز مجده بينا يونائيرته منضيا في جزيرة  
صغيرة خاملة الذكر<sup>(١)</sup> .

سأل محمد علي عن أيها المدعو حنوت ، فابتلع ريقه وقال بصوت  
راجف :

— أنا .

بعد فترة صمت وتدخين وتأمل قال له :

— أبوك رضوان بخير أطمئن ، وهو خفيف لدى كاشف الدنيا .

فشعر بارتياح ، ودام الصمت إلى أن سمع الشاطر نفسه يسأل :

— لماذا ؟

ثم سكث عروبا من نظره الوالى الفاسية ، لما طال صمته أمره الباشا أن  
يكمل سؤاله ، فقال :

— لماذا أخذتموه ؟

(١) جزيرة سانت هيلانة التي سرق يعموتها العام ١٨٢١

— لأنى أمرت .

الفتى إلى ختوت :

— سوف يبيت أبوك الليلة في داره ، هل فهمت معنى ذلك ؟

فهم أن بامنا مصر يريد أن يكون طوع أمرة والا نكل بأسرته ، لكنه لم يتكلم . وقال محمد على :

— ميرة رحتكما على لسان الكافة في أنحاء الصعيد ، كلامكما شمر ، والكلام الكثير خطر .

فاطرقا في خوف ، حتى قال بعد مزيد من التدخين :

— عندي تقرير عنكما جاءنى من بربر وقيل وصولكما إلى مصر ، أريد أحد عمالى .

دهشا ، وخيل لهما أنه ابتسم وقال :

— تحدث تقرير عمالى عن رحلات وأسفار لكما في دارفور ومن الصحارى والأدغال حتى أعالي النيل ثم على مجراه من حلفاية حتى بربر

قال ختوت مندهشاً :

— لكننا لم نقابل أحداً :

لكن الشاعر قال :

— رئيس القافلة الذى قابلهنا في بربر وكان متجهاً إلى سنار .

— عظيم يا ولد ، كان أحد عمالى .

— جاسوس لجنايتك .

— أحد عمالي يا ولد ، لي عمال يذهبون دائماً إلى السودان وبلاد الشام ،  
وحتى بلاد السلطان ذاته ، والآن حدثاني عن جميع ما مر بكم منذ وصولكم  
إلى بلاد النوبة .

فراحا يبأدلان الحكى ، وباشا مصر والحجاز يستوفضها كل حين بشأن  
امسئلة ذليقة عن الناس وعاداتهم وما يعجبهم وما بغضبهم ومدى  
غصوعهم لحكامهم ، والأحزاب المتنافرة هناك ، وعن الجيوش في كل مملكة  
حلوبها ، وعن قوات الشاذلية وبوعية سلاحهم وكفادتهم القتالية ، وسلطان  
دارفور وجيوشه وأخوته المتنازعين ومساجين جل مرة ، ونظام الحكم عنده  
خاصة الخواكير التي وزعها على رعاياه بعد أن جعل نفسه مالكا لجميع  
الأرض بها عليها ، واهتم تماماً عندما حدثاه أن الجراحة في دارفور متقدمة  
جداً بسبب كثرة الحروب ، خاصة التجير ولأم الجراح ، حتى أن منهم من  
يزيل الماء الأبيض من العين !

لما سألهما عن قبائل البدكا وعقائدهم وأسلحتهم احتصروا الأحابة من  
أهل صاحبهم إدريس الذي صار اسمه أبوت حامل الرمح المقدس ،  
سألهما عن مملكة الفنج فقال الشاظر :

— لم نذهب إلى غاصمتهم سنار ، عمالك وصلوا ، لكننا سمعنا - والله  
أعلم - عندما كنا سنلدى أن ملكهم الشاب ضعيف مهزوز ، يعيل إلى  
الطيش والملاذات ، يحب التذليك بكلمات كبيرة من دهن اللبل فلما منه أن  
هذا يجعله قوياً مثل الثعلب ، وأنه شعوف بالحریم البدنيات !

ومعه نظره غامضة من عينه الباردة متوقفاً عن التدخين . أمسك  
بمصبحة عالية وقال :

— وما عيب البديئات ؟ أكمل .

— وإن الشخصية القوية هناك هو محمد ولد عدلان ، أما السلطان فقد صار إمعة ، ومحمد هذا سليل الشيخ عدلان الذي كان في حياته شخصية قوية ، وكان يعيش خارج سنار ، ويقال أنه كان زعيماً حقيقياً من زعماء الصحاري ، يزدان مثلها يفعل ولده شوب من الساتان القرمزي وفي حراجه خنجر مطعم بالذهب ، وفي أصبعه خاتم ضخيم من الباقوت الأزرق وثأبه أمير مملوكي ، ويخف به العبيد المقاتلون ، له فرقة من الخيالة مشهورة جداً في سنار ، وفي جميع الممالك الخاضعة في سندي والداير وبربر ، يستأجرون صهوات أربعمائة جواد عربي أصيل . وكان يمتلك قميص زره من فولاذ يغطيه ليلاً بجلد غزال لحمايته من ندى الليل ، وله خوذة نحاسية وسيف عربي له غمد من الجلد الأحمر . هذا ما سمعناه ولم نره . وجميع هذا لا يصمد دقيقة واحدة أمام مدفع قوى من مدافع أفندينا .

ابسم محمد عل وهو يترك المسبحة :

— الانتصار لا يكون بالمدافع وحدها ، بالكذاء .. عندما كنت حدياً صغيراً في بلدتي قوله ، وهي من ثغور مقدونيا بلد الاسكندر الأكبر ، حدثت أن رفضت إحدى القرى دفع ما عليها من ضرائب وجاهرت بمصل الملاح ، وأخفى عسكر عمدة مقدونيا في السيطرة عليها . فأخبرت أبا عشرة من رفاقي الأقرباء وتوجهت إليها . ذهبت راسماً إلى مسجدنا ونظاهرت بالصلاة فاطمأنوا إلى . من الجامع أرسلت من يستدعي أربعة من أعيان القرية بحجة مقابلتهم في أمر يخصهم ، فلما حضروا قبضت عليهم وكبلتهم بالسلاسل وهددت بقتلهم ، فامتنع الأهالي عن المقاومة . أمدت

الرهائن الأربع إلى قولة ، واضطرت القرية إلى دفع ما عليها لإنقاذهم .  
هكذا هزمت كثيرهم بذلكى ، فرح العملة وزوجنى من قرية له مطلقه  
وثرية هى أم ابراهيم وطوسون واسماعيل ، واسماعيل ولدى سوف تعملان  
معهم . هل فهنما مغزى القصة ، بكثير من الذكاء وبعض القوة يحقق  
الإنسان ما يريد .

حيث مفكراً وهو يبحث بعلة تبغ ثمة ثم قال :

— وبعض الحظ طبعاً . عندما جئت إلى مصر أول مرة كنت ضمن  
الحملة التركية التى تولت شواطئ أبى قير لطرد الفرنسيين . بخطط ذكية  
جداً أباد نابليون معظمها ، وأوشكت أنا على الغرق لولا ان انشلت زورق  
الجليزى مصادفة . ضربة حظ ، ولو عرف الانجليز اننى سوف احكم مصر  
لذكرونى أغرق . كانوا يحسون الألفى وأخذوه إلى بلادهم مدة عام أو أكثر  
ودربوه ثم أعادوه . لكن الحظ خدمنى ومات قبل وصول حملتهم الخائبة  
التي هزمتها فى رشيد .

أطرق حزينا :

— خدم الحظ أيضاً ابنى طوسون فى حرب الحجاز . كان الرهايون قد  
قردوا على السلطان المعظم وفشل جنوده فى استعادة الحجاز منهم ، لجأ إلى  
فارسلى ابنى طوسون بقوات مناسية ، بعد كرفر وشراء الدعم بالمال نجح  
فى فتح مكة والطائف . وكنت الحفل بهذا النصر فى القلعة عندما جاءنى  
فتصل برساً وأخبرنى أن نابليون بعد أن هبم على بلاد النمسا أخذ جيوشه  
ورحط إلى بلاد الروس واحتل عاصمتهم موسكو .

فرحت لأنى كنت أحب نابليون وأمرت بإطلاق مدافع القلعة ابتهاجاً ،



لكن سرعان ما انعكس حظه ، وضاع حظ طومسون في الحجاز ، ثم عدهم  
الحظ ، فكما مات الألفي في الملحطة الحاسمة مات سعود كبير الوهابيين  
وحمل ولده عبد الله محله ولم يكن له بأسه .. نابليون المسكين الآن صار ..  
في جزيرة سانت هيلانة !

قال شارحاً :

— بالذقاء والمآل وبعض الحظ والقوة يحقق الرجل ما يريد .

أطرق صامتاً برهة ودمعت عيناه :

— لكنني فقدته ، ابني الحبيب طومسون وهو ذوق العشرين . لعب كثيراً في  
حرب الحجاز فأرسلت إبراهيم مكانه . بعد أن غاد المسكين لسانه  
بالتوجه إلى رشيد للاستراحة . أخذ معه المغنبي والعازقي وبعض النصارى  
والمغنيان الترك الملاح . هناك أصيب بالطاعون ، فعمل المسكين  
ساعات ومات وانتفخ جسده وازرق ، وأعادوه إلى بالقاهرة في صندوق  
أميرت بوضع تاج الوزارة على رأس نعشه ، وسرت وراءه أبكيه ، ورجل  
بشؤون القروش والدراهم ويتحرون الجواميس المكبار لئلا يقعها سائر الناس  
رحمة عليه !

استرد صراته فجأة وسألها ان كانا بلعيان الشطرنج أو الترد ...  
ذلك . قال للشاطر :

— خلاصة قولكما ان أهل السودان طيبون وحكامهم مكروهون !

— هو كذلك يا سيدي

حدجه بنظرة فاحصة ثم عاد يستجوبها بأسئلة أدهشتها حتى أحس  
كان معها ، وبقيا صامتين حتى قال :

— الأخباريات عندي كثيرة لكنكم اهتمتوا عن الآخرين بوفرة المعلومات وكثرة التفاصيل عن الناس ، أنتم أكثر ذكاء ، وأنا أحب النجباء منذ شهر استدعيت هنا رجلاً يعرفكم هو محمد بن عمر التونسي ، كان معكم في رحلة دارفور ، حدثني طويلاً عنها ، فقد عاش هناك مدة طويلة ، تكلمني عن طريقة زواجهم ، لكنكم تفوقنا عليه بزيارة الدنكا وأعلى النيل وحلقابة وحتى أسوان . التونسي عيت واعظاً في جيشي بمرتب طيب ، وأنتم سوف تكلفكم بعمل قريباً ، وتكلفني أمر لا يرد .

سأله ختمت عن هذا التكليف فزجره :

— لا تسأل يا ولد . متعرفك في حينه .. كتبنا تسعدان للزواج أليس كذلك ؟

— نعم ، قبل اخذ أبي يوم

— مسعودان إلي فريتكم وتكثان بها ولا تغادراها ، ويامكانكم الزواج الخميس القادم ، لكنكم هذا .. لكن حذار أن تكلموا مع أي إنسان بما دار هنا . — وإن سألونا أين كنا ؟

— في دار كاشف المنيارهن التحقيق .

ثم أمر لها باللب ربال ، وأدار رأسه ناحية الشاطئ ، وقال :

— سوف أقيم هنا ترسانة لبناء السفن الكبيرة عابرة البحار في مكان الترسانة القديمة ، سوف أبني سفناً أقوى من سفن الأتراك .

احتاراً بماذا يردان . قال :

— جاعني منذ مدة شخص مهري اسمه حسين عجوة إنكر مضرباً

للأرز بدور بأسهل طريقة بواسطة ثورين بدلاً من أربعة كما في المصارف القديمة ، حمل معه نموذجاً من الصفيح أعجبني وأعيت عليه يدريهم وأمرته بتفيله في دمياط وأعطيته حاجته من الأخشاب والحديد ، وصدق قوله وأمرته بشكرار ذلك في رشيد . في أولاد مصر بحاجة وقابل للمعارف ، لهذا أمرت بإنشاء مدرسة تعلم أبناء البلد الخصاب والمهنة وعلم القياسات والارتفاعات والمساحة ، وأحضرت لهم معلمين شغاف ورتبت لهم شهربات وكساري وأسمنيتها الهندسية . قلت لكم في أحب النجباء .

ثم شدد عليها :

— سوف تعملان مع ولدي اسماعيل ، وأريدكما أن تكونا من رجال الأوفياء . اربطا لسانيكما ولا تتكلمي عن السودان بعد ذلك ، فما أنكما ستكونان مراقبين في كل خطواتكما .

خرجتا من عنده بعد الانحناءات والاحترامات الواجبة ، والرفق بهما فليهما وأيضاً الانهار ، قبل الانصراف فوجتا برجل فضخم يرحب بهما من احترام لغده تذكر أنه رئيس القافلة الذي أسكرهما في بربر يعرف من كل بلدة هما . اتسحا بهما جانباً ومألهما عما دار بينهما وبين الباشا . كانهما حشوت أن يفتن لولا أن الشاطر سبقه قائلاً :

— ليس لدينا ما نقوله لك أو لغيرك !

لما أخفق الرجل في استخراج معلومة واحدة منها بشي فها وأمر لغده قائلاً :

— نجحتنا في الاختبار ، الزمنا الصمت كما أمركم أقدسينا .

قال له الشاطر :

— سمعنا كثيراً عن مذبحة حدثت للمماليك بالقلعة ، بالله عليك يا سيدتي قص علينا حقيقة ما جرى .

تقدمها سائراً فتبعاه وهو يقول :

— أفراد قلائل الذين يعرفون الحقيقة صلي ، وقتها كان المماليك بالمنايا يسعون خلال الصعيد عن القاهرة ، وهذا أمر خطير لا يمكن تجاهله .  
بذلكانه الخارق أعطى الباشا الأمان لهم ، فرجع معظمهم إلى القاهرة وقد زهدوا الكر والفر . آمنوا للزمان واشتروا الرياض والفيال . وكان السلطان قد عجز عن استرداد الحجاز من الوهابيين وطلب أن يقوم الباشا بذلك . وافق وأعد جيشاً على رأسه ابنه المرحوم طوسون . ثم رأى أنه بواب خروج موكب الجيش من القلعة ساعة سعد ، وطلب من المنجمين قراءة الطالع لتحديد موعد السعد هذا . اختاروا الساعة الرابعة من يوم الجمعة أول مارس ، وكما في سنة ١٨١١ .

فما كان يوم الخميس آخر فبراير حتى طاف الجاويشة يعنون عن الموكب ويبدعون الأمراء بدعوات ، فحفظوا سوارهم وذقونهم وتوالفوا . فلما انتظم الموكب يوم الجمعة في ساعة السعد تقدم أنصارنا حتى تجاوزوا البوابة ، فجأة أغلقت على المماليك أبواب الرصاص عليهم من فوق الأسوار وبقيهم عن أحرمهم وهم في كامل أهنتهم . في نفس الساعة كان الألبان في المدينة يقتلون زملاءهم ، إلا من فر أو اختفى .

نوقف قرب أبواب الخارجى مكبلاً بصوت أعلى من صوت الموج :

— كان الباشا يحضر في مهر الاستقبال سائكاً . عندما دقت الساعة  
الرابعة صار قلناً . كنت قريباً منه ومياثر القاعة في صمت . إلى أن بدأ  
إطلاق الرصاص فوقف جامداً صاحب الوجه ، مع تخافت الطلقات دحا  
عليه طبيب الإبطال وقال مهتاً : قضى الأمر يا باشا واليوم يوم سعدك .  
فطلب بعض الماء وبلى ريقه الخاف ، وأباح لعسكره هب بيوت الممالك  
ثلاثة أيام ، وكان من بين القتلى مزروق بن إبراهيم بك . ، نوكتاً على الله  
وتذكراً جيداً ، سعيه ذلك الرجل الذي يرضى عنه مولاي ، بشرط أن يكون  
مطيعاً وفيماً .

خارج القصر وجدا جوادين في انتظارهما بصحبة ضابط فادهما إلى ركب  
ومنها بالعلين إلى القاهرة . استأذنا في قضاء يومين بها فسمع هما . عندما  
انفردا نساء لا عما يريد الباشا منهما ، ونحن تحتوت أن للسودان علاقة بها  
جري .

في تجوالها أحسا خوف الناس من العسس ورعب باعة الخضار واللاحم  
والبقالة من المحتسب المسئول عن الأسعار والجود . وجدا طرفاً جديدة .  
وأيضاً أحياء كانت مزدهرة وانحطت ، وقد أنشأ الباشا أو مزال بشي .  
صناعة السواقى والصابون والأواني النحاسية والهارود والمدافع والقنابل  
وكانا قد لمحا بعض ما عمره بالاسكندرية الجميلة . حتى أنه حجب على  
الطوب والبائين والفعلة واحتكرهم له ولخاصته !  
اعترف تحتوت مختاراً :

— هذا الرجل على الهمة ، أنشأ الكثير وبشي . جعل شوارع القاهرة  
آمنة . ولو وفقه الله إلى شيء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة  
والتدبير لكان أعجوبة زمانه !



— لا تس أنه سجن والدك دون ذنب حتى ننفذ له دون نقاش .  
سألب بغضه وعمله ملاعين ، وطموحه طموح الفرس الجامح ، إن لم  
شكحه أوقعه أرضاً ندى أول غلظة !

وكانا قد سمعنا همساً أن الباشا له وكلاء في موانئ فرنسا وإنجلترا ومالطة  
أزمير ونونى والبندقية واليمن والهند ، أعطاهم أموالاً كبيرة ليحلبوا له  
البضائع اللازمة لمشاريعه ، وليقتصوا أخيار هذه البلاد . وأنه جلب من بلاد  
لانجليز آلة عجيبة مصنوعة تنقل الماء من أسفل إلى أعلى دون مشقة اسمها  
الطلبية . وأنه عمل ديواناً للموازن بالقلعة لضبط البيع والشراء ، فيزنون  
لصنع النى يبيع بها البائع ، إن كانت زائدة أو ناقصة صادروها ، وإن  
كانت مضبوطة ختموها ، وجميع ذلك لمنع غش الباعة . وكلما حل الطاعون  
بالبلاد عمل كورنيلة على طريقة بونابرتة يحجر فيها على القادمين إلى المدينة  
أربعين يوماً للتأكد من خلوهم من الأوبئة (١) .

بعد أن تعبنا من الطواف ، واسترحنا في الحمام العسوى ، ولما في أفخم  
الحانات ، واشترينا أفخر الثياب والهدايا ، توجهنا عائدين بالغليون إلى مدينة  
المنيا ، وهما بين الإعجاب بهمة الباشا والكرد لظلمه .

وكان محمد علي قد وفى بوعده . فوجدنا رضوان في داره عزيزاً مكرماً . حتى  
أن شيخ القرية راح يشوده إليه ويسأله عن مرأته وأولاده ، فلم يخرج

(١) المحرر الصحفي . وكورنيلة مشقة من شهر أربعين بالعربية .

بإجابة لأن رضوان نفسه لم يكن يعرف . أما حتحات والشاطر فلما  
الجمعت ثاماً !

يوم الزفاف اجتمعت القرية مبكراً فحفل بالعربيين والعروسين ، وتم  
الزفاف على خير ، ودخل حتحات على عروسة ميسورة ، والشاطر على  
عروسة غندورة ، وكان أن علفت الاثنان منها في الليلة نفسها ، وبقي  
العربان في القرية لا يرحلن ، ولا يتحدثان إلا في الزراعة والفلاحة ، حتى  
أبهما وأبوهما ومرسى ومبركة وسبله لم يعرفوا شيئاً عن مقابلتهما للباش ،  
وكفا عن حديث السودان وكأنهما لم يسافرا إليه .

مرت الأيام وأم الخير ظن أن الشاطر وحتحات يعثان أسعد أيامهما  
بينما كان الفلق يعكر صفوهما ، بعد ثلاثة أسابيع وثلاثة أيام وصل القرية  
رجل غريب متكر في ثياب الفلاحين ، وإن كان حذافه يشير إلى أنه  
ليس بفلاح ، ظل يرأب داري حتحات والشاطر المتلاصقين ، حتى رأى  
الشاطر يخرج وينعد عن داره ، فاقرب منه وهمس له خلسة :

— غداً صباحاً نسلم نفسك أنت وزميلك إلى كاشف المنايا .

ثم أسرع مغادراً القرية دون أن يلحظه أحد ، فاكتماب الشاطر ، ولم يفهم  
السر وراء هذا الغموض ، لكنه في الصباح غداً الأمر . ورجل مع حتحات  
إلى المدينة بعد أن ودعا زوجتيهما وأم الخير ورضوان ومرسى وسبله ومبركة  
والانجال والأحفاد والأنساب والأصهار والأحبة كافة .

(١٦)

## حرب الوحوش من أجل القروش

ظهر عمل غندورة وزوجها الشاطر بعداً عنها ، وانتفخت بطن ميسورة وهي محرومة من رجلها خنحوت . موت شهر الحمل . قبل الوضع بيومين وصلنا في أجازة قصيرة . وضعت ميسورة خنحوت ولداً أسماه إدريس على اسم صاحبه الدكاوي . لكن الفرحة لم تدم . فحسرت ولادة غندورة إلى اليوم التالي ، تعبت كثيراً وأرهقت . فسلت معها فنون الداية . عند الظهر فارتت الحباة بحملها . بكاهما الشاطر ، حزن الجميع من أجله ، حتى الذين لا يعرفونه من القرى المجاورة . أخذته أم الخير في حضنها ، ربت عليه في حنان :

— مسكين يا ولدي ، رينا معك يا حبيبي .

في هذه المدة كانا قد التحقنا يا حدي الثكنات الجديدة ، يتدربان على بعض فنون العسكر . وجاءت أنباء حرب الحجاز توف بشري استسلام زعيم الوهابيين عبد الله بن سعود . أرسله إبراهيم باشا إلى والده أسيراً ، فأبقاه مدة بالقاهرة ومدافع القلعة تضرب بهجة ، ثم أرسله إلى السلطان العثماني بتركيا ، الذي علفه على باب هرايون وقتل بقية أتباعه وعلفهم في نواح منفرة !

فتح طريق الحجاز فطلب النقيب المنفي بدمياط عمر مكرم الإذن له

بالحج فأذن له وتركه يعود إلى القاهرة قائلاً : « إنها أبعدته خوفاً عليه لأنه  
بمنايا أبي » . ما إن وصل إلى يولاق منذ شهر ، حتى ثبت أن محبة في  
قلوب الناس مازالت راسخة . التفوا من حوله يستنونه ، فآثر الاعتكاف  
تجنباً لحقد الباشا ، وجساً فعل (١) .

عاد إبراهيم باشا فاتح الحجاز ومحرم الحرمين ، فعمل له والده موكباً  
عظيماً ، دخل من باب النصر مثل نابليون ، وضربت المدافع في كل وقت ،  
ودام الغناء والاحتفال سبعة أيام بلياليها . فانتقل حنوت والشاطر إلى  
حاشية اسماعيل باشا بن محمد علي حيث التقيا برفيق رحلتها إلى دارفور  
محمد بن عمر التونسي ، وجلسوا يحسنون الفهوه ويسرجعون ذكرياتهم مع  
سلطان الفور محمد فضل وجبال مرة وكهوفها الرميية .

قبل أن يتم الطفل ادريس بن حنوت شهره الخامس ، كان جيش من  
أربعة آلاف مقاتل يحشد في مصر القديمة على رأسه اسماعيل ، فحول  
حنوت والشاطر بين الوحدات ، فوجدوها مجموعات من حشالات  
الأوباش ، بشكل الأتراك الانكشارية والألبان الأرناؤود نصفها ، بطرايش  
غير مفردة خضراء أو حمراء ، سترات قصيرة زرقاء موشاة بشرائط مذهبة ،  
سراويل منتفخة متموجة ، ومراكيب حمراء . ووراء كل رجل منهم عبد  
وحمار . وجنود آخرون يرتدون جلابيب بيضاء وجوارب طويلة . وعلى  
صدور الدلاة الأكراد دروع من فولاذ ، فوق رؤوسهم غطاءات مخروطية

---

(١) وصل إلى يولاق في ٩ يناير ١٨١٩ وبعد ثلاثة أعوام ثارت القاهرة ضد محمد علي بسبب هزاله  
خشدة ، فلما أن حضر مكرم راء الثورة ففقه إلى طلعا حيث مات في ٢٥ أبريل ١٨٢٤ .

الشكل مثل الطراير ، يعتلون خيولاً مغطاة بحشايها تقاوم السهام . إلى جانب ما يقرب من ألف بدوي مزودين بخوذات وزرد ، وحشد من الأنباغ يرتدي كل منهم ما شاء . جميعهم على أهبة التوجه إلى الحرب ، أملاً في الأسلاب ، وطمعاً في وعد محمد علي لهم ، أن يعطيهم خمسين قرشاً نظير كل أذن بشرية يقدمونها بعد كل معركة ، فيكون ثمن الضحية مائة قرش .

كانوا يجهلون كل شيء عن الحرب ووجهتها ودوافعها ، لذلك كثر اللغط والكلام بمختلف الستهم ، وتحدث بعض اتباعهم بالعربية ، كل واحد يذكر لصاحبه ما فهمه من سيده . حتى سمع الشاطر وحتوت عشرات الأقوال: ينوي الباشا فتح السودان للقضاء على المماليك المنقطعين بدقلة لأن أمرهم استفحل واستكروا من شراء العبيد وصنعوا البارود والمدافع ، الباشا يريد أخذ بلاد دارفور لاستجلاب العبيد ، يطمع الباشا في معدن الذهب والفضة والرصاص والزمرد ببلاد السودان ، غرضه ضم سنار عاصمة الفتح . لكن أحداً منهم لم يخطر على باله أهم أهداف الباشا ، إبعاد هؤلاء العسكر بعد أن صاروا خطراً عليه بسبب تكرار ثردهم ، وإنشاء جيش من الفلاحين .

رغم عدوانية الجميع فإن أحداً منهم لم يجزؤ على التعرض لحتوت أو الشاطر بأية بذات ، لعلمهم أنها من حاشية قائد الحملة اسماعيل نجل محمد علي . وكل يوم يجتمع المزيد من العسكر والأنباغ . ونأتى جمولات البارود والمدافع المصنوعة ببلاد الصعيد والشرقية ، بصحبها اللغمجية الذين يشون الألغام وينسفون الصخور ، وعشرة مدافع خفيفة ، وواحد ثقيل ومدفعا حصار ، وتشكيلة عجيبة من ثلاثمائة رجل ما بين مدفعي ومعاون وحامل ذخيرة ، على رأسهم أمريكي اسمه أنجلش .



وجمع ذلك يتم بكل دقة وهمة . بينما الباشا في الاسكندرية كان الأمر لا  
يهمه . إلى أن جاء الموعد المشهود ، فركب المشاة بأحاطهم فوق المراكب  
الشراعية والغلايين ، انحدروا في النيل بعينهم أسوان . تقاطروا على مدى  
شهرين تباعاً . بينما سار الفرسان ورجال المدفعية على البر ، تشد منهم طبقة  
من خمسمائة فارس . حتى خلا بر مصر القديمة منهم . وكانت المراكب  
مصنوعة خصيصاً لهذه الحملة ، بحيث يمكن فكها إلى أجزاء ونقلها فوق  
الدواب في منطقة الجنادل ثم إعادة تركيبها وتعميمها .

أما حنوت والشاطر فقد ارتحلا بعد ذلك بيومين ضمن حاشية  
اسماعيل قائد الحملة ، وهما في غاية العجب من أن يفوق هذا القتي حملة مثل  
هذه . كان أقل من العشرين ، على قدر من الذكاء لكنه لا يصل إلى حد ما  
فيل عن أخيه الأكبر إبراهيم ، به عاهة في ستيف حلقه ، فجعل كلامه عالياً  
مضغوماً يكاد يكون غير مفهوم ، به عتف وتعاطف وسرعة غضب ، لكنه كان  
مع حنوت والشاطر وباقي الحاشية مهذباً مجاملاً كريماً إلى حد العطف  
وكان يخشى أباه إلى حد الرهبة .

تحركوا ، تحيط به الأبهة ، بصحبه مناعه الفاخر بالنيل . حتى وصلوا  
مدينة الميا فارتاحوا . ورفض المبيت في ضيافة الكاشف . جعل حدامه  
ينصبون خيمته العظيمة ، فبدت سمكة القماش مصبوغة باللون الأخضر ،  
سقفها قبة عظيمة مذهبة ، تحيطها كرات أخرى أصغر حجماً ، رجة من  
الداخل في أنساع غرفتين فسحتين ، مبطنة بالسائر الحريرية . وعلى الأرض  
البسط والحشaba ، وتدل من سقفها ثرياً كبيرة من مصابيح الهزول  
الزجاجية . جلس يسريخ مربع الرجلين على أريكة ومن حوله كبار ضباطه  
وحرسه الخاص ، وكانوا أمراءه وجراحوه من اليونانيين والإيطاليين ، ولى

أحسن مكان جلس مهرجه الخاص برمقه وبطلق ملحه من حين لآخر ، كثيراً ما تكون بذينة فيضحك لها الجميع ، ولم يجرؤ أحد الضباط الكبار على الغضب من سخرياته إن هو هذا به ، وظل كاشف النيا الزكى عن قرب يرمق اسماعيل على يشير بطلب .

ما إن وجد حنحوث نفسه بالمليا حتى خفق قلبه حيناً إلى زوجته مسورة وطفله إدريس وجميع الأسرة ، وامتلأت عيناه شوقاً ، وامتلأت عينا الشاطر بدموع الحزن على زوجته غمدورة التي ماتت بعينها ، وحاولا الاستئذان من اسماعيل لزيارة قريتهما لكنه لم يأذن ، لأنه كان ينوي استئناف السير قبل الفجر بساعتين ، مستفيداً من ليلى الصعيد اللطيف ونسمة نجره المنعشة .

ثم استراحوا في أسوط في بيت حاكم الصعيد ، وبعد ذلك في اسنا بلدة هادئ شقيق زبادى ، حيث كان في انتظارهم ثلاثة آلاف من الابل للسير بها في موكب طويل مع القرماني والانباع ، بحيث من كان في أوله لا يقدر أن يرى بعينه المجردة آخره .. إلى أن التقى الجميع عند أسوان ، من جاءوا بالركب ثم الابل ومن جاءوا بالخيول ، فكان حشداً هائلاً لم تشهد مثله أسوان حتى ولا أيام الجراي ديزيه عندما كان بطارد المماليك !

سمح اسماعيل للشاطر وحنحوث أن ينجولا على حورتهما بين الجنود ، فطافا هنا وهناك وتحدا مع الكثيرين لشغل الوقت ، وعندما عادا كان اسماعيل على مائدة الغذاء فدعاهما إلى المشاركة ، وكان لطيفاً ، وإذا به يسألها عما سمعاه من العسكر في أثناء فجواتهما ، فأخبراه بجميع ما يريده ، وكانت أسئلته كثيرة ودقيقة مثل أسئلة والده ، وكانا قد اكتشفا أن كثيراً ممن في معيته من غير الضباط والأعوان تجمعهم صفة واحدة ، وهى أنهم جميعاً

زاروا السودان مشها ، وكان يسأل كل واحد على حدة ، وفرا جميع ما كتبه  
الرحالة عن السودان ، تشبهاً بيونانيته عندما قرأ جميع ما كتب عن مصر  
وقابل من زاروها قبل مجيئه لاحتلالها ، وبينما هم في أسوان وصل رجل من  
الفرنسيس اسمه كايو ، أراد أن يلتحق بالحملة بحجة زيارة الآثار الفرعونية  
عند مدينة مروي القديمة شرق دنقلا ، لكن اسماعيل أعاده بلقاءه ، فانصرف  
كايو هذا إلى القاهرة ، لكنه سوف يعود ثانية

فيما وراء أسوان تمت عملية فك المراكب وجرها فوق العجلات ، مشقة  
عظيمة بهرت الجميع ، حتى اجتازوا منطقة الجندل الأول ، ثم أعادوا تركيبها  
وأولوها إلى النيل ، بعد حوالي الشهرين والنصف من مغادرتهم القاهرة  
كانت معظم القوة قد تجمعت عند وادي حلفا ، فعسكروا من جديد نحو  
عشرين يوماً حتى تم نقل المراكب فوق النهر إلى ما بعد الجندل الثاني ليبدأ  
الاحتلال .

وفي أثناء الانتظار كان اسماعيل يتولى بملازمة مهرجه الخاص  
الشطرنج ، يمنحه قطعة ذهبية مقابل كل دور يخسره هو ، ويأمر بضربه  
عشرين عصا نظير كل دور يكسبه ، فمرت أيام الانتظار على المهرج ما يبر  
الضرب وربيع القطع الذهبية .

ثم تحركوا بالمراكب في النيل ومشاة على الشاطئ ، يستقيم فيستقيمون  
معه ، بشي فيشتون معه ، وأهالي النوبة يظنون أنهم متوجهون لإبادة فلول  
المماليك .

بعد اجتدل الثالث عبروا من جوار قرية العجوز عبد المصور جد نور ،  
والذي أوى الشاطر وخنحوت وإدريس عدة أيام ، فردوا له الجميل بأنقاد

حفيدة نور من نرائن الممالك ، وكانت القوية بحرية تماماً ، ومن الواضح أن  
عبد الصبور قد مات أو هجرها . ثم عبر الجيش إلى جوار الشاطئ ، الذي  
كان فيه الممالك أخرى نور ، ثم قتلوا عن آخرهم بحراب العرب الشائقة ،  
وبعد أيام سيصبح على فرسان الشائقة أما أن يستسلموا أو يقاتلوا بحراهم  
مدافع اسماعيل !

وصلوا إلى نواحي دنقلة آخر معاقل الممالك ، فاستسلم بعضهم دون  
قتال ، وهرب بعضهم إلى شدى يحتجى بالملك سر ، فرفض إيوائهم ونسبتوا  
بين القبائل السودانية فسلبوهم أسلحتهم ، وبهذا انقطع دابرهم وانتهى  
أمرهم تماماً . ورغم عدم وقوع المقاومة في أي مكان انهمك العسكر بنهبون  
الناس ويأخذون المواشي والطيور والعسل والسمن ، ويعاشرون النساء  
ويحفظون الغلمان ليبيعهم ، واسماعيل لا يمنعهم ، لأن ذلك جزء من  
أجرهم ، وكانوا فرحين بمهمتهم حتى الآن ، وإلى أن أخذت الحملة تدور  
مع النجاعة النيل الكبيرة نحو الشرق قرب كومري معقل عرب الشائقة ،  
عندها خرج رجالهم للقتال . كان اسماعيل يعرف عنهم كل شيء عن  
حنجوت والشاطر اللذين تدربا عندهم هما وإدريس على فنون الحرب ،  
ومنهم تعلموا ركوب الخيل والقتل بها أثناء المنازلة ورمى الرمح وهم في  
أقصى اندفاعهم ، وكان أن يزوجهم ملك لولا أن جاء هادي وأخذهم إلى  
دارفور .

لم يكن اسماعيل يخشى من سلاح الشائقة المكون من رماح فقط ، ولا  
من شجاعة رجالهم اللذين يذهبون إلى الحرب في شغب ، ولا من نسيانهم  
الباسلات . ومع ذلك رأى أن يفاوضهم ، فدعا وفداً من شيوخهم وفتاتهم  
إلى معسكره ، احتفى بهم بتقديم القهوة والشيك ، وسأله شيخهم :



— ماذا جئتم ونحن حاربنا الممالك مثلكم ؟ هذه بلادنا !

— رغبة أبى وإلى مصر وحامى الحرمين أن تكفروا منذ الآن عن النهب  
والإغارة على القوافل وأهل النوبة . ومن الآن هذه البلاد بلاد أبى .

— ليس لنا مصدر آخر للرزق !

— يجب أن تتحولوا إلى الزراعة والفلحة .

— هذه مهنة المستضعفين ، ولنا مقاتلون ، أو كما نسميهم أنت  
لصوص ، ولا نحب أن نزرع مثل الفلاحين الضعفاء !

— أؤمر والذى أن تدفعوا جزية صغيرة وأن تسلموا أسلحتكم  
ونحولكم .

— لا مجال لذلك .

فخرج صوته عالياً من حلقه المشقوق الشف يرج جدران الخيمة :  
— إذن سأرغمكم .

فخرجوا غاضبين ، وحزن خنوجت لإخفاق المناوشات ، لعلمه أن  
الشايقة لن يصعدوا أمام الأسلحة النارية . وأمر إسماعيل بإرسال مائة من  
فرسان البدو لاستطلاع أرضهم ، وكانوا متبهمين فاشتبكوا معهم ، ولم يعد  
إليه من المائة سوى ربعهم ، اغناظ ونشاور مع مساعده عابدين بك  
والأمريكى انجلس رئيس المدفعية ، وقرر الانتقام بعنف كى لا يتكرر ذلك ،  
ثم نام والفلان من حول معسكره شديد . بات الجميع متوترين ، وانكمش  
الشاطر إلى جانب خنوجت هامساً له :

— الفلام هو فرجة الشايقة ، أنهم يعرفون الأرض حتى في أثناء الليل .



ليرهاجوا الآن صاروا متكافئين مع الأتراك ، لأن القتال سيكون بالسيف ،  
والشابقية أكثر مهارة !

فزاد رعب جنحوت ، وما كان صاحبه بأقل منه رعباً ، لأن الفتل سوف  
يشمل الجميع ، بقيا متقطين متجهين إلى أقل صوت ، ولم تغضض لها عين  
حتى شفق الفجر ، وبدأ يومها الرابع في هذا السهل المتراعى الذى  
عسكروا فيه ، قال الشاطر :

— فحونا من الموت ، وضاعت فرصتهم ، كان الله فى عونهم .

بعد صمت وترقب جاءت آلاف الشابقية ، ينطلق كل منهم فرسه  
الذئبلى القوى ، لا يضع فى الركاب سوى أصبع قدمه الأكبر ، حاملاً  
حرابه وسيفه وسكاكينه . فى مقابلهم تجهز مقاتلو اسماعيل فوق أنراسهم .  
لم يدعش اسماعيل عندما رأى جملاً عليه هودج مزخرف يتقدم صفوف  
الشابقية ، وعرف أن بداخل الهودج عذراء صغيرة السن هى نعيمة  
المعركة ، والنس سوف تعطيهم إشارة البدء ، عرف ذلك من الشاطر  
وجنحوت ، وكانت العذراء اسمها مهيرة بنت عبود ، سرعان ما انطلقت من  
فوق سنام الجمل صبيحة المحجوم فى زغردة طويلة ملعلعة ، ظهر على أثرها  
من خلف الغرسان حشد هائل من الفلاحين كان أحد الفقهاء قد أكد لهم  
أن الرصاص لا يمكن أن يقتل المؤمنين الصادقين ، فلم يحملوا معهم سوى  
الخيال الذى نورا ان يفيدوا بها العساكر الأتراك بعد أسرهم ، ومن وراءهم  
أقبل الخيالة المحزفون فى عدد لا يتجاوز الألف ، تصحبهم دقات مدوية  
على الطبول وهم يصبحون صيحتهم الحرية الخاصة بهم :

— السلام عليكم ، السلام عليكم .

يخصمون سلام الموت الأزل على الأعداء . وكان المدافع الفلاحين العرب  
أمراً لم يتوقعه أحد ، أصاب الأتراك بالارتباك عدة دقائق ، وصل فيها  
الفرسان إليهم وأحرزوا تقدماً برماحهم ، لكن سرعان ما دقت طبول  
اسماعيل فهدرت المدفعية وأطلق المشاة البنادق والعدارات ، عند المغرب  
كانت المعركة قد انتهت ، وانسحب الشايبة بعدراتهم تاركين مئات  
القتلى .

صارح الارتعاش والدلالة والمقاربة والبدو يتفكرون بينهم كالمجانين  
يقطعون أذانهم ، انتهوا منهم فانهمكوا في وحشة يقطعون أذان الأسرى  
الأحياء والجرحى ، يرسلوها إلى محمد علي باشا مقابل خمسين قرشاً للأذن كما  
وعدهم ، وكانت هذه تعبيره ، وأرسلت إلى القاهرة في اليوم التالي ثلاثة  
آلاف أذن بشرية .

ارتاع تحوت من بشاعة المنظر إلى درجة النقص والاقتراب من الانهيار ،  
فسارع إليه الشاطر ، وبعد أن تماسك قال :

— ذكرني منظرهم بمنظر عسكر الفرنسي بعد معركة امبابية وهم  
ينجولون بين قتلى المماليك يفتشون في عماماتهم عن نفوذهم المخياء ، لكن  
فرق ال تنفس في العمام والى تقطع أذان الموتى والأحياء !

غمت عليه نفسه من جديد ، وعاد يقول :

— أنا وأنت ما عدنا اسماعيل بصعوماتنا !

— وماذا بيدنا ، أنسبت تهديد الباشا لك بسجن والدنا رضوان ؟

مر شهر من الزمان لأعب فيه اسماعيل مهرجه الشطرنج ، ربح فيها  
المهراج عشر قطع ذهبية ، وخسر عشرين مرة نال عنها أربعمائة صرب

بالعصا ، وكان عرب الشايقة قد تحصنوا عند جبل داعر ، وتعويذتهم هذه المرة عذراء أخرى صغيرة اسمها صفية ابنة الملك الذي عاش عنده الشاطر وإدريس وحتوت عدة شهور ، وقامت مدفعية انجليز بهحصدهم ، فخرج ومات المئات ، ثم انقضى الأتراك عليهم ، وتمكنوا من أسر تعويذتهم العذراء صفية بجملها المزين بالزخارف البديعة ، وأخذوها إلى المعسكر ، فرح اسماعيل بأسرها ، وخيل للشاطر وحتوت أنه سيبها لأحد ضباطه ، فاحتاج حنوت ، لكن الشاطر زغده بكنم انفعاله ، وتقدم في دماء البواسل من اسماعيل وهو بين أعوانه وضباطه ومهرجه وقال بصوت جهور :

— الشايقة عرب شجعان يا مولانا ، أليسوا كذلك ؟

فصاح فيه التركي عابدين معاون اسماعيل :

— بل كلاب مثلك يا ولد !

لكن اسماعيل امسكه بإشارة ، وقال للشاطر :

— أنهم حقاً شجعان ، فماذا تريد ؟

— الشجاع بقدر الشهامة ، أنا وحتوت عرفنا والد هذه الصبية ، وهو الملك رئيس القبيلة ، وكان كريماً معنا ، وساعد صاحبنا هادي على قدر طاقته .

— هو صاحبك إذن ، فماذا تريد ؟

— أن تسمح لي بالروح بفكرة قد نكسبون بها ود عرب الشايقة .

— نكلم .

— أنهم قوم ناسرهم الشهامة رغم أنهم قطاع طرق ، الشرف عندهم فوق كل اعتبار ، أرى أن تعيد إليهم تعريضهم صفة عزيزة مكرمة وعذراء كما هي ، وسوف تكسب بهذا ودهم .

ثبت عينا إسماعيل إعجاباً بالفكرة ، لاحظ المهرج ذلك ، فأشار إلى الشاطر مداعباً :

— ولد ناصح ، شاطر واسمه الشاطر .

على الفور أمر إسماعيل بإدخالها الحمام وتعطيرها والباسها أفخر الثياب ، ثم أعادها معوزة مكرمة إلى عشيرة أبيها الشيخ ، رفقة ثلاثة من الحراس ، وما أن وصلت إلى عشيرتها حتى ارتثت في حضن أمها التي فرحت بعودتها سالمة ، ورأت ما هي عليه من أبهة وشمع ما يفوح منها من عطر ، فكشفت عليها وتأكدت من عفاؤها ، ثم ذهبت إلى زوجها تحكى له ما سمعته عن التكريم والاحترام الذي لقته الصبية ، فظل يستمع وقتاً ثم قاطعها بصبر نافذ :

— كل هذا حسن ، ولكن هل مازالت بكرأ ؟

أكدت له أن صفة لم تزال بكرأ ، وعلى الفور ردت فيه الروح وهبات أعصابه من بعد اهم وتوقع المذلة والعار ، وأمر بسحب رجاله المشركين في الحرب ، حاول بعض رجاله مجادلته ، فحدثهم بالكلام المقنع قائلاً :

— إذا عجزت عن قهر عدوك صادقه حتى يضعف !

وبعث برسول من طرفه إلى إسماعيل يقول له : إن شيخنا أقسم ألا يخارب الرجل الذي حافظ على عذرية ابنته . فسر من ذلك وقال لمهرجه :

— قلت لك الشاطر شاطر ، احمسى قطعة ذهبية مكانها !

فمسحه قطعة ذهبية مكافأة للشاطر ، الذي كان أسعد الناس هو  
وصديقه حتوت ، وعندما جاء الملك في زيارة ودية وراحها لذكرهما ، قال

— كنت على حق عندما أمرت بضمكما إلى جيشي ، أي صاحكما

الأسمر ؟

فأجاب حتوت بأن إدريس الآن مع عشرينه .. وسرعان ما انتشر خبر  
هذه الحادثة بين جميع الشايبة ، فتوافد رؤسائهم ومكونهم لزيارة إسماعيل  
بطلب الانضمام إلى صفوف جيشه ، فزاد ذلك من رعب جميع الممالك  
ومكونها من بربر شمالاً حتى منار ذاتها جنوباً .. واختار حتوت أن كان  
الشايبة قد استسلموا من أجل إنقاذ عفاف صفيه أم سبب آلاف الأذان  
التي أرسلت إلى محمد علي عنده !! ثم لأنهم طمعوا بانضمامهم للجيش  
المتص في أن يشاركوه نهب باقى أهالى السودان . بعد أكثر من شهر وعندما  
استأنف إسماعيل تقدمه رفض أن يصحبه كي لا يشاركوا عسكره في  
الغنائم ، ولعلسه أنهم أعداء قدامى لأهل بربر وكثيراً ما ألحاروا عليهم ، وكان  
ينوى النظار أمامهم بأنه ما جاء إلا لينقذهم من عبوان الشايبة ،  
وبسجد وصوله انهارت المدينة مسسلمة ، ومع ذلك طاف عسكر المنقذ  
ينهبون ويعتدون ، فصارت بربر في بكاء ومذلة بعد أن كانت بلدة الأنس  
والانشرح ومشارب اللهو والأفراح .

وبينا إسماعيل يستريح ويلعب مہرجه الشطرنج ، جاءه خبر من أحد  
عسكه أن « نمر » مك شدى قادم بنفسه للتسليم . زاده الخير غروراً ،  
داعبه المہرج :

— جنكيز خان زمانك يا باشا !



(١٧)

## النار في سنا

بعد أيام وصل الملك نمر جالساً فوق هودج معلق بين جملين ، وعلى سبيلاه  
كبرياء جريح ، ومعه جوادان كريهان على سبيل الهدية . في الخيمة العظيمة  
أحضروا سجد أمام اسماعيل وقبل قدمه ووضعوها فوق رأسه . نظر إليه  
المهرج مشفقاً ، بينما ازداد ابن الباشا غطرسة ، ولم يقدم الفهوة والرجيلة  
للملك المستسلم حسب عادة الضيافة . أمر بتقديمها له خارج الخيمة مثل  
أتباع الملوك ورسلمهم . بدا الغضب في عيني نمر لكنه لم يتكلم ، وهو يرى  
آخر الحاربيين من المماليك يقدون ساجدين أمام اسماعيل لتقديم آيات  
الخضوع ، كانوا حوالى المائة ، أخذوا مع اسماعيل بالتركية فضمهم إلى حرسه  
الخاص . ثم وجد مهرجه يقول له :

— فسرت على نمر يا باشا . احفظ للمهزوم بعض كرامته .

— وماذا بإمكانه أن يفعل !

— بإمكان النملة أن تضايق النمل .

نفث اسماعيل إلى الشاطر وحنحوته رافعاً أصبعه محذراً :

— فلتنا أن جل سلاحه عشر بنادق قديمة .

أكد كلامه . لكن مهرجه قال :

— خف من جريح الكرامة ، لا تدفعه للباس فبضرك !



أمر بجلده ، فصاح معترضاً :

— لكنك لم تهزمى فى الشطرنج !

— سأهزمك .

طلب الشطرنج ، وعندما جاءت مازحه المهرج :

— منعكس الرهان هذه المرة ، إن كنت أنا تفحك قطعة ذهبية ، وإن

خسرت أنت تأمر بجلد نفسك عشرين عصا !

وكان الفرنسي كايو قد عاد دخل يستأذن فى الذهاب من أجل التنقيب

عن الماس حسب أوامر محمد على ، سمح له ، قبل انصرافه أوقفه قائلاً :

— سنأخذ هذا معك .

بعد أن خرج كايو قال الخجوت :

— راقبه جيداً . قد يوفى ويعثر على الماس ويختلس بعضه !

فلما خرج من الخيمة وجد الشاطر يراقب عن كثب وبألم شديد مك

شندى نمر وهو ينتهى من شرب القهوة والزجيلة ، ثم ينهض ذليلاً ليركب

هودجه المحمول على الجمالين . وهو يعتدل فى جلسته فوق الهودج ليعلم

بصق على الأرض بأذراء وقال :

— كنت متأكد أنكما جاموسان . أين ثالثكما الكبير ؟

لم يكن همه الرد ، وكان الجمالان قد وقفا واستدارا إلى شندى . تابعا

بنظرة تعاطف له ولملكته شندى . وكان كايو قد جهز للرحيل فنبعه

خجوت ، حتى وجده يقصد اطلال مدينة مروي المنشرة ، التى وصلها قبل

المنحرج ، ثم راح يراقب أول أشعة الشمس وهي تغرق على قوعم عشرات من  
الأهرام المدرجة وتلوونها بلون الذهب ، تبدو رائعة مهيبة ، رغم انهيار  
معظمها ، قال الفرنسي لمراغيبه : أن مروي هذه كانت في قديم الزمان وأيام  
الفرعدين عاصمة جميع الأراضي من سنار جنوباً حتى الدلتا شمالاً .

نقى اسبوعين تحت وطأة الشمس يرسم النفوس والكتابات والأشكال  
البدیعة للمملوك والمملكات ، ولم يغيب عن الناس ، تذكر حتمت الرسام  
دينون الذي عمل معه إدريس ورافق الخيال ديزيه في بعض حملاته على  
الصعيد ، في زمن بونايرنه ، ورسم جميع ما رآه على طول الوادي من آثار  
الفرعدين . وعندما قابل الشاطر بعد عودتهم سأله عن السر في انقضاء دولة  
الفرعدين رغم عظمة آثارهم ، فقال :

سببته حياه المملوك ، لأن الدنيا قلابه !

واصل الجيى رحفه جنوباً . دخل دامر بلاد الكتائب والغفهاء الذين  
يسمون فقراء ، والمشهورين بالسحر . عاث فيها العسكر فساداً رغم هبة  
الفنى الكبير . سحر إسماعيل من غرافات السحر . أطلق العنان لجيشه في  
الاغارة على الأهالي .

بعد ذلك وعلى طول الطريق من دامر إلى شلدى بلدة نعر ، وحتى  
حلفاية مكان النقاء النيل الأبيض والأزرق أبهى الكبير الخاطم من بلاد  
الأحاشى ، والعساكر يهيمون ويقتلون ويقطعون الأذان ، لا يقتصرون  
الحوانات وإنما الأهالي . من وجدوه لا يصلح عبداً ذبحوه وقطعوا أذنيه من  
أجل المائة قرش .

في حلفاية أصدر إسماعيل أمره بعبور النهر إلى الضفة الشرقية . استغرق

العبور ثلاثة أيام . منهم من عبر متعلقاً بأذيل حصانه أو فوق أطراف صنعوها على عجل . بين القوصى وأخرجلة والتدفاع مياه النيل المبارك ، غرق ثلاثون رجلاً ومائة وخمسون جملًا . وكانت سائر عاصمة الفنج هي الهدف .

قبل العبور شعر جنحوت والشاطر بالسوق إلى إفرس الدنكاوى ، الذى صار حامل الرمح المقدس . ثمناً ألا يؤغل اسماعيل إلى منابع بحر الغزال حيث يعيش . ارتاحا عندما عبروا النهر ، زال الخطر عن صاحبهما ليحط على ملك الفنج !

مثل كل شىء شاخت المملكة . لم يعد لديها إلا الذكريات الأولى ، عندما سيطرت على قرون على النهر ، من حدود الحبشة إلى حدود مصر . لو استمرت قوية لداغت عن البلاد التابعة لها .

كانت قسوة الجيش وشراسة قد طردت في جميع الأنحاء . فمشوا على البر وبالمراكب السريعة التى رآها الأهالى لأول مرة . والأعشاب القصيرة المشابكة تغطى ضفتى أبابى الكبير ، والأمطار تسقط دون توقف ، توحي الطرقات وتلطف من شدة القبط ، ولا تمنع الطيور من التحليق بأنوائها البراقة ، والأزهار تزهر بجهاها ، وأفراس النهر تتأمل الجيش في بلاده وكسل ، والقردة تفرز وتصرخ مندرة ، ولا من سميع !

نبتهم الضباع متوقعة جثث القتلى ، والزراف يراقبهم ، ويبغواوت خضراء تغرد وتقلد أصوات الطيور والبشر ، وأثار أفيال . دهسوا تحت أقدامهم عشرات من بيض النعام ، شاهدوا بعضها يفقس وينجى مباشرة إلى النهر . كلما اعترضتهم صخور أو أشجار ضخمة سفها جنود الألغام ، ففزع الطيور والحيوانات ونشت !



في سائر خرج فم رجل قصير اسمه باري ، آحر ملوك الفنج ، مستسلماً  
دون رمية رمح . اختار جنحوت فيه ، وجهه ساكن متبلة ، حزين منكسر ،  
ماخوذة بالرهبة . رآه يتسم ويتودد ، يقدم عبادة هدية إلى إسماعيل ، الذي  
وجدتها غير ملائمة فألقاها جانباً . بلغ الملك الأهانة ، ابتسم في بلاده  
يدعوه إلى المدينة العريقة .

دخل العسكر المدينة . ساروا في الطرقات . شعروا بالملل فشرعوا في  
النهب والنسب على رؤوس الأحياء . حاول شاب الدفاع عن فئانه .  
أسكوا به وكثفوه . وقف مرتعباً مفهوراً . تبثوا وسط الساحة خازوقاً ، رأسه  
مذهب إلى أعلى . حملوه واجلسوه فوقه . لبدأوا فزهم ومرحهم . أداروا جذعه  
يمناً يساراً ، وهو يصرخ مرتجفاً من بشاعة الألم . بدأ الخازوق يتحرقه . سالت  
الدماء والدموع والعرق . مزقه عذاب لا حد له . غطت فبهقاتهم على  
صراخه . في بطنه اخترق الخازوق أحشائه . كلما أغمى عليه انظروه حتى  
يفيق ، وضغطوا عليه حتى ظهر طرف الخازوق من فمه . وعرف الساريون  
بعض أهوال الساعة : فزع ، رعب ، ارتباك ، جمود . صرخ جنحوت دون  
توقف ، نقياً الشاظر . سالت دموع المهرج . وكان الانهيار التام<sup>(١)</sup> .

أمر إسماعيل فانظم العسكر في عرض صغير . ثم اجلس الملك باري  
على مقعد ملكه ، تابعاً للباشا محمد علي . أخرج بهلول عليه كبريت . أشعل  
عوداً ، نفخ أطفاه وقال :

— يا إسماعيل باشا ، لكل نار نهاية .

ظهر الفرع في عيني باري . كان يرى الثقب لأول مرة .

(١) دخول سائر ١٢ يونيو ١٨٢١ بلا قتال .

بعد ركود الأحوال ، سار حنحوث والشاطر في أرجاء سنار ، عاصمة  
شرق السودان التي سمعوا عنها في كل مكان . الحمر ينجفهم وعمر بلدة العسكر  
تخلفهم . قصر الملك باري آيل للسقوط ، كذلك الجامع الوحيد . القصر  
والجامع كانا أفخر ما في المدينة ، هكذا حكى لهما معلم الشايقة . الغابات  
المحيطة دمرها الماعز ، وكانت تأهل برحلات الملوك الأولين ، والحواري  
المشيدات المادحات ، النساء شرهات في التدخين وشرب الجعة ، شعري في  
جداول صغيرة غديدة . لم يربأ أنواباً فاخرة ولا حل ذهبية أو فضية . اختفى  
ذلك بزوال المجد الغابر .

البنات لا يرتدين سوى حزام من جلد حيول الحصر ، مزداناً  
بأصناف الودع دلالة على البكارة ، التي تفقدتها في أسرع وقت بفعل  
الأرنامود والدلاة والمغاربة والبدو .

اختفت الخيول السوداء الرشيقة الماهرة ، التي وصفها لهما معلم  
الشايقة . كانت لدى الملك باري أربعة مدافع عتيقة صدئة ، التقاها في غير  
أبني الكبير ليطعن الغزاة ، ولم يكن رأى الثغاب من قبل ، فحطت على  
أهله المريعة ، مثلما حققت على الممالك في مواجهة البابليون .

سالت دموج حنحوث الطبيب . فحجرت دموج الشاطر . شاهدا رؤية  
العين فناء مملكة الفنج التي طال احتصارها . فما الحال مع كردفان ؟

كان محمد علي قد دمع بجيش آخر إلى كردفان ، بشوده محمد بك الدفر  
دار . اجتاز الصحراء من دنقلة إلى الأبيض ، حيث لا ماء ولا زرع . مات  
بعض الجنود ، نفقت بعض النوايا . عند بلدة اسمها بارا لاقاه سلطان  
الغور ، محمد فضل قمر السلاطين . دفن طبول الحرب ، لحاسانهم

المشهورة . نشبت معركة صغيرة ، وعزمت مدافع الباشا شجاعة الثور .  
احتل الدقزدار « الأيض » عاصمة كردفان . فشل قهر السلاطين في  
استعادتها . وعاد خائباً متعطاً إلى الفاشر . يإذا تجدى النبال والشوم  
والباله وحراس دق النحاس في زمن المدافع والألغام !

عاد متعطاً خائفاً على سلطته . أخذ يحشد الرجال ، يفكر في شراء  
البنادق لحماية بلاده . إمعاناً في الحرص كتب الفقهاء عدة أحجية وأسمااء  
مباركة ، لمنع جيوش محمد علي من غزو الديار . وضعها في فمهم من  
نحاس ، دفنها في الصحراء الشمالية والشرقية . أغفل الجنوبية لأنه لم يخش  
الغزو . منها بالتحديد سوف يأتي فناء السلطنة ، في زمن لاحق . وهذا ثابت  
ومدون فيما يلي من التخرية .

صار النيل وشرفه تحت سيطرة أفندينا عزيز مصر . استرخى ابنه  
اسماعيل مزهواً بما حقق . تكابر ونخاميل . والمهرج يهلول يحملق فيه ملياً .  
كف عن الحيلة واتجه إلى الشاطر ومحمد في أدبه ، شحج وجهه وتراجع  
متوارباً . صاح اسماعيل ضاحكاً بصوته المصعوم :

— ماذا قال لك يا الشاطر ؟

— لم أسمع جيداً يا مولاي

تسقلب المهرج حتى جلس عند قدميه :

— قلت له أن ملاك الموت عزرائيل فرح بك .

ماتت ابتسامة اسماعيل .

قال المهرج :

— أرسلت له آلاف الأحياء وأنت لم تكمل بعد العشرين من عمرك  
السعيد !

نجهم إسماعيل جامداً في مكانه . توقع المهرج ضرباً مبرحاً ، لكنه وجد  
ينظري على نفسه ، وأخبر خاتق ، ولا يكلم أحداً حتى اليوم التالي . زاد  
اكتابه . نام وصباحاً وصار يتغير . يتفاهل بعلامات ويتشاهم بأخرى . يثقلت  
حوله من حين لآخر .

موت عدة أساييع وأصيب رجاله بالدوسنتاريا و الملاريا و الرمد ، من  
الحرارة والفقارة والعريضة . تساقطوا نباعاً حتى مات ألف وخمسمائة مقاتل  
ومرض أكثر من الألفين ، والعدد يتزايد كل يوم . تذكر الشاطئ حال جهنم  
بونايرته في مصر عندما أصبحوا بنغمس هذه الأمراض ، وتساقطوا بالعشرات  
أو فقدوا الأبصار . قال جنحوت :

— اللهم لا شهادة ، لكنها عدالتك !

من وقتها كف إسماعيل عن التلهي مع مهرجه ، ميات حالته ، وظلت  
تدهور !

## وليمة النار والدمار

أرسل إسماعيل إلى أبيه شاكياً ، رجاله لا يجدون طعاماً إلا نبات الدخن ، بلبت نعاضهم ولم تعد ثيابهم تفهم رطوبة ولا مطراً ، ليس مع أطباء ولا أدوية شافية ، استحال الحركة في الطرق الموحلة والأمطار لا تتوقف ، لم يبق له من العسكر الأصحاء سوى خمسمائة ، هم جميع المهقنين من الخمسة آلاف الذين بدأ بهم ، عدا بعض العبيد ، العسكر دائم التبرم وعلى وشك التمرد لتأخر رواتبهم . حتى أهالي سائر صاروا على أهبة الانتفاض !

أرسل الباشا إليه ولده الكبير إبراهيم ، وكان مصاباً بالدوسنتاريا ، ولقبه محرز الحرمين وقاهر الوهابيين . تلقاه الجميع بالنهجيل هو والأطباء والأدوية والمثوبة والرواتب المتأخرة ، أعاد تنظيم الحملة .

بعد حوالي الشهر صار الجو أقل حرارة وأكثر جفافاً . فاستأنف الجيش توغله صوب حدود الأحباش في محاذة أباي الكبير أو النيل الأزرق . إسماعيل على الضفة اليمنى بجزء من العسكر ومعه حنحوت والشاطر والفرنسي كايو ، وإبراهيم على اليسرى بالباقيين ، وهدفها معاً تنفيذ تعليمات والدهما ، الذهب والعبيد لتعويض نفقات الحملة . أسروا كل من وقع في أيديهم . عندما حاول القرويون الدفاع عن صغارهم يرمى السيham والقاء الصخور من فوق المرتفعات ، أيديوا عن آخرهم . غشبت نفس حنحوت وشكا للشاطر :



— ما إذا ارتكبنا حتى يوقعنا الله في هذا الكرب . كم أئتمى موت اسماعيل  
هو وجميع وحيته !

نوثقوا حتى حزن لهم من السهل المبسط سفوح نلال وصحور نائذ  
ومن خلفها جبال أسيوط العظيمة شامخة في السماء . نوثقوا مرعدين لأن  
الليل الأزرق احتسى داخل مضيق رهيب لا يمكن لأحد أن يجتازه ولو كان  
مئاتاً على قدميه . فتوقف إبراهيم واسماعيل ، والحبيشة فوقهم على مرمى  
البحر .

في فاطو على آخر الممالك أسرع مكها إلى السجود أمام اسماعيل ومدافعه ،  
واسمك الرئيساوى كايو يؤدي مهمته متقباً عن الذهب فلما عثر على شيء  
يذكر ، أعا العيش فقد جمعوا منهم حوالي الثلاثين ألفاً أرسلوهم عن طريق  
النهر إلى مصر ، فلم يصل إلا نصفهم معظمهم من النساء والأطفال ومات  
الباقون بالأمراض والانهك وسوء المعاملة ، وكان منظرهم على طول الطريق  
من سنار إلى حلفاية ثم شندى ودامر فبرر ودنقلة دثراً لغضب الأهالي ،  
حتى أنهم هاجموا وهاجموا بعض قوافلهم وأفلحوا في تخليص بعض الأسرى .

كان إبراهيم بطل الحجاز قد أنهك هو الآخر ووقع مريضاً ، غلب الموت  
لدرجة أنه عرض على طبيبه الأيصال عشرة آلاف ريال إن هو أوصله إلى  
القاهرة حياً ، ففقد الطبيب وعده وأوصله في زمن قصير هو سنة وثلاثين  
يوماً ، وتسلم أجره .. وكان محمد علي يريد إبراهيم لحروب جديدة في  
الشمال مجالها البحر والبحر ! لكن رحيته كان السبب في كتابة اسماعيل ، حتى  
أنه صار سوداوى المزاج ، شاعراً بالعجز عن تلبية مطالب والده بإرسال  
المزيد من الناس المخطوفين .

طالت هجرته الوحشية ستان في هذه المظلمة ، ولم يحقق سوى قتل آلاف  
الأهل ومعظم حبسه ، فصار غليل البدن مقيم الذهب ، وراح يلج  
بالرمائل على والده أن يسمح له بالعودة ، فسمع له بعد إلحاح كثير ،  
وانطلق مسرعاً هابطاً بحرى النيل ومعه طبيبه وتعدد من حاشته وحشوت  
والشاطر ومهرجه الذى لم يعد يفلح فى اضحاكه ، وهو يرى على طول  
الطريق الآثار المدمرة التى تركها عساكره وحامياته !

وكان الأهل فى مشى يذهبون إلى سر مكبهم ويشكون له ويقولون :

— أنت مكناً ، انقلنا من هذا الهول !

فبئس من أجليم ومن عجزه ، . بينما كان اسما عيل يسمع عن هياج الأهل  
والمراجعهم عن بعض المأسورين ، ومن نورانهم على عساكره ، وقيل له إن  
نمرأ وزاء حجب ذلك ، فما إن وصل إلى شندى حتى أرسل بسدغه ، فلما مثل  
بين يديه راح يقرعه بصوته الغالى بفعل حفيف حلفه الشفوق ، وأسرف فى  
نأيبه وكال له من الشائم الشئ الكثير ، ثم نادى ولطبه على صدغه  
بالشيك الذى كان يدخن فيه ، فلم ينطق نمر بأية كلمة ، وخرج مقهوراً  
لخاضاً من الشذات التى وجهت إليه ، وهو الذى شأ ملكاً مطاعاً محبباً  
من ملكة سليله سلاطين الفلج حكام نصف السودان الشرقى !

بعد انصرافه اقرب المهرج الذى كان صامتاً طوال العودة من فاقوغل  
حتى شندى ، وقال لإسماعيل بصوت جاد :

— قلت لك اترك بعض الكرامة للرجل المهزوم !

فصرره بالشيك هو أيضاً وتناثر الدخان المشعل ، وأمر أن يدفع نمر  
أثابة جسيمة من المال وألقاها في العبيد والمهلة خمسة أيام ، فتدخل مهرجه  
من جديد وقال :

— محال تجهيز كل ذلك في خمسة أيام ، وشدني أسواقها معطلة منذ  
نشرنا ، أمهله يهلك الله !

فصرته من جديد وقد استعد تجهيزه للرب عودته إلى مصر ، متوقفاً أن  
يغير له والده موكباً عظيماً يدخل به إلى القاهرة دخول الظافرين ، ففانح  
السودان لي يثني عن فاتح الحجاز !

وكان معاونوه يريدون إرجاء نفس نصيحة المهرج له لكنهم لم يتجاسروا ،  
ونظاهر الملك نصر بالأفعال ودعا إسماعيل وبطائه إلى وليمة في قصره الذي  
سبق أن زاره حضرات الشاطر وهادي ، وكان القصر محاطاً بالنفس الكثير  
وزاد عليه نمر أقوالاً من الخطب والنبي لعلف خول الضيوف ، فلما توجهوا  
إليه رحب بهم أعظم ترحيب ، وقامت جواريه الحبيبات الحسان بخدنتهم  
والترفيه عنهم كأحسن ما يكون ، أكادوا كثيراً والنسوا من شرب جمعة المريسة  
القوية .

بعد شوط طويل من الليل أخذوا يذهبون للعودة إلى معسكرهم وهم  
مكاري ، وقد انسحبت الجوارى والعبيد ، فإذا بالنار تتطاير في أكرام  
الخطب والنفس المحيطة بالقصر ، أمسكت بكل شيء ، ونحو القصر إلى  
شعلة من الجحيم ، وحضرت النيران إسماعيل وبطائه من الأتراك  
والتركية فلم يستطيعوا الإفلات من هذا الخصار الجهنمي ، هول النار  
يرمونهم بالنبل والسهام المسعدة من كل صوب ندد جميع سبل النجاة في  
وجوههم الخبراء ، حتى ماتوا عن آخرهم ، واختلط سواد أبدانهم بدخان  
الخطب والتبن وروث البهائم <sup>(١)</sup> .

(١) أواخر أكتوبر ١٨٢٢ .

عندما شاهد جنود حامية العسكر النيران ، وشرعوا في التحرك لإنقاذ اسماعيل ، لم يكن هذا بإمكان أى إنسان ، كان اتباع نمر والأهالي قد فتكوا بهم عن آخرهم ، عدا أفراد فلائل كان من حملتهم حنوت والشاطر ، وقد تمكنوا من الحرب بسبب أنها لا يربطها بالزى العسكرى التركى ، وبسبب معرفتها القديمة بالبلدة . وبينما هما يجريان خلق بهما مهرج اسماعيل مرعوباً ، ولم يكن قد أخذ معه إلى الوليمة بسبب غضبه منه ، فصحباء وتوجهها به مرعوبين إلى حى الدناقلة ، بحثاً عن البيت الذى نزل فيه عندما كانا فى قافلة هادى ، فوجدوا صاحب الدار واقفاً مدعوراً يراقب لمب النار المتصاعدة إلى السماء فى هدبر مفرج ، بحيث أنارت المكان إلى مسافات بعيدة ، فلما رآهم ظنهم يقصدون به شراً ، ذكره الشاطر بنفسه وطلب منه استضافتهم ، إرتبك ولم يكن فى حالة تسمح له بأخذ أى قرار ، وقال :

— سيئتر النهب والسلب ، هذه هى فرصة العمر لقطع الطريق ، وقد بانى الشايخية أشباع التوك الكلاب !

فأراه الشاطر ما معها من بنادق وغدارات وقال :

— بإمكاننا حمايتك أنت وأمرتك ، وعندما يأتى جنود محمد عل من الأماكن الغربية ، ولا بد أنهم قادمون للنار والمخل نمر ، فهربكنا اتفاقاً على أساس أنك عاونتنا ! .

اقتنع الرجل دخلوا داره وأغلقوه ، وراحوا يرافون الطريق من كوات الغرف ، بعد حين بكى المهرج ، واصطبغت دموعه بلهب النار ، فنهزه حنوت وسأله إن كان يبكى على اسماعيل السباح <sup>١٩</sup> . فقال فى شجاعة باكية :

— عاشرته كثيراً ، وكان غطواً على ويضربني ، نصحت أكثر من مرة بالآ  
بدل الرجال !

وأمره بالكف عن ذلك والاهتمام بمراقبة الطريق و حتى قرب الفجر لم  
يضع أي طاريء سوى أن النيران بدأت تتمد ، وبدأ واضحاً أن الملك نمر  
سيظهر على الأمن والنظام . تذكر حنوت الحريق الكبير الذي اندلع بأمر  
مراد بك بعد أن دحره بونابرت في معركة إمابة ، وكان يتعجل الفرار إلى  
الصحراء ، ثقلت الصنادل بحاجاته الثينة له وخريمه ، حتى تعذر  
نعريسها ، وخشى أن تقع في يد بونابرت فأحرقها ، وبقيت ليراتها مشتعلة  
طوال الليل وهي تلقى بظلالها على القاهرة المدعورة !

مع أنوار الفجر الغريب الشاطر من المهرج وسأله في عطف :

— ماذا ستفعل إن كجيت لنا النجاة ؟

— أنا لا أصلح لشيء .

— لكن مهنتك غريبة ، أجد سهولة في إضحاك الناس ؟

— إن كانوا خائفين .

— لا تقل إن اسماعيل العالي كان خائفاً .

— كان جباراً والتجبر فرين الخوف ، كلها كان الإنسان أمراً ذاهباً متعاضداً

كان متوجساً خائفاً ، من يملك الكثير يخشى من فقده !

تأمله متعجباً وقال :

— كأنك حكيم !



— كان بإمكانى إضحاك الناس رغم مشاغل الخاصة ، لكنى فقدت  
القدرة على ذلك بعد ما رأيت من قتل واغتصاب . أنا لم أعد أفهم لماذا جاءوا  
بنا إلى هنا . هل رأيتما الأذان المنطوعة وقد صارت عملة نقدية ! من كان  
يظن !

ثم اعتدل محمداً أذنيه بكفيه ، وقال :

— إن عدت سائلاً إلى القاهرة ، واحتجت المال فسوف أقطعها وأبيعها  
حسب شعيرة الباشا بمائة قرش !

ثم انهار على الأرض باكياً حتى نام . واقترب صاحب الدار من الشاطر  
وحثوحت وقال :

— سننتهى شندى الجميلة ، مركز القوافل ، مرسى التجار ، مدينة كل  
شيء ، ملتقى تجارة العالم كله ، برباط الجهات الأربع . سنخفى بضحكات  
السعداء ونحوه سكارى الليل ، سنبذر جميع ذلك وهو كل حياتى !

كانت النيران قد حبت ، والدخان مازال يتصاعد بروائح كريهة ، نظر  
حتوحت إلى صاحب الدار المنهار وقال :

— أظنك عمل حق ، سوف يكون انتقام محمد على بشعاً !

بعد اختفاء طول النهار انفق حثوحت والشاطر أن يقاءهما خطر ، فالملك  
نمر يسيطر على شندى ويظهرها من جواسيس محمد على ، وقد بغدر بها  
مضجها الدنقل . انظروا هبوط الطلام ثم تسللاً بصحبة المهرج إلى خارج  
البلدة . وكان رجال نمر والأعمالي مهتدين في جميع الأثرية واحضار النظمى  
من جسر النيل بالحميز ، وقد شرعوا في بناء سور من طين يفوق المدينة كلها  
. هز الشاطر رأسه مشفقاً :

— وهل يصعد الطين أمام المدفع ؟

رد خنجر : —

— هو على الأقل يحاول الصمود .

( ١٩ )

## مولد بهية الطفلة العفية

في ليل القلعة سمع الحراس صوت عواء ، فظنوه ذئبا شاردًا في تلي المقطم  
ثم تأكدوا أنه صادر من داخل القلعة . كان محمد علي الجبار يركب ويعوى  
مثل ذئبة فقدت أطفالها . منذ سنوات مات ابنه طوسون بالطاعون ، والآل  
اسماعيل بالنار . أمر بالانتقام الرهيب

وصل الأمر إلى محمد بك الدفندار زوج أخته وفاتح كردفان . غادر  
الأيضى وكرهاتجة ، مدمرا جميع ما صادفه حرقا ونهبًا . ذلك مدينة دامر بلاد  
الفقراء الفقهاء ، جعلها أنقاضا ولم يبق فيها سحر النشوء . ثم مضى المنظمة  
عن تبرير إلى سنار

كما توقع الشاطر أشعلت مدافعه النيران في شتى ، فجات من مكانها  
المئات ، تعالت صيحات الذعر والألم . ثم أقتحمها بالسيوف ليهلك جنوده  
ذبحا ، ولم يظفروا بنمر ، الذي قرع أسرته وأخوانه . تعبته مصعدا في النيل  
الأزرق ، يترأد الساء ، يقطع أعضاء الذكور التناسلية ، ثم يسأل الجروح  
بالقار المغلى ، كي يمنع ضحاياهم من الترف والموت السريع .

ولم يظفر بنمر ، الذي لجأ إلى بلاد الأحباش الكارهين للأتراك . عجز  
الدفندار عن تعذيبه داخل مجاهل المرتفعات والمعارات ، فقتل راجعا إلى  
زمان أم درمان يبيد ويفتك وينكل ، ويرسل الأذان المنيرة إلى حيه ، عليها  
تشفى بعض غليله في ولده المحروق

بعد ذلك حكم البابا السودان جميعه ، هذا دارفور وأعلى النيل ، من  
بلدة جديدة صار اسمها الخرطوم . كانت في الأصل قرية صيادين قريبة من  
حلفاية ، بدأت بالتوسع عن طريق وطرفات ضيقة قلعة ، اتسعت وصارت  
عاصمة حقيقية . وانتشرت الحمايات على حدود النوبة في كسلا ، وعلى النيل  
الأزرق في وادى مدني ، وفي الأيض حاضرة كردفان ، وحتى ساحل البحر  
الأحمر تحولت نبالها إلى مصائد للعبيد وبناجر أبيض النعام ومن القبائل  
أما حنحووت والشاطر والمهرج . بعد أن شاهدوا تدمير شنشي وانتهاء  
أمرها ، طبقت دموعهم ، وقال المهرج في لحظة ذكاء :

— الآن نحن موتى !

إنشئت إليه حنحووت . تبه الشاطر إلى معنى كلامه وقال :

— فكرة رائعة المقروض أما عنا مع اسماعيل . متعب ونعود إلى ديارنا  
ولن يسأل عنا أحد . فعلا نحن موتى !

عشروا في الطريق على دواب هائلة قتل أصحابها اختاروا ثلاثة وجمعوا  
من الطريق حاجتهم من الطعام ، ثم يسقوا صوب بربر لقطع طريق  
الصحراء إلى مصر الجديدة .. قطعوه في عزم وهمة ، وهم جاهزون لسحق  
من يعترضهم من قطاع الطريق ، وأعظم دافع لهم هو الفكك من هذا  
الجحيم ، والأبعد عن هذا الجحيم هربوا سريعين ، كلما مروا بقرية دمعت  
عينا حنحووت وقال :

— كانت هنا قرية وطير وأحلام ، ناس طيبون بسطاء ، وحكام مظلون  
سفهاء ، قست قلوبهم مذافع محمد على كما قصت مذافع بويايرة على الخديوة  
محاليك مبصر !

عندما أوغلوا في الصحراء بعد بربر ، توقفوا يودعون أرضي السودان بعيون  
حزينة وكان الشاطر هو الذي ناح :

... كانت هناك محالك ومشارب طو وأسواق وتجارة وزواج وحب وموت ،  
ذهب كل ذلك وبقيت الخرائب يعب فيها يوم الدلاء والاكشارية  
والإناءود والدقردار . سيطر الباشا على مصر ونحن في تغرينا بلاد القور  
والدنكا ، وما نحن رأينا وقد أخضع بلاد السودان منها أنشأ وشيد وجعلنا  
نطاول أقوى الدول ، إلا أن جميع ذلك لا يرد قدرا ضئيلا مما رأينا بأعيننا  
لن يتمرد عليه إنسان لعدة سنوات . صار اسمه أو اسم صهره يعني الموت  
والويل .. العجيب أن بعض الناس نجوا !

في الطريق إلى مصر ، وبينما يمررون على وادي الطواشي ، أصيب المنهج  
بضربة شمس لم يقبله . مات وقد منم الحياة بعد أن دلهما على غنجا نفوده  
الذهبية التي ربحها من إسماعيل . كانت في جيب مري بملابسه فدغناه إلى  
جوارى درويش مكة الذي اعتاله قطاع الطرق . ثم واصلا المسير إلى  
أسوان .

أما عن الملك نمر فهو عندما وصل إلى حدود الحبشة ، انضم إليه جمع  
غفير من المنكوبين . حتى عرفت البقعة التي سيطر عليها بأرض نمر ،  
وصارت ملاذا لجميع النافذين على جيش الباشا .

بعد مشقة وأهوال وصلا إلى شاطيء النيل عند قرية دراو ، وهما في أبأس  
حال من الإعياء ونهلهل الثياب ، حتى ظن من رأهما أنها من الغفراء  
الدراويش فأحسن عليها بعض الطعام . باتا في العراء ، ثم واصلا السير  
شمالا حتى وصلا إلى إسنا - بلدة هادي - فرأى تحتوت التوقف للراحة



والسلام على رفيق رحلتها إلى دارفور وبلاد الدنكا ومناجع النيل - سالاه  
حتى وصل إلى داره لم يكن موجودا واستقبلتها أمه الطائفة في السر ثم  
ذهبت تعد لها بعض الطعام عابت ساعة وعادته فوجدتها مستغرقة في  
نوم عميق .

عندما جاء هادي بقي خائبا في صمت يتأملها في مودة إلى أن استيقظ  
أحتضنها مرحبا فحدثوا عن الماضي الغدا هادي من فعل محمد علي بها  
قال للمشاطر :

— هذه غلظتي كان علي أن أحذركم ديانا هذه نسبة الأحرار التي  
كنا فيها ، الأحرى بلنهم القوي ، والقوي بلنهم الضعيف بونابرتة ضعيف  
قوة المالك ، ومحمد علي أجهز على مملكة السودان

— فكيف كنت السبب ؟

— أستمر فرحة العودة إلى بلدي وأمي أن أنه عليكما بعدم الثروة  
تكلمتما فاستدعاكم محمد علي وكان يخطط لحرب السودان مع أمي عندما  
عدت ها ادعيت أنني كنت بالخارجة ثم بلاد الحجاز للمعج ، حيث  
مرضت فمكنت عدة سنوات ثم أعتدت أموالا وخلعت ملابس التجار  
العالية ولبست لبس الفلاحين هذا ، وعملت بالفلاحة حتى الآن تزوجت  
وأنجبت ، وأخذ الزفاف علي جميع نعمه .

فأبلغاه بأمر جاسوس النابا الذي قابلهم في بربر ثم نهضوا الطعام  
وأكلوا حتى شبعوا في هدأة الليل قال هادي :

— أنصحكما بعدم العودة إلى تلة ، إن رجعتما الآن وصل الخبر إلى البابا ،  
وأعادكم إلى العمل في مشاربعة التي لا تنتهي .

اعترض حثوت :

— لكنى فى أشد الشوق إلى أمى وأبى وأهلى ، وزوجنى مبصرة التى أحببناها تركت ولدى إفرس رضيعا فى شهره السادس

— من أجلهم جميعا فحمل فراقهم عاما بدلا من أن تغيب أحوالنا . لى  
تنتهى حروب محمد على ، عسسه فى كل مكان إختفاؤكما سيجعل الجميع  
يعتقدون فى موتكما بالسودان .

وتركها للنوم رغم الإرهاق ظلا يظفين شوطا من الليل ، بسمعان نقيب  
الضفادع وبهاج الكلاب باحارج تشاورا طويلا حتى توصلا مع صباح  
ديك الفجر إلى أن هادى على حتى أخبرا بذلك فى الصباح . ففرح بها  
وأبلغ جميع الأهلى أنها من أقاربه

بقيا عنده أكثر من عامين . عاوناه حثوت فى فلاحه الأرض بينما عمل  
الشاطر معاونا فى معمل فروج يملكه رجل اسمه عبد القدوس . ظل يعاوناه  
حتى نعلم منه فنون التفريج ، فالتفلاحون يحضرون البيض وعبد القدوس  
ينولى تفريجه ويرد لهم كتكوت من كل بيضتين . أما المعمل فكان يتكون من  
أفران صغيرة ، كل فرن له كوة لمرور الدخان ، يوضع البيض فوق الحصر  
أو النفس على ثلاث طبقات يعملو بعضها البعض ، بعدا عن النار المباشرة .  
بعد واحد وعشرين يوما يقدس ثابعا وتخرج الكناكيت ، التى يستلمها  
صاحبها بعد يومين .

بقيا ضيفين على هادى حتى هدأت الأمور . وكان معظم السودان قد دان  
للإسكندرية ، فبدأ حروبا جديدة فى بلاد بعيدة عما لها البر والبحر . عندما  
أيقنا أن اسميها شطبا من كشوف معاونيه ، فجهزنا العودة

في مزرعة الخشب بالمبيا ، كان لتأديتها بالربيع مرمى حافلا بالأحضان  
ودموع الفرح . أخبرهما أن الوالد رضوان مات ودفن إلى جوار الحد الأكبر  
حتنوت . بكيا معه ساعة زمنية ، ثم استأذنا في التوجه إلى القرية لمرط  
الأسباني

دخلنا نلة على حمارين من حير الأجرة ، في هدوء ودون ضجاجة مثل المرة  
السابقة . فرحت أم الخير والجميع . وهنا لأن زهرة كانت بالدار ، والجميع  
في ثياب الحداد رغم انقضاء الحداد على موت رضوان . تركتها أم الخير حتى  
استراحا ، ثم أخبرتها بأنها كانت تعد لزفاف حفيدها عوض بن مرسى  
ومبركة ، وإذا زوجها رضوان ينتقل إلى دار النقاء

أجلت الزفاف إلى ما بعد الحداد ، فحدث ما لم يكن في الحسبان ذلك  
أن رجال الباشا انتشروا في جميع القرى ، يترصدون ساعة الغيب وقت عودة  
الملاحين من الحقل ، فيأمرونهم بالتوقف صفا ، لبتقوا عنهم الشباب  
الأصحاء ، ثم يربطوا المحارير من أرجلهم بحبل واحد طويلا ،  
ويسمونهم للخدمة في جيش محمد علي ، الذي راح يكونه من  
المصريين . كان من ضمن من أخذهم بكر زوج زهرة ، لهذا جاءت تعيش  
معهما حين عودته ، إن عاد . ثم قالت أم الخير :

— عندما سار طابور المخطوفين خرجت أميائهم بلطم ، ويشفقن  
الشباب . كل أم تكي لأنها الذي يغيب أمام عينيها صارخة : يا عزيز عيني !  
وعذت أما بدموع القهر على حفيدي ، أواسي زهرة ، كلما رأت أحدا يعرف  
جرت نحوه شاكية قائلة في مذلة : السلطة أخذت رجلي ، عزيز عيني !

انتعشت زهرة من جديد على زوجها . تأمل حنوت أنه فوجدها

منها سكة رقع الكبات ، رقع نسلط الشعر الأبيض على الأسود . فنهض  
بفضلها . ثم تشاغل بملاتبة ابنه ادريس ، وزوجته ميسرة نرفه في رغبة  
المحبة ، بينما الشاهر وحيد حزين أ

أما بكر زوج زهرة العفيفة فقد أرسلوه هو وأمثاله إلى التجيد . وصار  
يذرمهم ضباط أنراك أو شرگس ، يرأسهم ضابط فرنسي اسمه سليمان بك  
الفرنساوي .

وفي تلك الأيام كانت بلاد اليونان ، مثلها مثل الشام ومصر والمغرب  
جزءا من السلطنة العثمانية ، يحكمها ولاية أنراك وتقاسى من الظلم ودفع  
الجزية وسبى الجميلات ، صار أهلها يريدون الخلاص .

عجز السلطان عن قمعهم كما عجز من قبل عن قمع الوهابيين ، فطلب  
من محمد علي تأديهم .. خضع وأعد أسطولاً ثقل عليه آلاف الجنود .  
منهم بكر زوج زهرة ، والفقائد كان والده إبراهيم ، ومن الوعاظ محمد بن عمر  
النوسى رهيق رحلة دار فور ، الذي تعرف عليه وعرف أصله ونسبه

طالت الحرب وحل حنحوث محل والده في فلاحه الأرض ، وأثا  
الشاهر مفرخة كناكيت مثل مفرخة عبد القدوس بإسما . كانت أول مفرخة  
في أرض الغروب . وحرب المورة دائمة ، حتى أرسل الانجليز والفرنسيين  
مراكيبهم وأغرقوا مراكب محمد علي ، بما عليها من ضباط أجناب وثلاثة  
آلاف مصري ، من بينهم بكر . غرق في مياه مائة عربية . وكنيت النجاة  
لعمر النوسى ، الذي ما إن عاد إلى مصر ، حتى توجه إلى المنيا فاصدا أسرة  
بنى حنحوث .



عما إن رآه حنحوت حتى فتح له ذراعيه ، ثم شاركهما الشاطر الغداء والعشاء . قبل أن يرجع التونسي أخبرهما بالنبا الحزين .

بكت زهرة ، ومدت في حداثها عاما كاملا ، وجميع ذلك يحدث كي يتم المكتوب وتلتئم شمل العاشقين ، تحمل الشاطر عام الحداد ، ثم طلبها زوجة له ، في ليلة الدخلة أضاء السحر عينيها وتلون وجهها بلون الورد ، ثم ولدت له طفلة عفية لأنها خلفت محبة ، صار اسمها بهية وهي بالفعل بهية .

ظلت أم الخير معبدة بأبنائها وأحفادها ، حتى جاء كاشف المنيا في أدب يطلب من الشاطر وحنحوت التوجه إلى القاهرة ، للعمل في جيش الباشا . أجابا بالسمع والطاعة ، ولم يكن بالبد حيلة !

ضحك الشاطر يواسي صاحبه :

— لا نخزن . تعودنا الترحال والتجوال في بلاد الناس

قالت أم الخير في سكونة لابنها :

— الغربة مكتوبة على بني حنحوت . أنت يا حبيبي لا خوف عليك .

التفت إلى الشاطر :

— أما أنت أيها الجميل ، يا بهي الطلعة ، فاحذر من البندريات !

ضحك مازحا . وراحا يستعدان لتغريبتها الجديدة . كان خطأ حياتيهما ما زالَا يتقاطعان مع خط حياة عزيز مصر الألباني .



## كتب للمؤلف

- ١- فوستوك يصل إلى القمر - قصص ١٩٦٧
- ٢- خمس جبال لم تقرأ - قصص ١٩٧٠
- ٣- الأيام التالية - قصص ١٩٧٢
- ٤- دوائر عدم الإمكان - رواية ١٩٧٢ طبعة أولى
- ٥- أبناء الصحة - رواية ١٩٧٥ طبعة ثانية
- ٦- غرائب الملوك ودسائس النبوك ١٩٧٤ طبعة أولى
- ٧- الهولاء ١٩٨٤ طبعة ثانية
- ٨- الوليف - قصص ١٩٧٦
- ٩- غرقة المصادفة الأرضية - رواية ١٩٧٨
- ١٠- مقامات عجيبة - رواية للطلائع ١٩٨٠
- ١١- كشك الموسيقى - رواية للطلائع ١٩٨٠
- ١٢- حنان - رواية ١٩٨١
- ١٣- عذراء الغروب - رواية ١٩٨٦
- ١٤- الحادثة التي جرت - قصص ١٩٨٧
- ١٥- تغريبة بنى حنوت إلى بلاد الشمال - رواية ١٩٨٨
- ١٦- حكاية ريم الجميلة - رواية ١٩٩١
- ١٧- الأعمال الكاملة (١) ويشمل المجموعات القصصية ١، ٢، ٣، ٨ من هذا الجدول ١٩٩٢
- ١٨- تغريبة بنى حنوت إلى بلاد الجنوب - رواية ١٩٩٢



## ■ دار سعاد الصباح

للنشر والتوزيع

هي مؤسسة ثقافية عربية  
مسجلة بدولة الكويت  
وجمهورية مصر العربية  
وتهدف إلى نشر ما هو  
جدير بالنشر من روائع  
التراث العربي والثقافة  
العربية المعاصرة والتجارب  
الابداعية للشباب العربي  
من المحيط إلى الخليج وكذا  
ترجمة ونشر روائع الثقافات  
الأخرى حتى تكون في  
متناول أبناء الأمة فهذه الدار  
هي حلقة وصل بين التراث  
والمعاصرة وبين كبار المبدعين  
وشبابهم وهي نافذة للعرب  
على العالم ونافذة للعالم على  
الأمة العربية وتلتزم الدار  
فيما تنشره بمعايير تضعها  
هيئة مستقلة من كبار  
المفكرين العرب في مجالات  
الابداع المختلفة.

دار سعاد الصباح

ص.ب. : ٢٧٢٨٠

الصفحة ١٣١٣٣ - الكويت

ص.ب. : ١٣ المقطم - القاهرة

